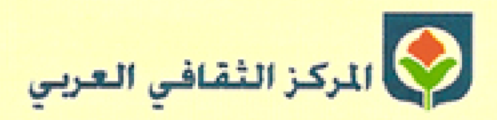
رجاء عالم

خاتم

رواية



رجاء عالم

خاتم

المركز الثقافي العربي

على المنعَطَفِ العشرين للدربِ الضيق الذي تتخلله سلالم متآكلة يقوم البيت الكبير، بيت نصيب، وكل مغارب مكة تتجمع على قمة هذا البيت على جبل هندي المتربع بقلب المدينة. ينافسُ القلعةَ التركية في إخفاءِ شموسِ مكة والتطاول للنجوم، لا أحد يملك أن يتجاوز البيت دون أن يرفع عينه لخوارجه التي تبدو داخلة بعسكرها الحجر في الأفق. الأنظارُ اتفقت على اعتباره أعلى بيوت الجبل أو مكة على الإطلاق، إذا أخذنا في الحسبان قاعدته الجبلية التي ترفعه للأعلى، لذا يظل مثار فضول أهل الجبل والناظرين من بقية الأحياء.

لم يكن من السهل التكهن بزمن بنائه ولا بشجرة نصيب التي سكنته لأول مرة، حين وعاه أهلُ الجبل كان مسكوناً بالشيخ نصيب الخمسيني وأصهاره: خمسة من الأصهار ولا حافظ للاسم (نصيب)، كل الذكور ذهبوا في حروب الأمراء التي لم تنقطع عن تلك المدينة المحجوبة بالجبال.

كل من وُلِدَ أو انضمَّ لذاك البيت تَعَايَشَ حتى أَلِفَ العلوَ في المقامِ، بقي الفضولُ يدورُ حولَ مَغَالِقِ البيت، ما يعرفه السكان جِيداً أن بيت نصيب يدور حول أسرار المفاتيح، كلُّ طابقٍ بمفتاحٍ كبير يُسَلَّمُ لبنتٍ من البنات، بقي الطابق السابع مكرساً للابنِ الذي لم يولد بعد بمفتاحه المنصوب على قوس المدخل بانتظار حامله، بينما الطابق الأول بلامفاتيح لمجالسِ الشيخِ نصيب المُشْرَعة على الطريق، لتتمركز سكينة الأم في الطابق الثامن وما يقود إليه من خَوارج وطيرمة مفتوحة للفضاء، بحيث لا تُتيحُ احتجاباً ببابٍ ولا تُبيحُ إذناً بمفتاح. لتلك الخوارج ومبيتاتها يجتمعُ كلَّ مساءٍ نسلُ نصيب.

حكايةُ البيت انطلقت ربما من بابٍ، قامَ في زمنٍ متأخرٍ بآخر الدهليز، لم يكن الباب موجوداً في جسد البيت الأصلي، لكنه ظلَّ موصداً بلا مفتاح لزمنٍ، حتى شمله النسيانُ فانفتح دون أن يعتني بانفتاحه أحد، فإذا هو بدرجاتٍ ثلاث هابطة بأرض الجبل، تقود لمقاعد سفلية وأقبية وفناء باسطبل، كلها مسكونة ببشرٍ وحيوان. المقاعد كانت مثل وقف للمساكين، تسكنها في كل حولٍ أو يزيد عائلةٌ مهاجرة تهبطُ مكةَ لمجاورةِ بيتها الحرام. لأعوام احتلَّت المقاعدَ عائلةُ مَالَم من طلبة البانتو بجبل كيبو، جاء الأب الأفريقي بزوجته وابنه لطلب العلم على يد الأئمة في زاوية المذهب الحنفي. أما الأقبية فيسكنها العبيد.

لم يعتن بانفراج باب الدهليز إلا الماء، برجفة في مياه البِرْكة رُصِدَ الانفراج ولم يثر أي اهتمام. رغم أن بِرْكَة ماء

الطابق الأول والمتوسطة لمجالس الشيخ كانت قبلة عيون الزوار. نادرة هي البيوت المكية التي يتسلق طوابقَها الماء. مساحة من زئبق يترقرق ويسلب الداخلين أرواحهم، يدخلون على الشيخ نصيب مبهوري الأنفاس. بالأسفل كان المهاجرون على اختلاف ألوانهم يتنصتون على تلك الرقرقة ويقرأون فيها الطوالع، كل الحروب بدأت من رجرجة على سطح تلك البركة، من اضطراب. وكانت الحروب تُغير أول ما تُغير على الأقبية حيث يفتش الجند عن الذكور للسخرة والموت. الشيخ نصيب قطع تلك الغارات حين أسكن عبيده الأقبية، تلك المفتوحة بدرجاتِ الدهليزِ الثلاثِ من جهةٍ ومن الجهة الأخرى بأبوابٍ غارقةٍ على حافةِ الفناءِ المتربِ خلف الدار، ذاك الفناء باسطبله تُسَوِّره من الشمال صخور الجبل، لذا كان من السهل على الركائب سلوك الصخر للفرار من السخرة، إلا إن ركائب الدار وعبيدها ظَلَّت ترفل في العز ولم يخامرها حِسُّ الإفلات. بقي من الركائب اثنان، ومن العبيد اثنان: شارة وزوجها فرج، وابنٌ ذكر تَبَنته الدار وشيخها الذي أعتقه منذ الولادة، وتيمناً سارعَ فرج فسمى وليده سَنَد، وتقبل الشيخ ذاك التكريس، صار يُقَدِّمه بالقول:

«سَنَدي...» يقولها بفخرٍ أقرب للنبوءة أو للوعد بالخلاص. أغدق عليه كولد، فما أن بلغ سَنَد الشيخ الخامسة حتى صار يرسله للحرم يتلقى علوم القرآن.

* * *

عند ولادة سَنَد أُرسل في رحلته للبحث عن عِرْقٍ يتعلق

به لشجرة عائلة الشيخ نصيب، ليس غير اللبن رابط، وحيث أن سُكَيْنة لم تكن نفساء حينها فلقد بدأ البحث عن ثدي تُرْضع في بنات الشيخ وقريباته، وقادهم البحث لأملٍ وحيد، شقيقته زين المقيمة بالمدينة المنورة.

رحلة بلوغ الثدي كان يجب أن تتم على عجل، أي تأخير قد يهدد بوباءٍ أو بجفافٍ مباغتٍ للبن النفساء زين، مما يغلق آخر الأبواب التي يتحرَّقُ الشيخُ لولوجها بسَنَد لنسبه، وكانت أنباء ولادة زين لابنها محسن قد بلغت للتو مكة، الخبر فتح كوة بقلب الشيخ نصيب وأطلق آمال فرج في تتويج وليده بالنسب الحر، محسن يكبر سَنَد بما يقارب الشهر، لذا كان الشيخ نصيب في سباق مع سواقي ذاك الثدي المُعَلَّق في المدينة المنورة.

مذ شاع نبأ تأهب الشيخ نصيب للزيارة النبوية توافدت النسوة بالنذور:

«أمانة تعقدي لي في الروضة بِنَذْرٍ، نَذَرتُ رقبةَ حسيل لو رجع سيدي بالسلامة...»

«الفاتحة مني أمانة، للمصطفى وسيدي أبو بكر وعمر...»

«أمانة تفَرِّقي ستين قرص فطير على روح أمي في مساكين البقيع...» ودسَّت في يد سكينة ريال فضة.

«هذه ثلاثة ريالات فضة، فَرِّقي عني نَذْرَ ثلاثة أكباش في مجاوري الروضة...»

«صُرِّي عني كسوة للأغوات...» وسكينة تأخذ وتَصُرُّ من نذورٍ لا تنقطع، وهبات لمساكين قُبَا، وتلاوات لدَفْنَى البقيع، تترافق وأهازيج المزهدين التي تداخلت حتى بالأحلام وحملت الدارَ على جناحيها وقطعت بهم الأيام الثلاثة التي تسبق الرحيل.

حُمَّى الرحلة كانت كفيلة بالحفر في وعي الوليد، الحمير المنقوشة بالحناء اجتمعت منذ الفجر في صف تحت الرواشن، والهوادج المزينة بالكنتين لَمَّت بهاءَ الشروق وحسرةَ الأعينَ المتلصصة من وراء الرواشن وخوارج الجبل، هودج خاص لنومة شارة المُحَزَّمة بالكتّان، بينما تتقدمه في البهاء هوادجُ العمة سكينة وبناتها.

حين الرحيل اندلعت الدموع والزغاريد والدعوات والبخور في دائرة حول بيت نصيب، توافدت العباءات السود والعمائم البيض خارجة تُوَدِّع المسافرين، وتَعَلَّقت صيحاتُ الصغار بين أقدام الركائب، كلٌّ في محاولةٍ لِتَركِ بصمةٍ تُسافر مع المحظوظين وتبلغ روضةً من جَنَّةٍ بين المنبر والقبر. كلُّ قلوبِ الجبلِ تَعَلَّقت بأشجانها للموكب، اندفعت الجمالُ تُبعبع في نفاذِ صبرٍ للطلوعِ من بحرِ الهياجِ ذاك واستلام بحرِ الرمل، سارع الأدلاء يكبحون جماحها بينما سارت الحميرُ بخفة، في عيونها نشوةٌ باتساع الجبل، تلك الحيوانات الصبور أدمنت انفجاراتَ الفرحِ هذه، تستسلم لطقسِ الخروج مبكراً، تترك جلودها للحنَّاء، ورقابها للشناشن، تعرف كيف تتماهى بتلك الموسيقى الجوفية في أدِلاّئها وراكبيها، تتهادى

في زينتها بخجلٍ وزهو، تفتحُ اتساعَ عيونها على كل عابرِ بالطريق. بينما الجمال تُمعن في شهقة أعناقها، تُرخي أهدابَها الطوال بتعالٍ على الكنتين، وتغرق في تقشف وبرها، هذا ما تَمْثُلُ به لحضرة الرمل، وشاح تتلقى به عيون أعاصيرِ أين منها عصف هذي العيون.

رافق المزهدون الموكب بأهازيجهم حتى الشهداء، متجاوزين بحرَ النوايا والصلوات في التنعيم، تلك المسافةَ المألوفة لعودتهم من مرافقتهم للركائب. ليس كموكب الشيخ نصيب يعد بالوفرة، الهدايا التي تنتظرهم في عودةِ الركبِ مدَّت في خطوهم حتى لاحت عُشَشُ النوارية وبيوتُ طينها، كانت الركائب تطير بعذوبة أصوات المزهدين، والرمل تحتها يتقلب ويطوي بها المسافة، طيرُ بهجةِ حَمَلَ القافلة على جناحيه وطار:

وأتاك العيس يبكي   وتَدَلّى في راحتيك
واستجارت يا محمدا   الظبا بهدي يديك

أفاقوا وقد تلاشت بيوتُ النوارية وراءهم، من هناك رجعوا، خَلّوا الموكبَ يُتابع للمدينة برفقة تواقيعِ الرمل والصمتِ ولهفةِ القلوب.

ثلاثة أدلاء رافقوا الموكب المسكون بالفرح، فرح يطير بأخفاف الرواحل ويطوي المسافة لقبر الحبيب بلا روية. وكان لابد لنشوة الشيخ أن تستدعي ضربة العين والغول، كل من في القافلة غدا يتوقع مفاجأة، سرت روح تأهب في المسافرين والأدلاء.

ليلة ناموا في ديار بدر طلعت الغول وكادت تذهب بفرج، لكن الأدلاء لحقوا به وأرجعوه، حين وصل أمسكت الحمى بالوليد.

تهامس الأدلاءُ أن:

«الغول لم تطلع من غربة الدرب إنما من غربة المسافرين...» وتحولت شكوكهم لفحيح حين حددوا بالضبط مطلع الغول:

«لم تطلع ولم تقطع دربنا، والله أعلم، إلا من عين سكينة، من نظرة الحسرة تلك التي هيجت الرواحل على طول دربنا للحبيب...» وحول رماد المواقد طال صمتهم وهم يضمرون عن شيخهم نصيب الحقيقةَ، أغضوا شكوكهم حول سكتتة الجمر وراقبوا في رؤوسهم تدور نفس الغول، نفس الخرافة التي ظلت تُطِلُّ لتجذب فضول المسافرين:

«نظرة سكينة بحرٌ من الساكن، ذاك الرمل الذي يبتلع أعتى القوافل، بحر من رمال معجونة بتلك الشياطين التي تتحلب توقاً للنسل ولا تنسل، لذا فإنها تنصب المهالك للمواليد من كل الأجناس حتى فراخ الطير والحيوان والهوام...»

رسموا دوائرَ التحصين حول أعناق الركائب، شدوا إحراماتهم المرقشة على رؤوسهم وطافوا يتفادون نظرةَ سكينة، تلك الزوجة المفزوعة من مَيْلِ قلب الزوج لربيب، ومن برد توق الزوج لولد من صلبه يرضع لِبَا القلب قبل أن يترسَّم بالاسم...

غصَّ قلبُ سكينة وغاص بقرصةٍ في سنام بعيرها، بعبع البعير وكاد يرمي بالهودج والساسة، لم يستكن حتى أغضت عينُ السيدة عن هودج جاريتها. غاصت مخاوفُها بقلبها وسملت كل حواسها، فكَّرتْ:

«كل هذه الأعوام وناركَ يا شيخي نصيب تتجمع لِبَذْرِ حامل الاسم، والآن ها أنتَ تتشتت صوب المنافس ومن العبيد، خِزْتَ واستخرتَ ابنَ جاريةٍ لصَبَّةِ مرجلكَ، لِصَبَّةِ نصيب، ما لك يا شيخي ومآلك، كيف لا تفزع فزعي؟! عظامي برد، كل نارنا ذاهبة هباء على درب قباء. . .»

هاجت سلسلةُ الرواحل وزمجرت الأرضُ تحت أخفافها، فزع الأدلاء وحوقلوا:

«حوالينا ولا علينا، اللهم لا حول، اللهم على الظراب والآكام ومنابت الشياطين. . .»

وارتفعت أصواتُهم بالحداء الموصوف لطرد الحلكة، بعذوبةٍ لا يعرفها غير القفر والحيوان تحرَّكَ الحداء، غَنَّى بأصواتِ الأدلاءِ ورملِ الأرضِ والسماءِ سلسبيلاً يطرد الشياطين التي تؤجج نيرانها من القباحة والحسد والغيرة والسعار، رفَّ الحداءُ وغَيَّمَ حول هودج شارة شاملاً القافلة بملائكته المُجَنَّحة.

خوف شارة على وليدها غمر الموكب بالصمت، أنينها المكتوم يُرافق وقع أخفاف الجِمال ورياح السموم التي لازمتهم بلا توانٍ ولا رأفة، كلما أحاطت السَموم بالمهد أمامها بللت خرقة الشاش من دمعٍ وماء ونصبتها على جسد

الصغير، تلسعها السموم ولا تتهاون، طرية لا تزال من المخاض تشد الحزام على بطنها، تشد كما وصفت الداية: لتقويم الفرع، تشد وتربط على قلبها بحلم أن يكون من لحمها نسل سادة. لم يُصَدِّق أحد أن يصل سَنَد حياً المدينة، لكنه تشبث بالحياة، كمن يرضع شمس تلك الطريق الملتوية بين معارك وشهداء بلا عدد.

ليلة دخلوا المدينة خافوا أن يلقموه ثدي زين خشية أن تنتقل الحمى لرضيعها محسن، لكن بكاءه شق صدورَ الرجال، حشرجة أقفلت الحناجر فتعذر على الرجال تبادل عبارات الترحيب، يبكي سَنَد ولا ينام ولا يُقْبِل على ثدي ولا ماء، صار جلده بلون الصدأ ويتجعَّد، مع منتصف الليل شاركه محسن في العويل، كأن روح غضبٍ سرت في أجساد النخل، كل الحي والبساتين بكاء، عندها انهارت مقاومة زين، تجاوزت التحذيرات والمخاوف وألقمته ثديها، في نهمٍ مصّ سَنَد، مَصّة واحدة أفرغت كامل عروقها، ترنحت زين وأسندتها شارة، صاروا يرفدونها بمُدِرّات اللبن، يدسون بين شفتيها مكعبات الحلاوة الطحينية، حلاوة السمسم تسري ويتكور ثديها بين شفتي الرضيع. خمس رضعات مشبعات في ليلة وزاد عليها في الأيام التالية، صار يكفي أن يمس بشفتيه ثدي زين ليهيج مذاق السمسم بحواسها ويتدفق اللبن بما يكفي لري دائرة من المواليد، محسن ارتوى كما لم يرتو من قبل، وفارقت الوليد الحمى كأن لم تكن.

الفجر حين يحل على المسجد النبوي يَتَرَقَّش بخُضرةِ

طالعةٍ من الحَضرة المخفية بالأستار، حضرة القبر أعتى من صيحة الحياة بالخارج، لهناك لجأت شارة بوليدها وسيدها، بيمناها تعلقت بالبوابة التي لا تنفتح إلا للسدنة، وبيسراها تحمل الوليد في أقمطته التي حرصت على تقشفها في الوقوف بهذا المقام، قماط من قطن أخضر يتلملم لصدرها، تعلقت وتمتمت بكلمات النشيد التي أسعفتها:

دريهو واستدرهوا   واستعينوا بالله

استعينوا بالذي   خيمته مظلله

طلع البدر علينا

غناؤها مثل تنفس الريح بين الأروقة، (دريهو) تختلج الهاء بصدرها، مثل بكاء النسوة المكتوم حول القبر، مثل ابتهال الدراويش، لا تعرف ما تطلب لوليدها الداخل في سلك السادة، أقصى ما تريد كان، والآن تريد ربما أن تتعلق بجذعه الصغير الراسخ في لبن سيداتها، في فروع شجرة الأخوة الذين سيأتون منتمين لهذه الخمس رضعات مشبعات، صَلّت على الحبيب وتلجلجت برغبات لا يُفصَح عنها، رغبات لا تتجاوز اللقمة الحلال وربما لا تقل عن الخلود.

حين طلعت من المسجد النبوي كان الفجر يشقشق على المدينة ولا يكاد يحط على درب العيينية الطالع من باب السلام ذاك، على جانبي الدرب المتربة تصطف حوانيت الأقمشة والذهب والسُبح تنتظر الزوار والحجاج. بين الحوانيت وعلى جانبي باب السلام تتوزع الأفريقيات والحجازيات ببسطات البيع، بائعات التمر والسمن البلدي،

بائعات اللبن الرائب يخطفن القلوب بقرعاتهن وقصعاتهن الطافحة بالرغوة، بينما بائعات الفطير يعتمدن الرائحة المدوخة، رائحة أبازير الشَمَر والحبة السوداء تخترق الرؤوس وتجذب الطالعين من الأروقة. مالت شارة لبائعة اللبن، وكانت الأفريقية تربط رضيعاً لظهرها، تنحني وتسكب اللبن من قرعتها الضخمة في قصعات الفخار، وحولها دائرة من الزبائن الطالعين من المسجد، عادة ما تفرغ جعبتها قبل الشروق، لا تلحقها الشمس إلا في عُشَّتها المطلة على البقيع. انهمكت الأفريقية تلملم قصعاتها وقد خلت القَرعة من اللبن، آخر قصعة كانت من نصيب شارة التي لم تعرف ماجذبها لتلك البائعة، بقعتا لبن تطفوان مثل نيشان على صدرَ ثوب الأفريقية، عرفت شارة كيف يَتَحَلَّب الصدرُ طلباً للرضيع، وربما ذاك ما ناداها هي التي جف لبنها مذ صارت أماً لسيد:

«لبنك يا أمنا حوا شفا...» تلمظ شيخ من السادة بعد أن تَجَرَّع قصعته الثانية من اللبن، مسح فمه بكمه وترك لها ريال فضة، لمعت العينان السوداوان على العطية الباهظة، وسارعت تدس الريال في طيات صدرها، وقفت شارة تتأمل في ذاك السواد الذي يجاوب بشرتها الخلاسية، لم تعرف إن كان حوا اسم البائعة أم لقب تحبب من الشيخ. الرضيع على ظهر الأفريقية بدأ يمص وبنهم ظَهْرَ أمه، تُفَتِّش شفتاه عن حلمة، يمص طرفَ فوطتَها المبرقشة، الحركة النهمة للشفتين الغضتين أرسلت تجعيدةً في قلب الأم وعلى طرفي فمها،

أسرعت تلملم أغراضها، بينما سارعت شارة تَعُبُّ اللبنَ الطافح في قصعتها، لبن بمذاق العطرة التي ترعاها خراف ونوق المدينة. ريانة تحركت شارة عائدة للأروقة، جلست أمام الروضة تتأمل في الموت المتيقظ مثل مظلة وراء الأستار، لهناك لحقت بها الأفريقية، فَكَّت ربطة ظهرها مطلقة الرضيع الذي صار يضرب الهواء بعنفوان، ألقت شرشفها البرتقالي على صدرها وتحته أرسلت ثديها الطافح والرضيع، صوت المص النهم حَرَّك توقاً بصدر شارة، وبدأ بكاء سَنَد يقض الأروقة، لمحت شارة تململَ الأغواتُ والسدنةُ، بهدوء ودون استئذان تناولت الأفريقية سَنَد وأسدلت عليه شرشفها وألقمته ثديها الثاني، الحركة جاءت مباغتة وعفوية وحاسمة لدرجة لم تملك معها شارة إيقافها، وربما لم ترغب في إيقافها، جلست عاجزة تتأمل في خيمة البرتقال وتحتها الرأسان الصغيران يعبان اللبن بنهم... حَدَّثت شارة نفسها:

«رَبَطتَ سودانَ المدينة لنسل سِتِّي زين، ما تركنا للوحدةِ فيكَ حصَّةً ياسَنَد، السادة والمهاجرون صاروا أخوانكَ...» نظرة التعجب في عين الأفريقية نَبَّهَت شارةَ لحديث نفسها الذي كان مسموعاً لجليستها. وفارت شرخةُ العطرة في حلقها ممسكة بالحواس، خطر لها أنها قد رويت هي أيضاً من ذاك الثدي.

في اليوم التالي - حين عبرتْ شارةُ العينية لباب السلام بالمسجد النبوي - باغَتَتها جلسةُ الأفريقية برأسين تحت

خيمتها يرضعان، كانت تُرضع وليدَ حاجَّةٍ شامية جلست تستريح أمام دكاكين الصاغة. وفي اليوم الذي يليه كانت الأفريقية تُرضع وليداً هندياً، وهكذا في كل يوم تُرضع لوناً من المواليد:

«أين انتهت عصبة ولدي وأخوته؟» ولم تَبُح لأحدٍ بتلك الحادثة.

في آخر زيارة لها للمسجد، حرصت على الجلوس بسكينة في الروضة، تعمدت أن تغرق ووليدها في سكينة كلية حتى لا تُثير السدنة والأغوات فيأمرونها بالتراجع لخارج الروضة، حيث لا مقام لأحد في الروضة، هي للوقفة الخاطفة للصلاة على الحبيب. جلست في الروضة مباشرة أمام القبر، كان السدنة في اضطرابٍ، يروحون ويجيئون، تَهَامَسَ الناسُ أنهم يُحَضِّرون وليداً لهم للسلوك في سدانةِ الروضة. حتى اجتمعَ جمعُ السادة من النسل النبوي والأغوات ويتوسطهم شيخهم، جاؤوا بالوليد في أقمطته، ناولوه وهم يرفعون الصلوات على الحبيب، تَنَاوَلَ كبيرُ السدنةِ الرضيعَ وتلا عليه آيات يَتَوَارَثها المشايخُ كبيراً عن كبير، بيدٍ أمسكَ الشيخُ بالرضيعِ وبيدٍ أدارَ المفتاحَ في قفلِ الحضرة، فَرَجَ بابَ القبر المحصَّن بالأستار، تراجعَ الجميعُ إلا واحداً، هو كبيرهم حامل الرضيع، أغمضوا أعينهم، ومد كبيرُهم الرضيعَ لعتمِ الحضرة، لم يتقدم الشيخ بخطوةٍ ولا بنظرةٍ للداخل، حَرَصَ أن يبقى بكله وحواسه للخارج، فقط الرضيع يلج كما ولج كلُّ وليدٍ في النسلِ الشريف، وحده في

الحضرة بصير، يرى لما لا سبيل للتكهن به، يرى ويُرَى كما لا يمكن لموجودٍ أن يراه، في أقمطته ضربت أقدامُه الهواءَ، فاح بخورٌ، بخورٌ من باطنِ الباطنِ أَخرَسَ كلَّ بخورِ الخارج، في عتمٍ كامل تحرَّكتْ عينُ الرضيعِ، لاعين كبير يُباح لها الاطلاعَ على ماهنالك. اغترفَ الرضيعُ أقدارَه من الحضرة، حتى بدأ يناغي، حَدَّثوا أنه قد صَلَّى وصُلِّي عليه، أخرجوه، واجتمعوا حوله، طوال الوقت كانت شارة جالسة حيث هي غارقة في عتمتها غائبة عن أعينهم، اجتمعوا على الرضيع بالمباركة والتلاوات، ويد الشيخ معطلة بالوليد، تُرِكَ البابُ مواراباً، اجتاح شارةَ توقٌ لحشر وليدها في تلك الفرجة، توق لفرط قوته صار يزيد شِقَّة الباب، توقٌ أرخى عينَ وليدِ السادة لعين سَنَد، التحام النظرتين سرا في وليدها بمعرفة، كل ما كان في الحضرة طلع من أستاره ليتناول قلبَ سَنَد، نظرةٌ واحدة ورَكَلَ الهواءَ، ركلةُ فرحٍ وحشي انفلقت لها جبهة سَنَد فلقتين: فلقة من زمرد وفلقة من عقيق تتاليان على هامته كتاج، الركلة لعمق فرحها ضربت عميقاً في صدر الأم، شَرَخَ قلبَها البخورُ، بقيت منه كدمة هناك أن: قد صَلَّى وصُلِّي عليه. انسلَّت شارة مغادرة. . . وداعاً للحبيب.

بعد إقامة أسبوعين في بساتين قُباء غادر نصيب بربيبه وأبن شقيقته بالرضاعة، أُعلن سَنَد من نسل الأعيان، واستقبلته مكة بالزغاريد والأناشيد، ركض الصبيان والحشاشون وراء الموكب يصرخون:

«جو جو راحو وجو. . .»

غَمَزَ الحشاشُ شارةَ وراء أستار الشقدوف، شَعَّت لمعةُ الجارية الخلاسية في قصب بخنقها، تألقت تجمعُ العيونَ تنافس عمتها سكينة في ثوبها النزلاوي والمسفع التُل وبخانق بناتها المشغولة بالقصب، تذهيب جسد الجارية العجيب لا تُضاهيه غير نصاعة فرج في ثياب السادة، غداً حين تؤويهم الدار ترجع الأدوار لتستقر مفرّقة بين عبد وسيد، أما دخلتهم لمكة فكانت السيادة موزعة بكرمٍ عجيب على كافة أركان الموكب، شيء في بكاء سَنَد يوحي بالرضا، بالتمكن والعلو على العالم الذي أعتقه من العبودية.

كميات الدوش والحَبَق والنعناع والبلح المديني التي جُلبت أتحفت كل بيوت جبل هندي، مابقي من حزم الحَبَق أُلقيت في بِرْكَة بيت نصيب، وفاحت المجالس بأرواح بساتين يثرب، كل مياه الجبل فاحت بذاك الحَبَق حتى ظُنَّ أن الجبل يشرب من عروق تلك البِرْكَة الطالعة من خضرة المصطفى.

* * *

بابُ الدهليز لم يكن له وجودٍ يومَ دَخَلَ سَنَد نسلَ نصيب، ولا حتى حين حَمَلَتْ سُكينةُ في عام البَرَد ووضعت طفلها الذي لم تطلع عليه قابلة. ليلتها لم تقم في الدار أبوابٌ دخيلة ولا انغلق من أبوابها القديمة مصراعٌ ومع ذلك لم يطلع أحدٌ على تفاصيل تلك الولادة، مما جعلها مثار امتعاض قابلات مكة:

«يا للحسرة، فوتوا علينا مقابلة وليد نصيب! كيف يمكن أن يدخل الدنيا وليد دون أن تتلقاه يد قابلة، وتختم سُرَّته بالصِبْر والأوراد!».

فاجأت سكينةَ آلامُ الولادةِ فجرَ ليلةِ جمعةٍ، قمر تلك الليلة بدا مشحوناً بزرقة، لاشيء في جسد سكينة أنذرها بقرب الولادة، قضتْ ليلةً من سلام ولأول مرة مذ ولجت شَهرَها التاسع بالآلام، طوال شهر والقابلة حُمَّص تؤكد لها أن الجنين مقلوب ويهبط للحوض بساقيه، طوال شهر حملها التاسع ـ الذي بألف شهر ـ وسكينة تتكبد مروخات الزنجبيل

ومحروق جوزة الطيب لكي تُحَمِّي موج الرحم فيُنَكِّس الجنين.

مع الفجر بَرَقَ في ظهرِ سكينة سوطٌ من نار، في شهقة واحدة نهضت خارج ناموسيتها، شهقات مكتومة تلاحقت مع حشود السياط التي لَفَّت بشراساتها كامل الحوض. بئر عَرَقٍ تَفَجّر من عنقها وأعلى فخذيها في محاولة يائسة لإخماد تلك السياط من نار. تقلَّصت ناموسيات الأصهار والبنات المتوزعة على الخوارج علويها وسفليها، بينما انسَلَّت سكينة، لم توقظ أحداً، زحفت تلملم ساقيها لحوضها المتهتك، زحفاً أو حبواً قطعت المسافةَ، مع كل خطوةٍ كان بين الساقين سَدٌّ يُهدد بالانهيار، انسلَّت للمبيت الأوسط والذي ينفتح برواشن على كل أسطح الجبل ومكة والحرم، انفردت سكينة بمخاضها تعض على مساند الطَرْفِ وتختنق بالألم الرهيب، طَرْفٌ منعش برائحة البر كانوا قد قايضوا عليه البدو بالأمس القريب، القمّاشة والمُنَجِّدون لم يغادروا إلا صباح اليوم، صارت لخرجتهم الدارُ مثل عروس بانتظار الوليد.

طَرْفٌ مشحون بروائح وحش ومطر، ويُحَفِّز لُججَ الطلق. شرخة الدم حين انشقَّت أيقظت الشيخَ نصيب من نومه بالخارجة الشرقية، جاء متعثراً يتبعها، طعمٌ حار غاص بخياشيمه ويجرّه ليَطَّلع على ذاك المخاض الذي لم تشهد الدار مثله من قبل، دم مقطوع وبالغ الحيوية، دم لا يتجلط للهواء ويستمر يجري، كادت تفرغ جذور النفساء من عقيقها والرائحة تتشربها جدرانُ الدار وتنفذ لحجارة الجبل.

تحت الروشن وبصدر المبيت العاري المفتوح بسبع درجاتٍ ضيقة على المطبخ كانت سكينة جالسة تطلق وحيدة، تحتها دائرة بياض من إحرام قديم مُكَرّس للولادات، في نسيجه ذكرى كل من عَبَرَ رحم سكينة لدنيا الفناء. إحرام محبوك بالصبر وزخّات الآلام، دم سكينة هذا الفجر لا كدماء الولادات، من خالص الدم الحر/ الدم الحي ويتناسج بحمرته المُذَهَّبَة مع البياض ويُحْكِم الألمَ في حوض ذاك الجسد الرهيف، موجات وموجات اجتاحت الرحمَ في محاولةٍ يائسة لتنكيس الجنين الواقف في الرحم، عبثاً، ولا صرخة انطلقت حين شقّ الوليد الرحم بقدميه خارجاً بأكبر بِرْكَةِ دم. لكأن الأم لفظت رحمها في تلك الطلقة، نزفٌ بطعم نبوءة سكنت رأسَ الشيخ نصيب للأبد.

الوليد حين أطل كان خاتمة الولادات، أسكت كل شيء بطَلَّته، بل وحتى لم يستقبل صعقةَ الهواء في رئتيه بالصراخ، بدأ دخول الدنيا بركل العتم حتى شق لنفسه كوة نصاعة في المبيت، مثل يراعة راقبته سكينة وعرفت فيه خاتمةَ الصراع لإحياءِ الذِكْرِ، عرفتْ سكينة تلك الحقيقة في نار سرت وسَملت بطانةَ حوضها المتهتك بالوجع. تحرك الشيخ حائراً بين الجسد الملطخ بالمخاط الأخضر وكوانين النار الخامدة بالمطبخ، يطلع ويهبط الدرجات السبع ويتلجلج لسانه بالرقى (من شر حرق النار ومن كل عِرْقٍ نعَّار) والمتداخلة بآيات (ألقت ما فيها وتخلَّت) لا يعرف أين يستقر بزلزلته، شيء في صمتِ سكينة حَذَّره من ايقاظِ جاريةٍ أو بنت. انتهى واقفاً بين

يدي الوليد المُتخَبِّط في كيس يميل للخضرة، كيس برّاق مثل زمردة، شعر الأب بالغشاء يبرق ويَتَحجَّر كمن يوشك فيوصد على الوليد. أحاطته سكينة بدفء راحتيها وبصمتٍ تحركت لحنفية الماء بأرض المطبخ، ماء من فجر مكة فَتَحَتْه على الجسد الرهيف، انشَقَّ غشاءُ الخضرة وبان مابين ساقي الوليد، بأصبع مرتعد أشارت سكينة لِمَا بَان، وجاوبها اصطكاكُ أسنانِ الشيخ نصيب كمن لحقته مياه الفجر. تراجع مسحوراً حتى ارتطم ظهره بزير الماء الضخم، أم الأزيار تلك واقفة كديدبان يمين الدرجات الثلاث المؤدية للكوة المفتوحة على الخارجة الخلفية، أعلى تلك الدرجات المخفية ولليمين يتوارى مخزنُ المؤن، وأسفلها لليمين بسطة الأزيار. انتفضَ، كان عاجزاً عن إيصاد عينه الفاغرة ورَشْحِ الأزيار بجسده، حين تمالك محجريه كانت سكينة تَرْقَى الدرجات السبع عائدة للمبيت. بإحكام لَفَّت الأم وليدَها في قماط القطن المُشَرَّب بالحناء المدنية، لَمَّتْه لصدرها وتكومت على مساند الروشن وغفت هناك. حوله وعلى الرف المحيط بجدران المطبخ بارتفاع الرأس كانت المطاحن ودِلاء القهوة وقدور النحاس والصواني والأباريق المطهمة بالفضة تدور وتشهد على مابان. ظَلَّ هكذا حتى أيقظه نداء صلاة الفجر كما القادم من ذاكرةٍ رُفِعَتْ، من حرمٍ في السماء السابعة.

* * *

ضفيرتا سكينة من خيوط المسك ناصعة البياض من الجذر لنهاية الأطراف، قالوا إن ذاك البياض هو حرقتها من خطف الموتِ لخمسة من أولادها، في كل بطنٍ كانت تحمل بذكرٍ وأنثى، حتى تمام الخمس توائم، وكلما بلغ لها توأمٌ اجتاحت مكةَ حربٌ أو وباءٌ وأخذتِ الذَكَرَ وتركت الأنثى، حتى صار الذكورُ كَيّة عزرائيل في قلب الشيخ نصيب، وصار رحم سكينة كتلة من لهب تتحرق للحمل وتلفح شيخها ليصب ويبذر الحافظ لشجرة الاسم.

«عِشْرَتُها وجع...» لم يبح الشيخُ نصيب بآلامه ولا حتى لأقربِ قريبٍ، كان يستسلم لذاك الفرن الرابض في ناموسيته. بنارٍ منه صار ينبش في صلبه عن الولد، ومرت ثلاثة أعوام وجسد سكينة لا يجاوبه، حتى حملت في عام البَرَد الذي فقأ عيون الحيوانات في دائرة حول الحرم، ونقر الرواشن وترك بصمته الباردة على أخشابها. في ذاك البرد وجدت ناره ملجأ للتلاقح والتخصيب.

صباح تلك الولادة لم ترتفع زغرودة في قلوب الشقيقات، ولادة من الدهشة والخيبة، حيث انقطع سيل التوائم فجاء مولود فرداني، هكذا أصبح البيت على (خاتم) كتلة حمراء، مقمطة في خرقة رمانيّة وملفوفة على صدر سكينة، لم تقترب منها جارية ولاشقيقة تشبثت الأم بوليدها بين غيبةٍ وذهول، لمعة وحشة صارت تضربهم من عين سكينة، يجاوبها برقُ عين الشيخ نصيب، هذا الذي ختمَ على القادم مع ارتفاع الأَذان لصلاة الفجر في الحرم، في صمتٍ كان قد قطعَ الحبل السُرّي، أغلق على السرة برِيال فضة وختم على النزف بالعنبر الأسود:

«أشهد ألا إله إلا الله والله أكبر، سميناك خاتم» كَبَّرَ الاسم، ثم ترك لزوجته أن تُحكِمَ عليه القماط، عيون الخيبة حَوَّطَت النفساءَ التي لولا شفقة (شارة) الجارية لما أسعفتها عنايةُ البيت ولا برشفة (مُغَاط)، الشراب الموصوف لشد الظهر وحَبْكِ عظامِ الأنثى المبعثرة بالولادة.

باستماتةٍ تعلقت الوليدة بذاك الظهر واشتدت، خاتم بشعرها الأحمر القصير مثل جمرة تكوي وتلحم مجاري الولادة بالدار، تحبو / تتعثر في خطواتها الأولى/ تسير / بين الشقيقات بدهشة، لكأنما هي في عالم من النشوة لا تنقطع، كل ما حولها يثير فيها الفضول، يُثِير الفرحَ من لا مكان، الأمر الذي حَرَّضَ اهمالَ الشقيقات لهذه المخلوقة التي لم تظفر منهن بغير الازدراء، أشبه بزائدة لا تستحق الوقوف، والكل يترقب وباءً يذهب بها ويقطعها من ذاكرة

البيت، لكن خاتم كانت تنمو مثل قصبة بقمة من نار، ذاك الشعر الأحمر يُصِّرُ الشيخ نصيب على حلقه كل أول شهر فلا يلبث أن يتنامى مع صعود القمر، حتى يبلغ الصدر الذي سيظلَّ مسطحاً بلا أمل في نهدة أو ري.

* * *

كان سَنَد في الثالثة يوم ولادة خاتم، إرضاعه مع خاتم كان الطريق الأمثل والأقصر لربط سَنَد بالشيخ نصيب كفرعٍ لشجرة، ومع ذلك لم يجرؤ الشيخ أن يُلقم سَنَد ثدي سكينة، لم يجرؤ على مجرد إخراج الفكرة لتأملها بينه وبين نفسه، ولم يجرؤ أحد في الدار على إثارة تلك الفكرة، وجد نصيب نفسه عاجزاً يتلجلج حين جاءها بعد سابع الولادة، كانت تجلس في روشن البيت فوق البقعة التي عبرت فيها خانقَ الموت، ثديها الطافح بالحليب يلمع بحلمته بين شفتي خاتم الرقيقتين، شفتان زرقاوين من فرط نهمهما، تنغلقان مثل زُمام وبجشعٍ تغتيان كامل الحلمة، سُحِرَ الشيخ مسلوباً لتلك الزرقة، عين سكينة لم ترتفع عن وجه خاتم، وبدأ الشيخ يتنحنح، لا يعرف إن كان ينوي مفاتحتها أم مجرد مفاتحة نفسه بالأمر، كان يقول:

«الكثرة عزوة. . .» ولم يُحر أين يتقدم بذاك الحوار المقطوع، رهبةٌ أحاطت بثدي النفساء الطافح باللبن، وزاد استئثار الشفتين الزرقاوين بالحلمة حتى غصَّت خاتم، رفعتها سكينة على كتفها وأخذت تربت على ظهرها وهي تسعل،

بقيت الحلمة شاهقة تقطر وتحبس عين الشيخ، مَرَّرَ لسانه على شفتيه، نظرةٌ في عين سكينة حظَّرت الطلب، ضمت خاتمَ لصدرها بعنف، أوصدت على ثديها طية الصديرية الناصعة، ترك قطرُ الحليب ظلاً طويلاً رطباً على بياض القطن، مثل وحشٍ يذود عن حمى زاد تشبثها بخاتم، ثم عادت تُلقم وليدتها الثدي الآخر النافر بكنزه:

«الندعو بالبركة، قرة عين لي ولكِ..» حديثه كان يدور في دائرة مفرغة، لذا آثر الصمتَ وغادر.

منذ البدء لم تشمل خيمة سكينة هذا الربيب، لم تربطها به خيوط تتجاوز خيوط الرحمة، لاشيء من تلك العاطفة التي تُعَلِّق الزهرةَ بالفرع وتشقُّ قلبَها عن ثمرة، لا أمل من آمال سكينة تَعَلَّقَ بذاك الذَكَر، مثل محارة عتيقة كانت موصدة على نِيَّةٍ حاسمةٍ في تخليق استمراريتها، من لحمها ودمها. صار سَنَد يتحرك بين المبيتات والأقبية برعايةِ بناتِ الشيخ، مترفاً كابن حقيقي لم يُقْطَع إلا من خيوط قلب سكينة.

* * *

فجأة تفجّرت أرضُ الجبل بالماء، كعادة الأمطار في ذاك الحرم، لا تهطل قطرةً قطرة وأنما تنساق مثل قطعان وحش تجفل صوب الحرم، لا يهطل من السماء في ذاك الجبل الداخل في الغيب وإنما يطلع المطر من تحت كل حجر يطفر من كل وجه، ويجرف دائرة الحظر ويغيب. للمطر في بيوت

الجبل فرحة حتى الموت، تتعلق القلوبُ بالرواشن، تُهْجَر الخوارج حتى لا يخطف الماء مِنْ شاردِ أهلها أو عاشق، المطر خَطَّاف له في كلّ نزلةٍ للجبل ذاكرة، يخطفها من القلوب ويترك مكانها من حكاياه، بعد كلّ سيلٍ تفقدُ عجوزٌ ذاكرتَها وتصحو ذاكرة المطر، بعد عبور السيل يجيء عبور الحكايا، لحولٍ كاملٍ الكل يحكي عن روشن سَقَط وكشف كنزاً، وعن الماعز التي انتشلت رضيعاً من جريان الموت، وعن الفتاة التي أخذ السيل عاشقَها وترك لها خاتم الأمير... ذاكرةٌ بطلُها الماء الذي لا يأنس لبيتٍ أو حَرَم.

كانت دار نصيب قد أُوصِدَت، وتسللت روائح الأرز بالعدس تستقبل الغيوم التي تلوح مُحَمَّلَة بعد جريانِ السيلِ، غيومٌ تجيء متأخرة عن مطرها وتغيبُ بلمحةٍ، تنقل المطر لأرض بحاجةٍ لسماء تُعْلِنُ الماءَ وتُنذر بالسقيا قبل أوان.

على الخارجة العليا لبيت نصيب هذا الجسد الصغير، حين انفجر المطر كانت في المبيت، فجأة اخترق جوفَها ذاك الدوي ممزوجاً بصيحات النذير:

«السيل، جاكم السيل...» بعد فوات النجاة تصعد الصيحة من أحياء مكة لتنعقد على الجبل مثل نعش. كانت خاتم في الثالثة ربما، جسدها الصغير انفجر مع الماء في بكاء، ضَمّتها شارةُ لصدرها تزيح الفزع، لم يكن فزعاً ما قَبَضَ الصغيرةَ، أشبه بفرحةٍ لا تُطاق، نشوةٌ دخلتِ الصغيرةَ، نشوةُ تَرَقُّبِ مُحَرَّم... تملصت من ذراعي شارة، لم تُرِدْ لجسدٍ أن يمسّ هذا الذي اخترقها مثل صاعقة، هذه النشوة

من صوت انفجار الماء. غافلت الجارية وانسلّت للخوارج، لم يخطر على بالٍ أن يجرؤ أحد على الخروج لأمطارِ قعيقعان..

خاتم عارية إلا من سراويلها، لا تعرف كيف انزاح الثوبُ المُزَهّر وأين، وجد الجسدُ الصغير أطرافَه متفتحة بجلاء للماء، كانت تضحك بنشوة حين ظهر هلال في الخارجة، عينه اتسعت على مباغتة الجسد الصغير العاري أكثر من بغتة الماء، وبلا طرفة عين، ألقى ثيابه هناك، واقترب، كانت تركض أمامه مثل طيرٍ حيران بفرحةٍ لا تُحتمل، تَتَتبّع الميازيبَ، تَتَتَبّع الموسيقى الجامحة في جريان الماء في الجدران، وعلى الطرق المنحدرة لجحيم بالأسفل، مياهٌ في منحدرات وزوانق تُقَطِّعها أجسادُ الغرقى والمستغيثون والمحمولون بجلال، تضحك تلك الضحكة المُرْسَلَة، المبهورة الأنفاس، وتُلصق أُذُنَها للجدار فوق الميازيب، تلصق جبهتها، كامل جسدها، تُنصت لبطانة الماء في الجدار، لجرفته في الميزاب، تنصت لجسدها الذي بدأ يقرصه قارسُ مكة وطقسها الجبلي، جسد أبيض مشتعل بحمرة يُرَجّعه جسدٌ في سوادٍ يميل للخضرة، يركضان طيرين في بَللٍ وجيشان، في ضحكةٍ تتقطّع على تخريمات الخوارج، وتهطل بالطيرين لمسارب الجبل. بَلَغ البللُ العظمَ وجاز، يلحقها يهيمن على تلك النشوة الطاغية في الجسد الصغير، ما الذي يسمعه في تلك العين من رعدٍ؟! أي موسيقى يُلملمها / يُخبئها ذاك الجسد؟! أي دانات تمور

بذاك الصدر الحرير؟ يلحقها ويُنصت باستماتة، تَدْخُلُه أصواتٌ لا يعرف طالعة من جسده أم من جسد الكون الكبير الذي صاره، يفلت جسدُه في جسدٍ عملاق، يسبقه سوادُه يلحق بجسد خاتم، يتداخل بينها والموسيقى، يضع صدره تحت أُذنها، وبكل حواسه يأمرها أن أنصتي ! في تلك اللحظة يبدأ الكون بالوجد/ بتَلَقِّي انصبابَ الحياة/ باللهاث في ذروةِ عشقٍ، حتى يُصم خاتم، لا يعود جسدها يحتمل الإنصات فتُباغتها دموعُها بالجريان، تبكي بصوت صارخ، ترفع عقيرتها بتلك النشوة، تُصَرِّف ذاك الألم القارس اللذة، تبكي وتوصد أُذنيها لكي تنفرد بما تَوَطَّنَ داخلها من مُحَرَّم. صراخ جسدين في موسيقى كونية، ودائرةٌ من رجفةِ الطيرِ والوحشِ والهوامِ تتسع، تتسع أنفاسُ المختبئة للمطر، المختبئة للحياة للشمس، المحمولة بالسيل، أنشوطةٌ تتسع في تلك الصرخة المتوحدة. صرخة قربان يُقَرِّبُ وجداً لصنم الماء.

فجأة ظهرت سكينة في الخارجة، عينها مشقوقة بفزعٍ أكبر من جبل هندي، لم تحد ببصرها عن جسد خاتم العاري، جسد صغير غارق، يرتعد بحُمَّى تكاد تبلغها نيرانُه عن بُعد، حمى تنتقل وتتسع أجنحتُها في محيطِ البلل. لم تلقِ بنظرةٍ لهلال، كل بصيرتها للجسد الصغير، تقدمت، لَفَّتْ خاتمَ في بطانية وابتعدت بها، وكلاهما لايزال يصرخ كما غائب في معزوفة، قبل أن تتوراى ألقت بنظرةٍ شذراء صوب هلال، جسد صغير آخر ملتصق بالجدار وعلى عريه

تجري سيول، سيول تجيء لآخر جذعه فتنشق حول عائق قائم لشقين. بقي هلال بسواده في الخارجة وعندها فقط شعر بالبرد والوحشة، حين ظهرت شارة بدأت أسنانُه تصطك، بدأت عظامه تصطك بوحشةٍ لا تُحتمل، ولم يعد بوسعه الصراخ أبعد، سارعت شارة إليه، احتضنته في قلبٍ خلاسي كبيرٍ، رأى قلبَها يخرج مثل قمر ذهبي ويلفه بدفءٍ عجيب، قادته أمامها للأسفل، يعرف أنه غير مباح له التواجد هنا إلا بإجازة. لكن القلب النحاسي يظلُّ يتبعه يخاف عليه، يلمه من الخوف...

* * *

اتفقا فيما بينهما أن هناك أغنية مختبئة في كل شيء. وأن لكل أغنية بابٌ، وللبابِ مفتاحٌ ينتظرُ بقلبِ خاتم، لذا لم يعد بوسع خاتم التأخر على هلال بالمفتاح.

صار يكمن لها في بسطة الدَرَج المؤدية للدهليز، يستدرجها من هناك للحظائر. بين قوائم الحيوان يُخرجان المفتاح، كان ينبطح بوجنته للأرض ويأخذ يُنصت، تتملّكها إثارةٌ، تبدأ خطواتُها تخفق، تحاول تسكينها، وحين تلحقُ به بوجنتها للأرضِ كانت تسمع، تجزم أنها تسمع تلك الأغنية البعيدة، والتي لها خيالٌ يطابقها برأسها الصغير، يلمع ذاك الخيال وتشعر بحرارته تسري على وجنتيها، قالت له يوماً: الأغنية المخفية لها شمس... وكان ينحني عليها، يجثم مثل خيال ثالث يُداخل الأغنية القادمة من الأسفل، يسند وجنتَه لوجنتها الأخرى، وتنضم أغنيتُه لتلك القادمة من الأرض

تُحَدِّقُ بأغنية جوفها. . . كان يؤكد لها أنه يَتَلَقَّطُ شمسَ الأغنية، وأن شمسَها هي التي أصابته بسُمرته الشفافة مثل زمردة، وكانت خاتم تلصق وجنتَها ثم الأخرى للأرضِ أكثر، تغوصُ قساوةُ الجبل في طرواةِ وجهها، بأمل أن تُمَيِّل تلك الشمس بشرتَها للسُمرة. قال لها هلال يوماً:

«لا يمكن أن تعطيك الشمس زبرجدة أنتِ أيضاً، أعطتكِ الشمس ياقوتة. . »

يتناول المفتاحَ وينتقل بها لأجواف الخيل والحمير والقطط، يلصق وجنته للأجساد التي تُغني، هناك تسمع أيضاً أغنية حارة، أغنيةٌ تبدأ بتَنَفُّسِ الهواءِ بصدرها، تُنْصِتُ ويأخذها صمتُ الأغنيةِ أكثر من صخبها، هناك صمتٌ يُغَنِّي وراءَ الصخبِ في جوفِ الحيوان.

وكان هلال يأخذ برأس الحمارة في حِجْرِه، ويأمر خاتم أن تنصت للأغنية في الصدغ، أغنية الرأس غير أغنية الجوف. . في تلك المساحة الصلبة كان شيءٌ يتحرّك، شيءٌ كالخوفِ عميق، كالجوع، كالحب، كالهيبة، قلبُها هو الذي يُغَنِّي تلك الأغنية حين يأخذ يَرِفُّ، حين تجيش فيه مشاعر، وكانت تغرس رأسها جنباً إلى جنب مع رأس الحيوان في ذلك الحِجْر الصغير، الحِجْرُ الذي لا يخاف، والذي تعرفه كلُّ حيوانات الحظيرة فتستسلم له.

يوماً قَبَض لها على جرادة، أَمسكَها في قبضته، أسند قبضتَه لوجنتها وقال:

«اسمعي !»

الأغنية في الداخل كانت ترجف، وفجأة فتح الجرادة في وجنتها، رقّتْ أغنيةُ الأجنحةِ والفزعِ والتوقِ الجارفِ للطيرانِ والتعثرِ ودويٍّ قلبها، وشيء من غثيان، أغنيةٌ قَلَبَتْ جوفَها بنشوةٍ عجيبة، بعدها لم تثق بقبضته، لم تسمح له بأن يُجري الزواحفَ على ساقيها كما يحلو له أن يفعل، كان الخوف قد أقفل أمامها أغانٍ كما يقول هلال، يتهمها بأن الخوف سيصيبها بالصمم فلا تعود تطلع لها الأغاني... خوفها كان من النشوة، نشوة كفيلة بأن تُفَجّرها، وتُطيِّرها وراء حشرة. تخاف ألا ترجع لو تَبِعَت أغنيةً كهذه الجوامح..

صارت حين يُناديها تتشاغل، ولا تستجيب إلا حين يُلِحُّ مهدداً بفضح أمرها للشيخ نصيب، طاعتُها ساعتئذ تُثيرُ غضبَه أكثر من رضاه، يأخذها بإعصار، صارت تشترط:

«لن نسمع أغنيةً تَشْرُدُ، لن نسمع أغنيةً تقتل...» وكان دخانٌ أزرق يهيج في رأسه ويُعميه، يتركها هناك على بسطة الدرج وحيدة. هناك يسقط المفتاح وله صرير، في تلك الوقفة تأتيها من الجدران والصمت والصرير أغنيةٌ تعصر القلبَ، تسري في أطرافها تُرَجّفها وتعصر، أغنيةٌ كلماتُها جبانة، وتَعْلَقُ بأطرافها لا تريد أن تتركها، أغنيةٌ تختبيء من كلِّ كلمةٍ تتجرد من كلِّ نغمةٍ لبَرٍّ تتلجلج فلا تعود أغنية، تُحزنها مثل تلك الأغنية التي لا تريد أن تسترسل... حين تغادر قلبها تترك في قاعه حفرةً تَنِزُّ حتى يُناديها هلال من جديد، عندها تلهث للحاق، يلتقطُ نغمةَ شوقها عن بُعد،

وحينها يأخذها لأغانٍ تَرِقُّ، يجلسان على طرف البِرْكَة، يُسند وجنتَها لصفحة الماء، بين الوجنة ووجنة الماء أغنية، سلسبيل مُذَوَّبٌ فيه كلّ شيء، كل الكون والوجوه من أول الخليقة، وجوه أجداد، وأخوة ماتوا، ووجوه جوارٍ بلا عدد، أصواتُ كلِّ مَنْ قالَ، أغنية تَذوبُ في وجنةِ خاتم فتعرف، تتصلُ بأولئك الساكنين للماء، تطلع من الأغنية بوجنتها حمراء، لا ترتخي عينُ هلال عن حمرتها، وفي يوم، ما أن طلعت حتى جاء بشفتيه:

«دعيني أسمع...»

أسند الشفتين المرتجفتين لبقعة الحمرة، وكان يُنصت، تجاوزت الرجفة الأغنية صارت تطلع من ماء البِرْكة، صخبٌ أُجفلَ خاتم، يَصْعَدُ من كلِّ جوفٍ، فرَّت، بعدها صارت تجرؤ فتسمع بشفتيها، تُسند الحمرةَ الرقيقةَ للجدار، للماءِ، لخيوطِ الدُمسقِ، للوبرِ الرقيقِ للمخملِ، للزغبِ في جلدِ الحيوانِ، للصمتِ المُتَحَبِّبِ في بلوراتِ التراب، للبلل على ركبة هلال، عَرَفتْ أن هياكل الأجساد تُغَنِّي في المواضع الميالة للخشونة، أغنيةٌ غيور ولهانة ومكمومة، غير تلك المنفتحة في طراوة. أما أغاني الكف فمالحة من قراءتها للطوالع، وتطير دوماً بين حَرٍّ ونداوة. ما أن تتركها تغني بشفتيك حتى تنخلع بك للقلب أو تضرب أجنحتها بجدران رأسك، أغنية موسيقاها خوف يهبط في عنقك لما لانهاية.

عندما يُدير هلال المفتاح، كلُّ الأشياء تُغَنِّي مباشرة في قلبِ خاتم. قالت له يوماً بفرحة:

«كلُّ أغنية لها خَيال في رؤوسنا؟!»

صار لشفتيها جوعٌ للإنصات، لا تُسَكِّن الأغاني وأنما تُهيجها وتكتم. بقدر ما تُهَيِّج تكتم، وهلال يُصاب بصرع، يلحق الكتمان بحرقة، يخطف مَسَّةً هنا ووَلَعاً هناك، شفته وحدها تعرفُ كيف تتزمزم على الأغنية ولا تتركها.

* * *

كانت الممنوعات والمحرّمات التي تعيق حركة الصغيرة خاتم تزيد رغباتها، فلم تكن تعرف لماذا كل هذه الأسرار التي تلف البيت، وتشغلها خيالات فتيات وفتيان يأتون لقضاء أيام لاو أسابيع ثم يمضون، تحس أنهم ينتمون للممنوع عليها وعلى شقيقاتها وعلى كل من يمتّ لنصيب بصلة.

كانت للشيخ حياة خاصة تحيطها هالة تمنع على أي كان أن يخوض فيها، ولذلك لم تعرف الصغيرة من أين استدل هلال على خزانةِ طِيبِ الشيخِ في ذاك المخلوان، تجويفٌ حميمٌ ملحق بمجلس أبيها انفتح لأغنيتهما الجديدة فجأة، دخلت الخزانةُ الأغنية من غيبةِ الشيخِ نصيب في اعتكافاته الطويلة بخلوات المسعى، وصارت تتردد كلما أطال الشيخُ الغيبةَ عن بِرْكَتِه وما تُسربه لداره من طراوة، طراوة تُذيبُ حتى السواد لِيَنْحَلَّ ببياضه.

ليلة النصف من شعبان طلبها هلال بإلحاح، وحين لحقته لم يهبط للاسطبل، جعل طريقه لمجلس أبيها الذي لا ينغلق في حضورٍ أو غيبة، ترك عينَ البِرْكَة وراءهما في طربها

تترجرج، وانسرب بها هلال للمخلوان، تَقَدَّم في ذاك العتم الذي تمدد ليزيدهما رجفة ورِقَّة، توغَّل بها هلال في ذاك العتم، جَرَّها لتجلس له، وتمدد أمامها لا يبين من العتم، وكشف عن صحن بطنه، سوادٌ يتجسَّد ليَنْحَلَّ ويَنْحَلُّ ليتجسَّد، حتى اعتادت عيناهما الظلمات، مبسوط أمامها سواد في سواد وبنقطة وهج تتزمزم على خضرة، بغرقة أصبعٍ أرشدها لزمزمة السُرَّة، هتفَ:

«هذا باب، أول باب تقول أمي: سقتني منه! احلبي أنتِ واسقيني...»

نظرت في الباب حتى انتقلت زمَّتُه لجوفها. هتف:

«اسقيني!»

تلفتت حولها لا تعرف ما تسقي، راحت لصَفٍّ شِرابِ الماء، غمست كفها في قاعدة المركن الطافحة ورجعت بحفنة، بسبَّابتها في الهواء لا تمسه: قَطَّرَتْ للزمزمة وراقبتها تفور وتنتقل لكامل جسد هلال، موجاتٌ سودٌ منه لها لشهقةِ المخلوان تصاعدت، الصوت الذي طلع منها أفزعها، حين التصقت بخشب الروشن متلمسة مهرباً للطريق لم يلحقها، قام لخزنة الطيب، رأتها لأول مرة، من سواد الأبنوس الصافي بجوارير تزداد كتماناً حتى تخنق الأنفاس، على الأرفف المكشوفة اصطفَّت أجسادُ زجاجٍ تمتشق بالطيب وتعتمر الذَهَبَ، قوارير لا تزيد عن طولِ سبابة وتكنز أندرَ دهن العود والصندل، تُوْلات العنبر قاتمة وحدها في قلب

الخزنة تلم من عتم المكان وتتسيد الأطياب، في تأمل تلك الصفوف البديعة فارقَت خاتمُ فزعَها، يده من عتم المكان، وامتدت برشاقة لقارورةِ عنبرٍ أسود، من قلب القلب جاء بها صوبها، كلما تقدمت انشقّ لذَهَبِ غطائها حجابٌ بصدرِ خاتم والمكان، حلّ الذَهَبُ، فوشوشتها أُغنيتُه:

«يِلَقّمَ السُكّر ويِلَقّمَ العنبر...» لم تعرف كيف كان مذاق العنبر، مذاقه حَرٌّ، وكيف تصف مذاق الحرّ؟ ما ان قَطَّرَ حتى انبسط من ذلك الباب حرارةً وحراً لكاملَ أطرافها، أنارت بشحوبٍ وَهّاجٍ يُعمي، وهجٌ هَيَّجَ سوادَه، ولم يُطق التعلق لصحن البطن أكثر، برعدةٍ أرخى عينَه والثوب على زمزمة العنبر...

يومَ قَبَضَتْ عليهما شارة يُطعمان السكر والعنبر ويُنصتان في ماءِ البِرْكة، انقلبتْ كلُّ الأغاني، لا تعرف خاتم هل انتقل الخبرُ لأبيها نصيب أم لأمها سكينة، لكن غيرةً بحجم جبل هاجت في الدار، صار بوسع خاتم أن توصد حواسَها ومع ذلك تسمع الأغنية الحادة، أشبه بصراخِ آلاتٍ تضرب في القلوب، مزيج خوفٍ وخُنقٍ ورغبةٍ في البتر تُطَفّفها سيرةُ إحسانِ نصيب وحداثةُ عمر هلال. لم يُبْتَرْ الحاج طاس من احسان نصيب، لكن الباب الدخيل قام من سَخَطٍ بآخر الدهليز، حُرِّم على ابنه هلال الولج لدهليز الدار، صار طريقه واللاجئين مِنَ المقاعدِ للفِناءِ للخارج، وانغلقت دائرةُ الحظر على خاتم فلا تهبط الدهليز قط. سلبوها المفتاح، قام صَدٌّ بحجم جبل قعيقعان بقلب الأغنية، تلك التي اتفقَ هلال

وخاتم أنها تختبئ لهما في الموجودات.

* * *

مضت أيامٌ، مضى شهرٌ وماءُ البِرْكَة يرصدُ الضياعَ يستنجد بخيالاته:

«مفتاحٌ سَقَطَ من قلبٍ صغيرٍ محبوس بأعلى الدار.»

صار عمرُ الباب شهراً، شهران، بابٌ يتعلَّمُ المشيَ في الدهليزِ الذي أخذ يتمدد ويشهق سقفه في الضوء الشحيح، ضوءٌ يخنقُ كلَّ شوقٍ يَقيمُ حول أملِ ظهورِ مفتاح. بابٌ يتعلم الطيران بوجهٍ من ذهبٍ ووجهٍ من تراب. ووجهان صغيران مُعَلَّقان: وجهٌ لكلِّ وجهٍ من الباب، كلما نظرا بشوقٍ يُطِلُّ عليهما ماردٌ في الباب، ويُخفي بخبثه المفتاحَ، مفتاحٌ صغير لا يجرؤ فيلج ضَبَّةً لبابٍ، مفتاحٌ يدور في القلوبِ الصغار ويُغنّي ما فيها من أصوات.

وجهان لضفتين لا تلتقيان، يتخيلان الماردَ جسراً يميل بين القلب ومفتاحه، جسراً لا يلين، لا الليل يستطيع عبوره ولا النهار، لا الفرح ولا الخوف، لا يعبره إلا الضياع، هذا الذي لا يكفُّ يجيء ويتوزع على وجه خاتم وهلال.

حَذَّرت خاتمُ قلبها:

«لا تعبر الجسرَ، هو جسرٌ سَرَّاقٌ، من يعبره ينصَكُّ قلبه للأبد ويذوب المفتاح. جسر قام ليخطف المفتاح الوحيد الذي لايفتح سحارةَ سيسمٍ ولاباب.»

حَرَّضَ هلالُ قلبَه:

«اقفزْ على قُبَّةِ المارد، واغرسْ ضَبَّتَكَ في قلبه من صيحةِ السَموم، واترك لها أن تفتح بينكَ وبين وجهها ليُغَنّي. في عبور الجسر لا تعود أصم، لا تعود أجربَ أغبر. أيُّ هلالٍ هذا الذي يخافُ عبوراً، أو حتى المشي على الماء؟! في عبور الجسر يتحول جسدُ الموت لحيوان...»

حَذَّر البابُ:

«كلُّ عبورٍ هو فعلُ تدنيسٍ، يُوجبُ العقوبة والنبذ والطرد والإقصاء...» ماردٌ لا يفعل شيئاً طوالَ الليلِ والنهارِ ـ اللذين يُعيق تقدمهما ـ لا يفعلُ غيرَ ترديدِ تلك الكلمات/ اللعن، ماردٌ غرامُه صداه، حتى سقطَ الوجهان في العمر، سقطَ الماردُ في النعاس، سقط أهلُ الدار في الأمان. والآن: من ينجيهم من النسيان.

* * *

مضت أعوام على إيصاد بابٍ دخيلٍ بدارِ نصيب، ومزيدِ من الأعوام على خيبةِ ولادةِ أنثى سادسة، كلما كبرت خاتم في ثياب الأنثى أُهمل الباب الدخيل، حتى سقطت ضَبَّتُه وأَشْرَعَتْه، أصبح أهل الدار يسلكون الطريقَ الأقصرَ لأقبيتهم وحظائرهم، مما ترك الباب علقةً مُهْمَلَة على هامشِ الأحداثِ التي تلاحقت بالمكان.

صارت خاتم في الثانية عشرة، الأمر الذي أثار غصة جديدة، إذ إن بلوغ البنت مؤشر على أوان التزاوج، مما يعني

دنو أوان البحث للبنت السادسة عن مقام ببيت نصيب، فَتْحُ الطابقِ السابعِ كان أشبه بفتحِ جرحٍ بقلبِ الشقيقاتِ المترقباتِ للعزوة في الشقيق:

«فراغ المجلس يظل ينادي الولد، فإن سَدَّتْه خاتم قطعنا الطريق على الأخ المُنْتَظَر...»

«هذه البنت تقتل أملنا في إحياءِ ذِكْرِ نصيب...» هذا الأمل الذي لم يخبُ رغم انغلاق رحم الزوجة بولادة (خاتم)، وانتقال الشيخ نصيب من فراش زوجته للنوم في وحدة الطيرمة، لم يلتقِ جسدُ سكينة جسدَ ذَكَرٍ بعدها، وتناقلت الإناثُ أن غَضَبَ الشيخِ حلَّ بجسد أُنثاه العاجز عن تكثير الذَكَر، وانقطعت مباغتة البيتِ بالولادات، ورغم ذلك لم يخفت تحَرّقُ نسوةِ الدار للسند، حتى صرن يترقبن ويتحرقن لإتحاف سكينة بضرة.

* * *

في حمَّام الطابق الأول وعلى قيد أذرعٍ من البركة انفردت سكينة بخاتم، وحدها تُباشر غسلها كل جُمعة، حنفية ذاك الحمام تُبَيّت ماء الوردَ كلَّ خميس ليصبح جاهزاً لغسل سيد الدار لصلاة الجمعة، وما تبقى من (الماورد) يصير لغسل خاتم، ظلَّ ذلك مثار غيرة الشقيقات اللواتي لم يحلمن بشرفٍ مماثل قط. في الطوابق العليا تفقد خاتم صفتها، بينما تكتسب أهميةً غامضة في مجلس الشيخ وبِرْكَته.

حفنة من ماء الورد وأصابع سكينة تنسكب بطول جسد

خاتم، تمرر سكينة يدها على تضاريس ذاك الجسد الشمعي، تُتَمِّم على ملامحه المسنونة مثل صعقة بهاء، تسري من لوح الكتف للوح الحوض وتتوقف هناك فلا تهبط، ثم تصعد من راحة الركبة لراحة البطن ولا تتوغل للمغابن، مثل صلاةِ استسقاء لا تتوغل لقلب الغيمة، تتحاشى المواجهة مع جنس ذاك الكائن من شمع.

مع تمام الغسل كانت شارة الجارية قد أوقدت الكوانين على عتبة الحمام، راحت وجاءت بالجمر وبمروحتها الخوص حتى أذكت النار، بَخَّرت الأحرام وألقت به على الباب القصير بمتناول سيدتها، وقفت واجمة أمام ذاك الخشب من صندل ريان، منقوشة حيوية الصندل بأصابع بالغة البدائية، حيويةٌ مُسْتَفِزَّة، لكأن مطراً لايزال يعبر غامراً جذوعه في ذاك الباب القصير، خشب يقف في منتصف المسافة تاركاً من الفراغ أسفله وأعلاه ما يسمح لمن شاء بالتلصص، لكن شارة قاومت استراق المخفي بالداخل. طرقت على الباب الخشبي الحائل بينها وبين المغتسلين:

«البخور يا سِتِّي...» وغادرت تاركة المكان لأرواح الماء والنار.

جمر بمصطكا يتخلل ما لم تتخلله يد الأم، يَتَحصَّن العضو المتكتم على هويته، بوابات البخور قائمة بوابة مصطكا تليها بوابة لبان شحري يقطع كل دروب العين والموت فلا تقطع هذا الجسد، بوابات الطيب تنغلق كل

جمعة، ما أن يغادر جسدُ خاتم أنوثتَه حتى يأخذه توقٌ للتجسد في أتم البساطة والاختزال، مسكون جسد خاتم بالرغبة في التوراي بعيداً عمّا من شأنه تهييج الأرواح للاقتحام والسكنى والتبديد، جسد من مادة أولية، مادة غنية عن التحوير والبهرج. نبتةُ شارة على مِنْوَر الحمّام تسترق من حبكة الجسد وترجف.

ملفوفة في محارم الكشمير كل جمعة تهبط خاتم الدرجتين من بسطة الحمام لفسحة البِرْكَة للمقعد المحظور على الإناث.

غَادَرَتها سكينةُ حين أطلّت على المقعد الكبير، كان الشيخ قد أرخى قلاليب الروشن فلا تفضح ما يجري للطريق، وسارع يوصد بابَ الشرفة الذي لا يوصد إلا كل ضحى جمعة، مُغْلِقاً المجلسَ على ضوءٍ شحيح مثل جوف محارة، وبقلبها دخلت خاتم حافية ملفوفة في إحرام مصطكا، لها شحوب لؤلؤة يبرق تحت لهب الشعر القصير، حَدَّثَ الشيخُ نفسَه:

«مثل حباحب البِرْكَة تضيء بين شقيقاتها السمروات بضفائر فاحمة..» اتجهت للدولاب الغارق في الحائط بباب من الأبنوس المطهم بفضةٍ وعاجٍ وزمن، فتحت وغاصت لقلب الدولاب، من هناك طلعت ببقجة حريرٍ مقلم بالقصب، من البقجة أخرجت كومةَ من ثياب الصبيان: ثوب وعمامة وجُبَّة سوداء من جُبب العلماء وحزام قصبٍ عريض، مالت

للصُفَّة الملحقة بالمقعد ونضت إحرام المصطكا، فكَّت أزرار الذهب وألقت بصديرية القطن الرهيف، وألحقتها بالسروال الحلبي المُزَنَّر بكروم أبي نواس، بسلاسة اكتست ثياب الذكر، وحين دخلت المقعد قام الشيخ نصيب فأحكم على خاصرتها حزام القصب، صارت خاتم في هيئة صبي مليح، وعندها أشرع الشيخ نصيب شرفته ورفع قلاليب الروشن فاتحاً الذكر ومشهده على الطريق...

مبسوطة بصدر البهو الذي تتوسطه البركة مائدة فطير وعسل تنتظر القادمين، غمس الشيخ أصبعه في عسل الشَفَا الطائفي وسَوَّك خاتم ايذاناً بمغادرته للتأنيث، مالت خاتم بجبهتها على كتف أبيها، براحتيه قبض الشيخ نصيب على ذاك الرأس، كمن يحتوي كنزاً بجوارحه وراحتيه، رفع الجبهة لشفتيه وطبع قبلة هناك، كلُّ توقه احتشد في تلك القبلة وسرا في شهقة الجبين. حين دخلَ العم طاس شَدَّته نصاعةُ الجبهة، جاء سلامه مختلجاً، ولم يمد يده لعسل المائدة، غصة ظَلَّت مُعَلَّقه في الهواء حتى بدأ توافد الزوار. في ذلك الضحى كما ضحى كل جمعة يغص مقعد الشيخ بأهل الجبل من الخاصة والعامة، تعودوا القدوم للإفطار ومجالسة الشيخ واسترجاع الأحوال والمنافذ، ثم مع الأذان الأول يرافقونه في هبوطه لصلاة الجمعة بالحرم.

من الفناء الخلفي طلع العبد فرج فأسلم الشيخَ نصيب زمامَ حمارته السوداء، كزمردة قارسة تهادت الحمارة ببردعتها الخضراء المجدولة بالقصب، بينما تعلقت عينُ الشيخ نصيب

بالقلعة التي تخلخل فيها جمع الجنود الأتراك، تبع الرجال نظرته، وجاء تعليق أحدهم:

«كلما تهاون الترك انخلع أمير وقام أمير...»

جحظت عينُ الشيخ على خاتم، تنحنح ثم هتف:

«أجارنا الله من سيول الدم...»

عاد فرج للظهور وقد أعدَّ الحمارة الناصعة المنقوشة بالحناء لركوب الصبي خاتم، لم يركب الشيخ بل سار مع صحبه تاركاً حمارته متهادية تتبعه، إشارةُ يده حظَّرت على خاتم الترجل، سارت حمارة الحناء في مؤخرة الركب يمسك بلجامها فرج لايحيد وخلفهم تطفر حيوية سَنَد ابن الخامسة عشرة، يكاد الموكب يميل ببهاء السائرين في مؤخرته، إذ تجتمع للون سَنَد المشرب بالذهب كل أحلام العتق الكامنة بصدور المهاجرين والمملوكين وبناتهم، ولشحوب خاتم تتقد نيران التوق الدفين الذي لا يُفصَح عنه، نزل الركب تحت أعين نساء الجبل يشق طريقه في تلك الدرجات المتآكلة والطرق الضيقة، عَبَروا العشرين بَسْطَة للجبل، لكلٍّ بَسْطَة عنقودُ بيوتٍ، حتى بلغوا السهلَ ومن هناك شَقّوا مكةَ للحرم. في الحصوة المواجهة لباب ابراهيم جلس الشيخ محوَّطاً بأعيان الحواري، بينما لحق سَنَد بخاتم لبئر زمزم، تحت القبة الخضراء وقفت خاتم بكامل ثياب الذكر تغتسل بالماء المقدس، يرفع سَنَد من الدلاء الطالعة تفور من البئر ويسكب على وجهيهما وصدريهما، جداول من نشوة سرت من الماء

اللبني على نحول الجسد الشاحب ومتانة الآخر الأبنوسي، كما الجسد وظله أو كما الجسد وروحه التقى الجسدان وانفصلا تحت المذاق العَكِر ممزوجين بملوحةٍ على لبن، ماء للغسل من الهم والمرض. سالت اللذة المشوبة بالشفاء على الصدرين الفتيين، لَذْعَتُها تتجدد مباغتة مع كل دلو يطلع مزبداً من البئر المقدسة، واتسعت لها ضحكات الشابين، اتجهت إليهما أنظار المنهمكين في الوضوء والغسل، اتسعت ابتسامةٌ بعرض الصدور المتحوصلة في العتم الحميم والملوحة الفاترة، اتسعت مساحة من استجابة على الرؤوس:

«نَقِّني من خطاياي كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدَنَس...»

«واغسلْني من خطاياي بالماء والثلج والبَرَد...» تلقفت ملائكةُ زمزم الدعوات فائرة لبيت الله. وحين ارتفع صوت الخطيب أسرع سَنَد وفي إثره خاتم يقطران للصحن، أبخرةُ المقدَّس تطفر من جسديهما كلما تقدما خطوة في صهد مكة، جنباً إلى جنب جلسا تحت شمسِ خطبةِ الجمعة...

نادراً ما تهبط النساء لصلاة الجمعة بالحرم، هو طقس ذَكَرِي، وحدها خاتم تجلس هناك لا تمس الحصا تشارك الرجال في الإنصات، كل من يراها يُخَمِّن أن الشيخ نصيب من توقه للولد قد اتخذ له ربيب من مجهولي الجبل، تؤكد ذلك الألفة بين العتيق سَنَد وهذا الصبي.

* * *

تـوارت خاتـم في عتم بسطة الدرج المؤدية لمجالس أبيها، حول البركة بسطت السجاجيد الحمراء وجلسة الطرب، تقع الأنغام في الماء فتطلع ندية، تُرطِّب صدور الجالسين التي يحرقها زنجبيل السحلب. خاتم غائبة في ذاك الماء، سَحَّ الورد من عنقها هابطاً للسرة، جسدها يفلت من كل سلطان حين يَمسّه الغناء، فجأة تغير الإيقاع للمصمودي، وطلع صوت الشاب المعروف باليماني يغني ويصاحبه تصفيقُ الحضور ونقاقير الشيخ دوش:

ابدأ قصيدي باسم طس وميم وبالله   بحق الاسم هذا

اسم الجلالة والنبي الكريم   ماخفي هذا

شيءٌ في صوتِ النقاقيرِ سَكَنَ خاتمَ، كانت أصابعها تتحرك مرافقة لتلك العصى الصغيرة التي تنقر على الرق المشدود على التجويف المخروطي. لم تعرف أين تختبئ الأغنية، في ذاك الفراغ المخروطي أم في الرِقّ؟ لم تُفِقْ إلا وقد صَمَتت يماني الكف في المجلس وبدأت استراحة العشاء. تسللت خاتم في غفلة لحيث ترك العم دوش نقاقيره، تناولتها تورات في عتم الصُفَّة، ملمس الرق حرق أصابعها، حيّاً لا يزال بالإيقاع، تأملت في الجسد المخروطي المُتَوَّج بِرِقٍّ مشدود، شعرت بجسدها يَنْشَدُّ في ذاك الرق، أمسكت بالعصاتين الرفيعتين، بصمتٍ طَرَقَت بهما على الرق، برقة وخفة، دوَّى النقر الصامت بقلبها، على تلك الهيئة سقط خيالها في البِرْكة أمام الملتفين على الموائد...

قفزت مفزوعة، فوجئت بسَنَد وقد اندس بجوراها، ظَنَّته أباها عثر عليها في مخبئها ذاك، لم يكن مباحاً لخاتم شهود جلسات الطرب ولا الولائم التي ترافقها، لا تأخذ صفة الذكر إلا في الطقوس الجادة أو الدينية، لذا فلم يكن بوسع خاتم الانسلال لزحمة المحتفلين، وتضامناً معها كان سَنَد يُحَرِّم على نفسه تلك الجلسات ويأتي، يُرافقها لحيث روح الحفل الحقيقية، أرجعا النقاقير لحيث كانت، بقي خيالهما في البِرْكَة، بينما تركا المجالس للأسفل، اجتازا البابَ الدخيل بآخر الدهليز بدرجاته الثلاث المؤدية للمقاعد والفِناء، خلفهما وقف البابُ مكسورَ الضَبَّة كمن شاخ فما عاد يقوى على الإغلاق، على لحمة البابِ انتصبَ جسدٌ منقوش بضربات سكين، خطٌ ودائرةُ الرأسِ مضروبة بعنفوان شفرة، إنسان مُجَرَّد أشبه بمفتاح تركته يدُ طفلٍ محبوس وراء ذاك الباب.

في الفناء لحقا بالعَشّي الأشهر في مكة، هناك يدخل إيقاعُ الدار في حُمَّى، كلُّ شيءٍ يتحرك بسرعةٍ عجيبةٍ تسبقهم الروائح اللذيذة للذبائح المشوية و(السَليق)، أرز معجون بالحليب والسمن البلدي، شديد التقشف بلا نكهة غير مذاق اللحم الخالص، أجمل ليالي السمر تقوم على تقشف ذاك الأرز وطراوته، المَعَاشِر تنتقل لبيوت الجيران، إذ لا يمكن لوليمة أن تنحصر في حد، للولائم في بيت الله صفة الغيث، تهطل على البيوت المحيطة تَعمُّ أهالي البيوت قبل مدعويها، لا بد وأن تلحق المَعَاشِر بالرائحة وتدخل كل بيت دخلته.

الوليمة التي لا تمتد تَعيب مولِمها. ركض خاتم وسَنَد خلف المعاشر الخشبية المحملة بالأطايب تحت غطاء من الثُل المقصب، طرقا البيوت واسترقا النظر للجواري، نظرة الترحيب التي تشق الأبواب تُدخل على قلب خاتم نشوة، ليس كإيقاعات القلوب يُطرب روحَ الخيزرانة.

حين تلاشت الحركة في البيوت المحيطة انفلتت خاتم مع سَنَد بمنحدرات الجبل، انحنت تجمع الطاسات الفارغة، العظام المخروطية، هتفت بسَنَد:

«أعرف كيف يصنع العم دوش نقاقيره، فقط لوعثرنا على الرق الملائم لسَترِ هذا العظم والطاسات...»

أجابها سَنَد:

«نحتاج جلداً رقيقاً من قلب غزالة... أو جلد أرنب. وهذا لن نعثر عليه إلا في حي الدباغين، وليس بوسعنا الذهاب لذاك الحي، أبي الشيخ نصيب لن يسمح بتسكعنا بعيداً...» تفحصت خاتم الطاسة النحاس التي عثرت عليها وراء بيت الخياط، نظرت إلي سَنَد:

«أنتَ تذهب!»

انشدّ سَنَد للبريق في تلك العين المعلقة بوجهه، عين مسكونة بتوقٍ آمر، شعر بأهمية الاستجابة لذلك الطلب، وجد نفسه يهتف، لا يعرف ما أجاب لكن البريق الذي لفحه من عينيها أحياه، أشعره بالانفلات مثل حدأة محمولة على ريح بجناحيها مبسوطين بلذةٍ مُخَدِّرة، غَضَبُ الشيخِ لا يهم،

بُعْدُ الحي أيضاً، لا شيء يهم عدا هذا الرضى، أعاد على نفسه بعزمٍ:

«سأحاول. . .»

في الأيام التي تلت كانت الرِقاق متوفرة لخاتم، صارت تشد منها على الطاسات والأنابيب وتعزف، صوت نقاقيرها جاء قديماً لكأن الشيخ دوش يعزف في الخارجة، لكأن خاتم قد تلقت ذاك العلم على يد مشعوذ، تأملتها شارة وأخواتها بدهشة، كانت تجلس في الخارجة العليا وتعزف، شيء في جلستها كان قديماً قِدَمَ قعيقعان أم الجبال الملتفة مثل هلال على الحرم، لكأنها صورة سبق وانطبعت في تلك الدار أو في أذهان المقيمين بها. . .

بعدها صار هم خاتم الانفلات في الجبل تبحث عن تجويفات تصلح للنقر، تتجول أسفل قلعة الأتراك، هناك بقايا مدهشة لا تعرف أصلها، قادمة بذاكرةِ أمكنةٍ بعيدة، ذاكرة جوّالة تعطي للنقر دنيا، تمنحه من دهشتها. تطوف خاتم، تنحني على كل حجرٍ، ترصدُ خاتمُ بين الحين والآخر لمعةَ الشمسِ على عمامةٍ سوداء أو على بندقية، تلمحُ طلقةَ عينٍ بحجم كُوَّةِ البرج، عين تُطلقُ نيرانَها من كلِّ الكوّات دفعةً واحدةً، لا وجه يُطل فقط تلك الومضات الخاطفة التي تُشعر بالوجود وبالغياب في آن، أبداً لا تُسفر عن وجهها، حتى آمن أهل الجبل بأن القلعة مسكونة بأشباح من قتلى سلطنة الأستانة، لتلك الأشباح يأتي المتعهدون بالقرابين لضمان حيادها فلا تُغِير على المدينة، أشباح ترمح في خفاءِ تلك

القلعة حتى تفقد حمرتها، ثم تطلع في العتم وتتبادل المواقع مع أشباح جديدة كاملة الحمرة.

حين تضرب خاتم على الرقاق تطلع من عزفها تلك الأشباح وطلقات العيون وأصوات حارة الدباغين، ورحلات سَنَد الخفية للمدابغ والوراقين، وحجارة القلعة التي تقرأ الطالع، تلك الأشباح الطالعة ببهاء من النقاقير ربطت الولدين، شعر سَنَد بخاتم تدنو منه، تدنو بقلبها من قلبه، تلاغيه بصمتٍ، تلاغيه بسعادتها التي تفيض وتَلمُّه كلما انتظمت في يدها النقاقير وجلست تحاور أشباحها بعصاتيها الرفيعتين، تعزف أدوار الكف اليماني ببراعة أدهشت الأم التي كانت تشهد بصمت، لا تتكلم في الأمر حتى لا يتأكد عشق خاتم للمعازف، (الطرب طير طاير). وأكثر ما يُفْزِع كائنات التراب الطيران.

كلما تورات خاتم وجدوها في المبيت العلوي، جالسة مع سَنَد وبينهما الأشكال المخروطية الجوفاء والرقاق، يساعدها سَنَد على شد الرق على تلك المخروطات الجوفاء وتجليدها، وعلى صقل العصي الرفيعة التي يجمعانها من أجراف الجبل ونباته الجاف، يرققانها ويشذبانها حتى تصبح صقيلة رفيعة حَيَّة قادرة على تحنين النقاقير بخفةٍ لا تُخَلِّف الكدمات على رقها.

* * *

في المقعد السفلي وكما في العشر الأواخر من كل

رمضان كان الخيّاط قد جاء خصيصاً لتفصيل ثياب الشيخ وأبنائه، الوقت بعد صلاة العشاء وبدا البيت مُسْرَجَاً من أعلاه لأقبيته، موائد المفطرين لم تلبث أن رُفعت، وكانت عادة الشيخ نصيب استضافة العامّة لموائد إفطارٍ تُنصب في المقاعد، كل من يمر تحت تلك الدار يدخل وتُظِلّه عنايتُها، دوارقُ الزمزم المُبَخَّرِ بالمصطكا مصفوفة في صفين على طول الدهليز، تتلاحق نصاعتُها في عتم الدهليز، تُجلب تلك الدوراق كل صباح فائرة من المسجد الحرام لتقبع في سكينة الدهليز، تَتَبَرّدُ وتنتظر العطشى...

افترش العم دَبَش أرضَ المقعد الكبير بأدواته، مقصات وأقمشة مقصّبة وأخرى سوداء رزينة وأقطان بيضاء. ماكينة الخياطة التي يدور دولابها ببدالات تُدار بالقدم كانت مثار شغف سَنَد ورفيقته خاتم، كلاهما في ثوب أبيض أشبه بقفطان، لا يميز جسديهما غير نحول خاتم وانفتال عضلات سَنَد، في مثل هذه المناسبات تُعامل خاتم ابنة الرابعة عشرة كصبي، تُجْلَبُ في ثوبٍ وتُقَدَّمُ للعم دَبَش للتعامل مع جسدها كذَكَر، لم يكن العم دبش ليتحرَّج من إحاطةِ ذاك الخصر والحوض بدوبارته لتحديد الدروان الذي لا يتبدل:

«أنتَ ما تاكل ياولد؟ الراجل ياكل أكل الجِمال ويقوم قومة الرجال، ولاّ أنتَ قُضْبَك أزرق؟ قُضْب يأكل ويُنْكِر؟»

تأملت خاتم وسَنَد في جسدها الأزرق كما يسميه العم دَبَش، جسدٌ مسكون لا ينفتل بغذاءٍ، جسد خاتم لا ينمو

عرضياً، دائماً هذا النحول مثل شهقة رمح، ينمو طولياً وبشكلٍ ملفت للنظر، حين بسط العم دبش الدُبارة من كتفها للقدم هتف بعجب:

«وَلْ عليك، طولك عمود دخان!»

«الطول عِزّ ياعم دبش، لاتحسد الولد...» تدخل سَنَد مازحاً، فقاطعه دبش محذراً خاتم:

«خليك من العز ياولد وإلا، رمضان القادم لن نلحق بك لابثوب ولابدُبارة...»

ما أن خلاها العم دبش وانشغل بتسجيل القياسات وقص الأقمشة حتى انطلقت خاتم مع سَنَد. كانا يُشاغلان كشتبان صبي الخيّاط، لإتمام ترقيع رقاقِ النقاقير، يحشران الرقاق تحت سن إبرة الماكينة، يدوسان على البدالة، تشتبك الخيوط وتتقطع وتنقصف الإبرة قبل أن ينجح كشتبان في إيقافهما، يصيح كشتبان بعربيته المكسرة:

«الإبرة ياسِيدي...» بينما لايرفع العم دَبَش نظره عن الأقمشة، يستنجد به الصبي:

«ياعمي دبش إبرة كَسَّر...» ودون أن يُحوّل اهتمامه عن الأقمشة يهتف دَبَش ببرود، وبلغة أهل الحواري يكرر توبيخه:

«ياعفريت وأخوك ولد عفريتة، حاسب ماكينة عمك...»

حتى إذا استفحل أمر الصبيين، هتف مبتسماً:

«ترى أُفَصِّل لكم ثياب عكاريت فوق الركبة...»

يضحك الصبيان ويتبادلان مشاغلة الصبي الهندي، يخطف سَنَد مقصه ويركض في الحجرة، يقص الرقاق في ركضه، يعدل مقاساتها لتوائم طاسة النقر، يصيح كشتبان:

«سِن مِقص حاسب، سِن مقص...»

بينما تسرع خاتم للبدالة، نجحا أخيراً في إلصاق رقعتين، غُرَز الماكينة جاءت مهوشة متقطعة تشي بما عانته الإبرة في اختراقِ كثافة النسيج الحي، حتى أتم المعلم دبش أخذ القياسات المطلوبة وأرسلهما خارجاً، هتف وراءهما:

«شباب أخر زمن الواحد فيهم معجون بموية عفاريت...»

متحينة وجودها في ثياب الصبي انسلَّت خاتم بحذر من أمام باب مجلس والدها، اتجهت مع سَنَد صوب السلالم المؤدية للأسفل، عبرا الدهليز، جلسا على عتبة الباب الدخيل، راقبهما النقشُ المعَلَّق بينما كانا يتنصتان، تأكدا من أن أحداً لم يلحق بهما، وبالذات هلال ابن المهاجر طاس الساكن للمقاعد الأرضية، عندها واصلا الهبوط، كان الفناء مضاءً بالأتاريك الضخمة، رائحة تراب مكة لا تزال تفوح، أرضُ الجبل حين تُرَش كلَّ غروبٍ تفوحُ بروائح أقرب للمسك المخلوط بالخزامى المتناثرة في ضواحي عرفات، رائحة فاترة لا تلتقطها غير حواس الطالعين لعراءِ الغسقِ مع الفجر أو الغروب. على نافذة القبو المفتوحة على الفناء

جلس سَنَد وخاتم يرقبان الماعز المربوطة للحلب، بَلَغَهما التنفسُ المنتظم لحمير وبغال الركائب في الحظيرة المقابلة، الحمير تنام واقفة غير واعية بسهر المدينة في شهر صومها، في سقيفة ملحقة بالحظيرة تلمع البرادع المزينة بالكنتيل، وخلاخل الفضة التي تلم بصخبها الحسدَ لرقابِ الركائب:

«هلال حلق ذيل عنتر. . .» وكان عنتر قط جبلي يظهر أينما ظهرت خاتم، يتمسح بقدميها وتخبئ له مكعبات اللبنية، أدمن عنتر تلك الحلوى، يحلبها في فمه وتبرق عيناه بنشوة. علاقة فريدة نشأت بين خاتم وعنتر الذي تلحقه حجارة صبيان الجبل لفرط ضخامته وسواده، كانوا يصرخون وراءه: «الجني. . .»

تلفَّتت خاتم تبحث عنه، أوقفها سَنَد قائلاً:

«لقد فر القط المسكين، مر يومان مذ ظَهَرَ آخر مرة، يعرف أن هلال يترصده. . .» ومستجيباً لوجودها ظهر عنتر فجأة طالعاً من سقيفة الاسطبل، كان يعرج، منتوف الذيل بجروح من معارك مع وحوش أغراها ذاك اللحم المتهتك، اندفعت خاتم تقطع الفناء وأقبل القط مترنحاً إليها، حملته بين ذراعيها، تلطخ بياض ثوبها بعصارة تلك القروح، طفرت دمعة من عينيها، لمحها سَنَد فقال محذراً:

«هااه، البكاء للحريم. .»

وحين لم تستجب لمحاولته لتلطيف الموقف، أكمل بحنق:

«أستطيع سلخ هلال هذا، لو أن الشيخ نصيب لا يحميه وأبيه....»

تحركت خاتم بالقط صوب السور الشرقي حيث الظلال، هناك افترشت الأرض وأخذت تربت على ظهر القط، وتمنعه جروحُه من أن يغفو في أمان حِجْرِها، كلما مرت يدها تَحَفَّزَ لصدها بمخالبه ثم يتراجع. اختفى سَنَد وعاد، ظَهَرَ يحمل من قصاصات أقطان العم دبش، تناولتها منه خاتم، تحركا صوب الصنابير في أحواض الوضوء الطويلة عن يسار باب الخروج، ذاك الباب لم ينغلق قط بوجه الطريق ولا بوجه طالب ماءٍ أو وضوءٍ بسبيلِ الداخل، تأملهما العم موسى الحارس المنصوب ليل نهار على كرويتته بالمدخل. يجلس أبداً لترجيع سلام الداخلين والخارجين، يرقب ولا يمنع. معاً أنهمكا في تهدئة القط بينما غسلا ذيله بالماء، أزالا الأتربة والقش العالق بنتف الذيل، ثم رجعا للظلال، افترشا التراب وأخذا في لف قروح القط المستسلم وقد بَرَّدها الليلُ وماء السبيل، بعد صمت هتفت خاتم تحدث نفسها:

«البكاء للحريم، وما أنا؟ أخلع هذا الثوب وأعود للصديرية والمحرمة والمدورة ثم يمكنني البكاء ما شئتُ...»

«ربما أحسدكِ على تلك الصديرية والمحرمة...»

«بينما أحسد هلال العمامةَ التي لا يجرؤ أحد على تبديلها بمحرمة...»

«ما أهمية ما إذا كنا إناثاً أو ذكوراً؟! أعتقد أن الأهم هو

ما وراء الثياب، أنظري لقلب هلال تجدينه قطعةً من جهنم، أنظري لعينيه لكأنها من جمر حين ينظر إلينا أنا وأنتِ. . .»

«كلما رآني في الاسطبل يُعيد عليّ أن البنت التي تكشف جوهرتها تفسد مثل تفاحة في حر مكة. . كلامه يُحرك داخلي شعوراً غريباً. أتعرف كيف تشعر تفاحةٌ فاسدة؟»

«كلامه مثل حجارة جبل هندي تفلج الرأس. . .»

«أليس عقاباً غريباً: أن أفسد مثل تفاحة؟»

ظهر الضيق على وجه سَنَد، تناول حجراً وقذف به سطح السقيفة، جاء صوت وقوعه عظيماً في ذاك الليل، أغمضت الحمير أعينها وغَطّت في الحلم، استرخى العم موسى في كرويتة الحراسة متلقطاً لأطراف الحديث، بدا سَنَد عاجزاً عن إيجاد ما يقول لقشع تلك الجدية المخيمة عليهما، وكمن يفكر بصوت مسموع قال:

«كوني بنتاً أو ولداً، أنا أحب صحبتكِ مهما كنتِ، أستطيع أن أحبسه في حنفية الدهليز ليلة كاملة، وبعدها لن يجرؤ على الكلام معك. . .»

سيبت خاتم القط يلجأ لمخبأه بالسقيفة، واعترضت قول سَنَد:

«لو سمع منكَ أبي مثل هذا الكلام لخاب أمله.» نظرت إليه بتمعن ثم أكملت «أتعرف؟ بينك وبين أبي علاقة تصيبني بالغيرة أحياناً. يراكَ كعمود لهذه الدار. أنسيتَ: أنتَ سَنَد شيخوخته.»

«وأنتِ مثل حلم، أتعرفين كيف نصحو من حلم ونعاود إغلاق أعيننا، نتظاهر بالنوم ليرجع الحلم ويكتمل، أنت لعمي نصيب هذا الحلم الذي يريد إتمامه في الصحو والمنام..»

«ومع ذلك فإني لا أملك إلا أن أغار، لو أنني أستطيع منحه شيئاً من هذه الطمأنينة. ينظر إليَّ أحياناً، فأرى في نظرته شيئاً يخيفني، أرى في عينه غمامة، كغمام الفجر على المعلاة، غمامة مسكونة بالجنائز وتحيطني..»

سارع سَنَد ينفي: «هذا تصوير شياطين..»

«هو أيضاً يريد أن يقول إني أوسوس، تلك النظرة تختفي سريعاً، لكأنها تباغته هو أيضاً، ويحرص جاهداً أن يخفيها، ألا تراه ينظر إليَّ لكأنني أتهدده بخذلان؟» لم يحر سَنَد جواباً، لم تعرف خاتم كيف توضح تلك العلاقة الخاصة بين أبيها وسَنَد، كان شعور الشيخ نصيب تجاه سَنَد أشبه بشعور القبيلة نحو قربان تُعِدُّه لفداء أبطالها وطوطمها، كان الشيخ يحتمي بسَنَد من خوفِ فقدِ الولد. عمَّ صمت بين الاثنين كلاهما يتأمل في علاقته بالشيخ نصيب، كان شعور خاتم ملتبساً تجاه ما يحدث لها، لا تعرف أتحتج متخذةً موقفاً نحو الذكورة أو الأنوثة، أو تستسلم أكثر لنعمة الوجودين بين الذكور والإناث.

قطع سَنَد الصمت بقوله:

«ارسالك لحلقة شيخنا مستور، وما يفعله الشيخ نصيب

كل جمعة حين يصطحبك للحرم. . .»

لم يكمل، لم يعرف ما يقول، وكانت لهجته أبعد ما تكون عن الاحتجاج، لكأنه بإثارته للموضوع أراد أن يفهم، ثم أقلع عن مناقشة ذلك المحظور، وأكمل في اتجاه أكثر أمناً:

«أعتقد أن ليس من حقنا ـ سواءً أنا أو هلال أو أيٌّ كان ـ مناقشة هذا الأمر أو توجيه الانتقاد. . .»

«فعل الشيخ مُحَيِّر ربما، لكن هلال يأخذ الأمر بشكٍّ، لكأن بينه وبينك ثأر يُحرضه خروجكَ كصبي، يعطي نفسَه كلَّ الحق في انتقاد عمي نصيب. .»

«ألا تعتقد أن مايفعله أبي يستحق الانتقاد؟ أنظر لبنات البيوت بما فيها بيتنا، ولا بنت منهن تظهر للطريق بدون قُنْعَتها، وجه البنت لا يظهر للغريب، بينما أنا أُجالس رجال أبي، وأطلع في خرجاته، وأهبط كل صباح لحلقة الشيخ مستور بالحرم، إن هلال ربما كان أميناً في التعبير عن رأيه في أمري. . .»

«هذا أمر لا يعنيه، لا يعني أحداً. . .»

«لكن كل بيت في جبلنا يعنيه ما يجري في أسطح كل بيوت الجبل، فيمَ تسهر الناس مالم تتناقل الحكايا؟»

«همُّ هلال ليس الحكاية، فهو يكره كل ما يجري في بيتنا، لكأنه يريد محاكمة أهل البيت».

«أتظن حكايتي لاتؤذي؟»

سؤالها أدهشه وألجم لسانه، بعد صمت سألها متلهفاً:

«هل تشعرين بالتأذي؟؟»

دون تفكير أجابت، جاء صوتها مشدوداً:

«لا أعرف، أنها تمنحني مكاناً أوسع للحركة، أنا لا أطيق البقاء مع أخواتي في المبيتات ووراء البرقع، أحبُ نظرَ الناس في عيني ونظري في عيون الناس على الطريق، لا أطيق خروج الحمارة دون أن أكون على ظهرها، أحب الاختباء وراء أستار الشقدوف، لأُنصت لأخفاف الجَمَل على صخر الجبل، لكن ليس حين أريد أن أرى وأريد للأشياء أن تراني، أحب النقلة بين الشيء وما بعده وقبله أو وراءه أو نقيضه، أحب مراقبة النساء، الدخول في مجالسهن وأسرارهن لكن لا أريد أن أكون سراً محبوساً هناك، لا أريد أن أُخَبأ وفي الوقت نفسه لا أريد أن أنكشف.. الآن على الأقل لاشيء يزعجني في هذا الوضع.»

تأملت في سَنَد ثم سألت، «أنتَ هل يزعجكَ الأمر؟»

نظر إليها كمن يبحث فيها عن إجابة، هتف:

«لا أعرف، إنه يُحيرني... أحياناً لا أعرف كيف أشعر نحوك، كما أشعر نحو ولد أم نحو بنت...»

«أيختلف؟»

«بالتأكيد..» ثم تراجع، «لا أدري، ربما يختلف، لكنني أضطرب، الآن أشعر أنكِ خاتم البنت التي تثير في نفسي الرغبة في ألا أمنع عنك شيئاً مني،أنت كبنتٍ تُشعرينني

كما لو أن ليس في الأرض أجمل مني وأقوى وأقدر، وفي نفس الوقت تجردينني من هذه القوة في مواجهتك، معك لا أحتاج لقوة، أحتاج أن أُدخلكِ من نفسي لأبعد حجرة، بينما بعد قليل وحين نخرج نجمع الحجارة من الجبل أو نركض نحو الحرم أشعر بأنكِ منافس، وأن بوسعي أن أُغلق نفسي، أكون أنانياً، أقسو أو أُصارع أو... لا أعرف... ربما لا أحتاج أن أكون جميلاً، خارق الجمال....»

«أحياناً أعتقد أنني أفهم دوافع هلال، أشعر وراء العداء بشيء حقيقي، جارف. أمري لايُحَيِّره لأنه لايُصادقني، أظن أنه يزعجه وربما يؤذيه...»

«يؤذيه كونكِ من نسل نصيب؟»

«أحيانا أتخيلني في هذه المقاعد، النور/ الهواء/ الصوت الذي يدخلها يجيء مضمخاً بروائح الاسطبلات من جهة والدهليز من جهة أخرى، أتخيلني محبوسة بين أم لا تتكلم إلا لغةً غريبة، وأب لا يرفع رأسه عن الأوراد، وكل هذه الدار قائمة على رأسي بأناسها وولائمها التي لا تنتهي وأفراحها التي لا تتجاوز البِرْكَة، هذه التي تنزُّ بما ترى في السقف فوق رأسي مباشرة، وتَنِزُّ معها شفقةُ مالك الدار، تجثم على صدري، حين أتخيل ذلك أجدُ لهلال العذر...»

* * *

في العتم تسلل سَنَد بين الناموسيات المنصوبة في الخارجة، الصغيرات من الحفيدات نائمات في الخوارج

السفلى، وخاتم في فراشها بالخارجة العلوية، الكل نيام، تسلل سَنَد حتى دنا من ناموسية خاتم المجاورة لناموسية أمها سكينة، من وراء شاش الناموسية الرهيف أمسك بأصابع قدميها، قامت خاتم مفزوعة وكتمت شهقتها، وجدت سَنَد مثل شبح ذهبي يقف في ضوء ليل الجبل، ضوء ذاتي ينبع كما من لمعة سوادِ الحجارة، لمعة تخيم منعكسة على حجارة البيوت العارية. هتف بها:

«المسحراتي يعد للخروج، عَجِّلي...» مثل لفحة نار انبثق وجهها من شاش الناموسية، ولم يمهلها لتجمع خصلاتها القصيرة تحت محرمتها، أستدار مغادراً الخارجة يحبو على أربع حتى لا يلمحه أحد من الساهرات بالمبيت، تسللت خاتم بصمت، في البسطة الأولى كان ينتظرها مضطرباً لا يعرف مم، بعد قليل ظهرت خاتم في ثوب الصبي الأبيض، تَنَفَّسَ الصعداء حين رآها، وبلمحة كانا يطويان السلالم قفزاً، حين اقتربا من باب مجالس الأب، تمهلا، أنتظرا حتى غاب العبد فرج وانشغل الشيخ مع لاعبي الضومنة، ومرقا هابطين، على رؤوس أقدامهما تسللا عبر الباب بخياله على هيئة مفتاح، لم يعرجا على الدهليز حيث البوابة لا تخلو من الزوار، جعلا طريقهما عَبْرَ المقاعد السفلية لبوابة الفناء التي لا تنغلق أبداً، غافلا الحارس عم موسى ومرقا لأزقة الجبل، كان المسحراتي العم ميضة خارجاً للتو من حوش صندقته، خلفه جمع من أولاد الجبل، يطرقون على القدور والطاسات ويغنون:

«إصحَ يا نايم وَحِّد الدايم»

يوقظون أهل الجبل النيام للسحور، كلما مروا على بيت طلعت لهم جارية أو عبد ودسوا في جيب المسحراتي ميضة شيئاً، أما البيوت الموصدة ببخلها فكان يتسمر تحت نوافذها يزعج أهلها بطبله:

«إصحَ يا نايم. . . .» يُشَدِّد على أمر الصحو لكأنه يرمي لأكثر من الاستيقاظ للسحور. سارت خاتم وسَنَد خلف الموكب، تجمع من تداخل الليل بالوجوه الطالعة من النوم وإيقاع الطبل، وتقشف الجبل بالصوم، والموسيقى البدائية التي تطلع من حناجر الصبيان وأدواتهم البسيطة، تغرق في تلك الموسيقى التي لا تتكرر إلا في ليل رمضان بعد يوم من العطش والجوع، كانت تنفصل عن الموكب وتتلقى اندفاعه من على صعدة دَرَجٍ، تتلقى هبوطه إليها من قاع مُنْحَدَر، تحوم على الموكب لا تترك شارداً من إيقاعه يفوتها، ترفع صوتها مع المغنين تُبَدِّل مسارَ الإيقاع وحِدَّته، والصبيان يتبعونها.

«إصحَ يانايم. . .» ظَلَّ بيت الملا نايته صامتاً أخرس لا يستجيب. مال صبي وقذف نافذة الروشن بحجر، عندها انشقت النافذة بغضب وطلع الملا نايته يصيح:

«أبعد يا ابن ستة في سبعة، أبعد لا ارسل وراك الصبيان يؤدبونك. . .»

ابتعد المسحراتي لزاوية الزقاق وأكمل مناداته، في لمحةِ

انفتحت نوافذ الروشن العلوي دفعة واحدة وانفتحت معها أبواب سماءٍ مثلجة، لا أحد يدري كيف تم الأمر، لكن جمع المسحراتي تفرق، وعلا هياج، لكأن كل من في دار الملا قد تعاونوا على سكب جرادل الماء المبرد بالثلج على رأس المسحراتي ورفاقه، وللحال ردَّ الصبيان على الهجوم، تهاوت الحجارة على الروشن، حين يبدأ الحوار بالحجارة يكتسب الإيقاع عنفواناً، يصبح جارفاً لا ينجو منه أحد، فجأة يظهر متطوعون للمشاركة، تعلو النبرة، وتبدأ حجارة البيوت بإرسال لعناتها الباردة على الرؤوس،، تركَّز هجومُ خاتم على عساكر الحجر التي ظَلَّت تتأمل الموكب بصمت من شاهق، عساكر جيرية لكأنها تشرب من قلب القمر وتطلع مثلجة لا تؤثر فيها مجريات الدرب، لا تكف ترقب الأسطح وحكاياها ببرود يعصمها من التنفس هابطة للمشاركة في حكاية، حتى الآن حين تنهال عليها الحجارة لايطرف لها جفن، ولا تصيح من الألم، تظل ترقب كمن لا يعنيها ذاك الرجم، حجارة لا تستلذ بوقع الحجارة، لا رد. يغرق إيقاع أغنية المسحراتي في وقفة العسكر تلك، زاد عنف حجارة خاتم التي لا تُخطئ، وصار الأولاد ينافسونها في إجبار عيون العسكر أن تتدور أو تطرف وتُغَنِّي بلا فائدة. ولا حجر لخاتم أخطأ في نقر وجوه العسكر، كل وجهٍ نقرتان على مدار السطح، الحجارة تسلية أولاد الجبل، كلهم هدافون بارعون، تشهد على ذلك جروف جبل هندي، وكانت خاتم تتدرب مع سَنَد على إصابة الهدف كلما سنحت لهما فرصة التسلل لأجراف

الجبل، كلهم يحلم بمهاجمة القلعة التركية، وتفريغها من حاميتها، كل أولاد الجبل يكبرون بحلم التربع على أبراج القلعة وتكوين حاميتهم الخاصة، طموح مشترك بين الأمراء والعامة على السواء..

استمر قذف عسكر المُلاَّ نايته حتى يئسوا من الاستجابة فانتقلوا لبيت آخر. تخلفت خاتم قليلاً، على زاوية السطح الشرقية لمحت عسكر حجرٍ نحيل بنصف استدارة مع زاوية الجدار، أدار رأسه المربع وانفتحت بوجهه ابتسامة أكثر بياضاً من القمر، شعرت خاتم بذاك البياض يمسك بقلبها في قالبه، تَمَلَّكها يقين أنها لو وقفت أطول فستخرج كل ضحكات العسكر وراءها لتحبس قلبها في قالب بياض، أسرعت مبتعدة.

لحقت خاتم حافية بالموكب، يأسرها ملمس الليل على الحجارة، حجارة النهار تلبس من الشمس دروعاً كالزجاج، حجارة الليل بأجساد طرية عارية تُشَرِّب حناءها لراحة القدم، جلست على رضم يمين الدَرج الهابط، بقفزة واحدة تكون في الموكب النازل للبسطة السفلية، إلى جوارها استراح سَنَد، رفعت قدمها اليسرى تتأمل في حناء حجارة هندي، هنا خط الموت، يلف في نقطة بقلب الكاحل، ثم يصعد خارطة مصغرة لهياكل الجسد، هياكل مصغرة متداخلة وخط الموت يخترق محطاتها، لا يستريح بمحطة طويلاً، أينما عَبَر تكَلَّس طريقه. قالت شارة إن الموت معقود بأقدامنا يقودها في دروب حتى يأتي عرش عزرائيل، المنصوب على الابهام،

هناك ينقطع العمر ويتركنا للعرش. غاصت خاتم بقدمها في تربة الجبل، تمحو تكتب في الهياكل، دلكت راحة قدمها جيداً في التراب، أخرست إيقاعَ الدرب المخفي براحتها وصوت شارة، اندفعت تهبط وراء الموكب.

حين وصلوا لبيت العمدة طلعت لهم مَعَاشر الحلوى الرمضانية، وزعت على الأولاد أطباق صغيرة تتجمد فيها السقدانة والألماسية، أما حصة المسحراتي فكانت ريال فضة، تعينه على مابقي من شهر الصوم والعيد القادم في أعقابه.

تَوَزَّع الأولاد على كرويتات مِرْكاز العمدة الخالي، تلذذت خاتم بطبق السقدانة، على لسانها مَرَّرت حبيبات السقدانة المُشَرَّبة بالحليب، بضغط اللسان لسقف الحلق حصرت الحبيبات الصغيرة الريانة، كل حواسها اجتمعت لذاك الكهف من حلاوة، بلذة أخذت تُفجِّر الحبيبات حين نَقَرَها الحجر، قفز سَنَد:

«رأيتكَ ياهلال...»

لكن المعتدي توارى خلف مسجد الجبل، هناك تنتشر أحراش شوكية ويصعب على أحد التقدم لأي اتجاه، وكل الوقت كان هلال يتبع عن بعد خاتم وسَنَد، ثم كمن لهما من وراء ميضة المسجد، ما أن تأكد من إصابته لخاتم حتى توارى في حفرة في تلك الأحراش لا يعرفها سواه، لم يتأكد لسَنَد ظنه، حيث الجهة التي توراى فيها المهاجم لا يجرؤ على دخولها أحد من أولاد الجبل، وقف هناك عاجزاً بجسده

بين العتم وخاتم فلا يلحقها حجر آخر، إن أي محاولة لاتهام هلال أو حتى مطاردته الآن كفيلة بفضح أمر خروجه وخاتم للطريق في هذا الوقت.

كان الحجر قد ترك نقرته في رأس خاتم، فوق الأُذن مباشرة، هتف المسحراتي ميضة مغتاظاً:

«هذا مصرع، لو أنحرف الحجر قليلاً لقتل الولد...»

خلع المسحراتي كوفيته وربط بها على الجرح، لم يكن عميقاً، قليل من الدم تَجَلَّط بالضغط، قال المسحراتي:

«سليمة هذه المرة، سليمة إن شاء الله...»

تلفتوا بحثاً عن الفاعل، صاح المسحراتي مخاطباً العتم، «من هذا المجنون الذي يرجم رؤوس العباد، الله في سَمَاه الدنيا شايفك..» كل الأعين ارتفعت دفعة واحدة للعتم المضيء في الأعلى، أكمل «لو وضعت يدي عليك لحشرت رأسك في الطبل وضربت عليه بالمقرعة...»

في طريق عودتهما جعلا طريقهما لميضة المسجد، مِنْ وراءِ امتدّت المنطقةُ المحظورة من جبل هندي:

«أين اختفى هلال، أنا واثق من أنه هو من أطلق النبلة...»

«أتظنه يذهب لما وراء المسجد...»

«هذه منطقة أبالسة وتلائمه..»

من حفرته على بعد قدمين انطلقت ضحكة هلال المكتومة، أرتعش الهواء واقشعرت خاتم، نظرت للحدّ

الفاصل، حدٌّ من الصخر والنبت الشوكي قائم بين الأبالسة والنعيم، فكّرت خاتم، أيُّ حياةٍ تكمن فيما وراءه؟ أيُّ مخلوقاتٍ تُعَمِّر ذاك المحظور؟ شَعَرَ سَنَد برعدتها، فعلّق:

«إن كان من الأبالسة فنحن لن نلحق به...» وبصبرٍ أنتظر تأكيداً من خاتم، شعر أنه بحاجة لوعد تقطعه خاتم بعدم الرجوع لهذا الحد.

تمتمت خاتم: «لا أتخيل خرقنا لهذا الحد...»

ولم يمهلها، أخذ سَنَد بيدها وتحرك مبتعداً بها عن تلك الوحشة التي تمتص الواقف مثلما تفعل الأجراف السحيقة، تغري بالسقوط، عادا أدراجهما وخاتم لا تغادرها الرجفة، كان جسدها شديد الوعي بما وراء لكأنها تتحرك داخلة فيه، خلفهما امتدت الأجراف المشبوهة بصنادقها الزنك، وأحواشها الخشبية المرتجلة التي تؤوي جيوشاً من المهاجرين الفقراء، تلك منطقة الجحيم عكس هذا الجانب من جبل هندي والمخصص لأهل الرفاه والنعم، الفاصل بينهما هذا المسجد الصغير المهجور، مسجد لم تجر في أحواضه المياه من دهرٍ، وحين يُلاحَظ بللٌ في أحواض الوضوء يُقال إن الملائكة تهبط مرة كل عام لتعمر المسجد فلا ينتقض الحد الفاصل بين العالمين عن يمين وشمال، ماءٌ يُراقُ مرةً في الحول حتى لا يُهجر هذا المشهد الذي تذهب الروايات لكونه مسكوناً بروح صالحٍ من الصُلاّح دُفِن منذ مئات الأعوام يوم طوفان نوح، مسجد بلا مئذنة، محرابه محفور في الصخر، ومنقوش بنقوش من أحرف الماء لم يفكها لسان بعد.

حين ابتعد ظلاّهما طلع هلال، مثل غراب وعلى رجلٍ واحدة أخذ يحجل بين العالمين وويكرر عبارة واحدة: «لا أتخيل خرقنا لهذا الحد...»

توقف فجأة وصاح خلفهما:

«خيالك خيل وخَيَّال ياخاتم،

موعدنا الخبَال يا وَقْعَة نصيب...»

* * *

عيد الفطر محط ملائكة القِران في مكة، تهطل العقود من السماء، وتعقد كواحل البنات للشبان:

«العقد يكون في العرش قبل الفرش بأربعين يوماً. . .»
وتهطل عقود الأنكحة جاهزة لا يُحرم منها بيت يوطِّن توقاً للحياة، كل البيوت أعراس، وتلك التي لا تجد من تزوج تشارك بفتح حُجَراتها وأفنيتها لمن يرغب لعرسه أن يتنفس في مساحة أوسع، لمن يرغب في استعارة وجاهة.

بيت نصيب كان من مساحات الوجاهة التي لاغنى للأعراس عنها. صباح العرس كانت روائح الزلابية تفوح في الجبل، الفناء كان كعادته في صباحات الولائم والأعراس مربط الأطايب، دارهم دوماً تتكفل بولائم الأعراس للبيوت المحيطة. وقفت خاتم على صاج العَشِّي، كان صبي العَشِّي يصب العجين في الزيت ويُدَوِّره فتتدور أفلاك تلك الرقائق العملاقة بحجم تُرس، كسر لها العَشِّي من الزلابية الطالعة للتو من الصاج، وأشار لحيث قدور الشيرة تبرد، غمست

الرقاقة الهشة في الشيرة وقرشت، ذاك المذاق الهش المغمور
في السكر سرى في حواسها، كانت تركض على طرق
الجبل، خلفها انصفق الباب الدخيل بنهاية الدهليز، غار نقشُه
وطفت لخطوطه كما رائحة تَفَحّم اللحم الحي. الدار لا تفيق
مبكراً في صباحات الأعراس، وحين تفيق تنشغل بالمزيد من
الولائم، هي فرصة لخاتم أن تتوارى عن الأعين، وجدت
نفسَها وجهاً لوجه مع المسجد القائم على حدود العالم
المحظور من الجبل، لم يمضِ زمنٌ وهاهي ترجع للمسجد
من جديد، لا تعرف كيف قادتها قدماها لتلك البقعة، لا
تستطيع التحجج بأنها كانت تبحث عن المخلفات التي تصلح
لصنع النقاقير حين وجدت نفسها هنا، شيء في جسدها كان
يطير لبلوغ تلك البقعة من سِرّ، هي المرة الأولى التي لا
تطلب مرافقة سَنَد لها، تسللت وحدها لا تعرف لم، شيء ما
ظلَّ يناديها حتى خلاها هنا. أمامها قام البناء من الحجر
الرمادي الخالص، بلا طلاء ولا رتوش يقف عارياً للريح
والشمس لايتبدل وجهه، طافت فيه بقلبها وعينيها، ليس له
باب، إذ ينفتح لك الفناء فجأة ويبتلعك، وجدت نفسها في
ذلك الفناء الترابي المربع بطول قامتين، لا يزيد عن بسطة
خارجتهم، محاط من جهاته الثلاث بأروقة، بينما في الجهة
الرابعة المحراب، محفور في صخرة من لُبِّ الجبل، تحيطها
نقوش لا تعرف لغتها، كل ما شاهدته في كتب الشيخ مستور
لايضاهي سِرِّية هذه النقوش، حَدَّثت نفسَها: ليس غير الريح
تكتب وتُصَلّي وحدها في هذا المسجد، إنها الريح تؤم

الصمت في الصلوات الخمس، لم تجرؤ على لمس تلك النقوش، خافت أن تسري ليدها... شعرت أن بوسعها الدخول لذلك المحراب والعبور لما وراء، في أي سماء سينفتح؟ أنصتت، صوت الريح في الأروقة يكرر سؤال: «من يصلي في هذا المسجد؟»

استرجعت الحكايا التي تطوف حول هذا الحرم المهجور، الرجل الصالح من زمن نوح، يطلع في ختام كلِّ صلاةٍ بالبيت الحرام، يؤم غرقى الطوفان في إقامة الصلاة على الميت الغائب، أي ميت؟ من تلقائه مال رأسها، أسند جبهتها لقلب المحراب، وجاءها همس الريح في حجارة المحراب:

«صَلّوا على أبينا نوح، صَلّوا على أبينا آدم...» أسندت شفتيها لحجارة المحراب وهمست:

«صَلّوا على أُمنا حواء...» وجاوبتها الريح تهمس:

«صَلّوا على أبينا نوح، صَلّوا على أبينا آدم...» وفاحت روائح الماء المشبع بالأرواح من عهدٍ قديم. نجت برأسها من همس المحراب.

على جانبي المسجد نوافذ عمياء موصدة على الجهة المحظورة من الجبل، شعرت خاتم بالعماء يسري لعينيها، تملكتها رغبة في أن ترى، غادرت الفناء، دارت حول المسجد، الحنظل والنبت الشوكي في كل مكان يصدُّ تقدمَها، وقفت على ركن المسجد تسترق النظر لما وراء،

فجأة ومن لا مكانٍ خلفها دفعتها يد قوية، صرختها لم تنطلق كانت ملتصقة بالجدار العاري مشلولة، شدَّتها اليدان بغلظةٍ بعيداً عن الحجارة، حين استدارت كان هلال أمامها، لم يمهلها، أمسك بمعصمها وكان يخترق وسط الحنظل، لم تزل مشلولة ولا تملك التراجع أو الانفلات من قبضته، كان يعبر بها درباً مخفية في النبت البري، فكرت بتحذيرات أمها «لا تدوسوا الحنظل وإلا جرت سيولكم»، فكرت أن سيلاً سيضرب جسدَ هلال ويفرغه من روحه، أراحها هذا الخاطر ولم تزل لا تملك الانفلات من تلك القبضة، في لمحة كانت في الجهة المحظورة، كانت تسير في أجراف أشبه بممرات الماعز في الجبال، لاشيء يشبه طُرقات جهتهم من الجبل المعبدة بممراتٍ ضيقة ودرجات وبسطات استراحة، من يسير هنا لابد وأن تتقطع أنفاسه حتى القمَّة أو يتدحرج حتى يبلغ الحرم. . .

أمامهم كانت تنويعات الصناديق المتداخلة بحجرات الحجر والطين وحوطات الخشب تنتثر وترسم فوضى عجيبة:

«افتتحي زيارتك بالحشاشين. . .»

على رأس زقاق ضيق نادتها ابتسامةٌ كسول، كان رجل يقتعد برميلاً ويرقب الشمس الطالعة عن يمينه، لم يحول بصره إليهم، واستمر يدخن، يغمس سيجارته صوب الشمس ويسحب نَفَساً عميقاً يحبسه بصدره فلا يرتفع حتى يحمله، عَلَّقَ هلال ساخراً:

«هذا مخبول الشَمّوسة، جالس هكذا من مئة عام أو

أكثر يُدخن شَمّوسته فلا تفوته غزالتها.»

خلفه على باب صندقة حشاشٌ آخر، مربوط لحبلٍ مشدود لعنق ماعز حمراء، كلما شدت الماعزُ الحبلَ ورَعَت تبعها على أربع، ثم جلس يستريح ريثما ترعى ما أمامها من مخلفات وأوراق، ثم تسري الماعز فيسري وراءها بهدوء عجيب، ضروعها الضخمة محمولة في كيس مربوط لظهرها، ويَنِزُّ بالحليب الطافح فيها، هتف هلال:

«هذه عمتنا شاحوطة عروس الحشاش عَنْزَروت...»

أراد هلال أن يدخل بخاتم لزنقة الحشاشين لكنها جفلت، حاولت الافلات فرجع عن عزمه متشبثاً بمعصمها. هتف ساخراً:

«لاتعجبك أحوال الحشاشين، مع أن رجال ضِفَّتكم يأتون إلى هنا للفرجة، كل حكايا مجالسكم المسلية مجموعة من هنا، من بستان الحشيش والحشاشين...»

في تجمع آخر للصنادق كان عويل، وكل من في الصنادق خرج للطريق يرقب، كان رجل يرافق طفلاً في الرابعة، الطفل في ثوب أبيض ناصع وكوفية قصب، نصاعته تتناقض بشكل حاد مع تقشف الجبل حوله، انشدّ قلب خاتم للحيرة في وجه الولد، وجه مثل قلب أبيض شاحب، تتوزعه فرحة على خوف، يده تروح وتجيء على أزرار صدر ثوبه المقصبة، ثم تعلو لتمر مثل طير فرحان على الكوفية القصب، ثم تجفل عينه لكل صيحة في وجه الأم، ثم انفجر يبكي، صرخ الأب مؤنباً:

«لا حول ولا قوة، ها قد أفزعتِ الولد..» وأسرع يجر الولد هابطاً أجراف الجبل صوب الحرم، اندفعت الأم تتعثر وراءه، تهتف:

«ليس اليوم، خذه غداً...» والأب لا يلتفت، يمضي ويلقي لها بالأمر:

«أرجعي لبيتك، أرجعي أو بالحرام م....»

منعه الرجال من قذفها بيمين التحريم، كان للقَسَم المبتور فعلُ حفرةٍ انشقَّتْ وابتلعت الأم، تسمرت هناك وسط الجبل حاسرة ترقب الفراغ في قلبها، وقفت هناك حتى أحاطت بها نسوة، ألقين عليها وشاحاً، أردن أن يسقنها أمامهن لدارها، لكنها لم تتحرك، كانت مصبوبة هناك مثل صنم طالع من أرض الجبل، بعينها لا تحيد عن الكوفية المقصبة الهابطة لحيث لا رجعة، حاولن زحزحتها دون فائدة، ألسنة لا حصر لها فارت حولها تطمئنها، لغات الشرق والغرب والعرب والعجم قالت وحشرت لقلبها الطمأنينة:

«وَحْدْي الله، وحّدي الله، بكرة يشبع الولد ويرجع لك...»

«يصيد الصيد ويرجع لعُشّه، كل طير راجع بِوِلْفه لعُشّه...» نسوة من كل لون أحطن بها في وقفتها تلك، وشعرت خاتم برغبة في الفرار، تحرك بها هلال بعيداً، وأوضح:

«أمثالك يشترون هذه البضاعة...» كرات حنظل فجة

انحشرت في حلق خاتم، لايزال الوجه مثل قلب معلق بعينيها، سألت بصوت خافت يتحشرج:

«يبيعونه؟»

ضحك هلال بصخب:

«مقابل لقمته فقط، ولا قرش يعود للأب، فقط يُسْقِط فماً جائعاً من على كتفيه...»

أمام صمت خاتم أكمل هلال بعنف، «هذه بوابة من بوابات حميم الأبالسة. الحميم المحظور على أولاد النعيم في ضفتكم من الجبل...»

«وما الذي يمنعهم من الهبوط للعمل...»

«أي عمل؟! يالك من بنت أبيها... والآن أي بوابة نفتح لبنت النعيم، لبنت نصيب المُعَلَّقة كقنديل بين تحف الذكور والإناث؟ أتريدين بوابة السُرّاق أو البغايا أو البائسين الذين يُربطون لرحى المطاحن؟ زيتكم من جلد هؤلاء، أتريدين التعرف على الرجال الذين يشدّون عجلة المطاحن؟ أنظري ذاك سالم يقوم مقامَ جَمَل مطحنة السمسم. إنه شاب من سيلان، رأسه عشة شاي، استرجعي ملوحته على لسانكِ...»

كان يمر بها على أجراف وأزقة يتوزعها بشر متربون، يأوون لكل مايمكن أن يؤوي، يقيمون حياتهم بين الردف وتحت جدران الجريد وجذوع النخل وطواويل الخبز الخشبية ينامون ويستيقظون في تلك الجحور التي تزدحم بقادمين جدد لاينقطع سيلهم لدنيا الحميم.

مرت خاتم على رجال، يفترشون الأرض أمام صناديقهم، يُدَلّون سيقانهم العجفاء في أجراف الجبل ويتحادثون كل من بقعته، يدخنون أو يشربون الشاي المغسول من تكرار الغلي:

«هذه بوابة التنابلة، هؤلاء السلاطين وجدوا أنفسهم مزروعين هنا، وهكذا سيجدهم عزرائيل، يقطفهم من نفس البقعة. مهنتهم ليلية، يصلون العشاء ويبدأون السعي للإنجاب، يرسلون أولادهم لجمع الصدقات من التكايا والحرم، حتى إذا بلغ الولد زوجوه ليُنجب الشحاذين، فما أن يبلغ الابن الخامسة حتى يتقاعد الأب ويدخل في سلك التنابلة، ينضم لجلسة الطريق ويرسل ولده ليتدرب في حرفة الشحاذة. . . . وهكذا سلسلة من الشحاذين الذين يتقاعدون كتنابلة. . .»

شعرت خاتم بجلدها يتخضب بتلك الصنادق والأحواش المفتوحة للسماء المسكونة بخفافيشِ البشر، لحقتهما عيونٌ جائعة، عيون لم تعرف النوم من أيام منهمكة تغزل، وتواجه نيرانَ الأفران، وتقصُّ الحجارة لاعلاء المدينة، وتقوم بالأعمال التي قد ترفع لها من فتات المدينة القاحلة، هتف هلال بتشف:

«هذا مكاني وأبي طاس، لا في تَكيّة أبيكِ، لكن جبن المعلم طاس جعله يقبل فتات أبيك على العرق في سبيل اللقمة. . .»

تَمَلّك خاتم ضيقٌ، هتفت بغيظ:

«وما شأني أنا بهذا الكلام، قُلْه لأبيك...»

قاطعها بحقد:

«وأقوله لأبيك أيضاً... أتعرفين كيف بنيت داركم والتي تصطاد المتعلمين لدهاليزها، تُحييهم ببقايا موائدها، وتُميتهم بإحسانها؟ من بيع اللحم الحي، بيع أبناء هذه الضفة من الجبل التي يسمونها الحميم، كون أبيك أقلع عن الحرفة الآن فهذا لا يطهركم ويُنبت لكم أجنحة ملائكة، بيتكم دوماً كانت تغرف الأجسادَ والأرواحَ من هذا الصوب من الجبل وتبيع لذاك الصوب، وتعلو وتتطاول، فيها يُربى أبناء هذا الجحيم ليصبحوا صالحين للبيع بذاك الصوب...»

صدمت كلماته خاتم، أيقظت رائحةً تعرفها، امتد أمام عينيها شريط الأطفال والصبايا الذين كانوا يدخلون بيتهم، ويقضون بينهم أياماً أو أسابيع وأو شهوراً ثم يغادرون. مشاهد من طفولتها طفت مثل خيالات تضغط على الذاكرة. تَذَكَّرت المشهدَ الذي استرقت النظر إليه في دهليزهم، كانت ربما في السادسة، ربما أصغر أو أكبر، لكن الكلمات التي سمعتها بدأت تتضح، كان الباب يُطْرَق بعنفٍ أهبطها من المبيت العلوي، حين بلغت الدهليزَ كان أبوها يقف مع رجل غريب، رجل في ثياب بيضاء حائلة، يَتَحَزَّمُ بِجَنْبِيّة في غمدٍ حالك، ربما من جلد جمل، السواد الذي لعينيه كان يبرق ويترك ثقوباً في جدران دهليزهم وبوجه أبيها، عينٌ لم تر مثل سواد جمرها من قبل، كان الرجل ممسكاً بفتاة لها رائحة غريبة، هذه الرائحة التي بقيت لا تُغادر رأس خاتم، رائحة

عشب ودهن، رائحة بر، البنت لا تزيد عن الثالثة ربما، ضفائرها تزيد عن العشرة وتفلت من غطاء الرأس الذي بلون حناء باهتة، عين البنت اخترقت الدهليز لحيث وقفة خاتم المتلصصة، كانت البنت مثل أرنب بعيون قرمزية، وشفتاها تختلجان تماماً مثل أرنب، كان الرجل قد اعتذر عن الصعود للمجالس، كلماته انحفرت بقلب خاتم، كان يقول:

«لو بقيت معي لماتت جوعاً، خذها من ذمتي لذمتك، أسألك عنها يوم القيامة. . .»

حين انسحب الأب زاد اختلاج شفتي الأرنبة، وطفر ماء من قرمز عينيها، بصمت كان القرمز يسحُّ من عين البنت، ثم فجأة انفجر صراخٌ حين تَوارى جسدُ الأب في أجراف الجبل. تلك كانت ضحى التي ربيت في الدار وأسرت في لمعةِ عينيها محسن ابن عمة خاتم وأخا سَنَد بالرضاعة، في زيارة عمتها الأخيرة عقدوا لضحى على محسن، وفي عام أو اثنين يزفونها للمدينة المنورة.

انتصب مشهد الدهليز مثل غصة بحلق خاتم، كانت واقفة لا تزال لاتهام هلال، هتفت بضعف:

«لكنهم دوماً كانوا لنا مثل أهلٍ وإخوة. . .»

ضحك هلال بشماتة:

«نعم مثل سَنَد المُنْعَم عليه بالنسب. . .» صاحت خاتم بغيظ:

«وما تريد لأبي أن يفعل؟ أن يغلق بابه بوجه ضحى،

أتريد له أن يرسلهم للجوع الذي جاءوا منه؟! هكذا أنت لا يهمك من يموت ومن يحيا، لا تعرف غير اللعب بالكلمات التي مثل السنانير تجرح، بينما أنتَ نفسك لم تغلق بابنا وراءك وتخرج..»

جذبها هلال بعنف دون أن يجيب، توغل بها صوب منحدرٍ، ورغم قناعتها بما قالته شعرت خاتم بأسى، نظرت حولها، امتد بصرها من ضفتهم لهذا الحميم، شعرت خاتم تماماً بما قاله هلال: لكأن ضفة هذا الجبل تشيخ، تصب طفولتها وشبابها في الضفة الأخرى حيث تقوم دور الأعيان ودارهم.

***

اندفع هلال بخاتم للمنحدر المعروف بـ (دحديرة عَسّاس)، ظَهَرَت لخاتم لا تزيد عن جرف قاحل يحتل قاعدته بيتٌ بطابق وحيد ينبسط أفقياً على مصطبة الجبل،كل طُرق الدحديرة مكشوفة لتقود لذاك البيت بحجراته التسع المفتوحة على فناء خلفي يصعد الجبل، كل نوافذ الحجرات مفتوحة على الجرف وما يطل عليه من أحياء مكة بالأسفل، ولا نافذة تُغلق في ليلٍ أو نهار، لكأن شرط الدخول الكشف، من يحضر لا يتخفى ولا يتنصل من المحظور.

من نافذتها استوقفته المرأة الأربعينية المعروفة باسم تحفة شيخة الدحديرة:

«مين يا واد هذا المليح؟» وجاوبتها ضحكة هلال

المدوية، لَكَزَ ذقنَ خاتم لترفع رأسها لروشن الشيخة، قال ساخراً:

«هذه عروس عطبة، تصلح لك، ولدحديرتك...»

ضربت الشيخة على صدرها المتهدل وصاحت موبخة:

«ياندامة، برة وبعيد، لا تبتلينا ببنت من بنات الأكابر... ثم ما هذا يا ولد أبليس، يا حطبة جهنم. بنت في ثوب ولد؟»

«هدية لشيختنا تحفة التحف...»

«جاد ولا بَهْلَلَة؟؟»

بدت الشيخة متحرقة لتعرف حقيقة تلك الغنيمة الواقفة تحت روشنها، جاوبها هلال:

«استريحي، هذه زيارة تحلية بضاعة، عسى أن تعجبها طلعتكِ وتكوني لها خاتم سليمان...»

«لا يا خويا وعلى أيه، من أولها، اللي ما نعجبه ما يعجبنا، بعدين هذه ممسوحة لا صدر ولا خاتمة ولا حتى تركينة، على شوف عينكَ: لا نون ولا يحزنون. خيزرانة محطبة تحتاج تتنوّم في بِرْكَة ماجن عام ونص على وحدة ونص عشان تميس وتنوس وتُوَنِّس...» هتف ليُغيظ خاتم:

«خيزرانة تحتاج خاتم سليمان حتى تقبلها تحفة دحديرة عساس...»

حدثت الشيخة تحفة نفسها،

«مع أن شعننتها ناطقة من رأسها، والزبائن العجب

عشقها وموتها القُضْب الأزرق..» صرخت بهلال «يا ولد، مرمرت قلبي، جاينا مُشترٍ ولا مُورِّد بضاعة؟»

«عايني بنفسك...»

«لا جفا ولا نكران لكن، اللي ظاهر عيان بيان بَشْبُوش أكابر زي سلام عليكم من تخت السلطان...»

ممعناً في تعذيب ضحيته، قاد هلال خاتم ودفعها لفناء الشيخة مغلقاً عليها وهو في الخارج، تسمرت خاتم بظهرها للباب تواجه ذلك العالم المنفي، كل إرادتها بالهرب تجمدت في النظرة التي ألقتها حولها، وكانت حجرة تحفة مفتوحة على الفناء، وحولها صف حجرات، ومصاطب تتوزعها بنات من كل لون وعمر، يستلقين في سراويلهن الحلبية وصديرياتهن الشاش المنقطة بأزرار الذهب، أزرار محلولة على نعيم يطفر شامخاً في المكان، يتلوين كالسمك في سوق السَمَّاكة، يجددن حيوياتهن بالتمدد في شمس الضحى، تلك السراويل مثل شُهب نار فضية وذهبية وحمراء فاقعة تسري بظهر خاتم، تَخَشَّبَ جسدُها مثل قوس يتأهب لإطلاق رمحه، لم تعاين خاتم مثل هذا الانفلات في جسدها من قبل،كان ألم حاد يتجمع هابطاً عمودها الفقري متحوصلاً أسفل جذعها، شعرت برغبة في الانقضاض والاستسلام في آن، كل ما فيها تاق لينصهر بتلك الأسماك ويَصْهَر. شَلَّتْها تلك الغربة التي انبثقت بجسدها وغَرَّبَتْها. وكانت عينها تسري على الأجساد بنهم، حتى انتهت إلى الهندية والبدوية القائمتين على مصطبة الشيخة تحفة، بشرة بلون الذهب

ملفوفة في فوط هندية وخلاخل فضة ترجف لها أطراف خاتم، كانت خاتم ترتعد مثل قصبة، كان بخار يسري فيها هبوطاً أينما سرى خَدَر، شعرت برغبة لا تعرف ما هي، هذه التشنجات في جسدها أعقبها شعور بالبلل، شعور حاد ومحصور في بقعةٍ متصلة اتصالاً وثيقاً بقلبها، ببلل في القلب وقفت خائرة وقد فارقها هيكلها، تسمرت تتقوى بالباب وراءها، كما في غيبوبة استراحت عيناها على الحركة التي كسرت إيقاع ذلك التلوي، عينها على الهندية والبدوية اللتين قامتا لتلقي الشيخة، جلست الشيخة حاسرة محرمتها عن رأسها، طفرت الخصلات بين الأبيض والبرتقالي، رأس يثير زمناً بلا آخر، يثير الأسى، كانت قصعة تنتظر طافحة بسواد، أسلمت رأسها للبنتين اللتين أخذتا في صبغ خصلاتها بالحناء العجمي، بدأت العجينة السوداء تتحلب وتترك خطوط قتامة على جبهة الشيخة، انشغلت البدوية تغمس القطن في زيت اللوز وتمسح الجبهة لكيلا تعلق بها تلك القتامة، انتهت بأن رَكَّنَت الوجه المكتنز مثل قرصٍ بتاج قطن مشرب بخلاصة اللوز، بينما سَرَت الهندية في الخصلات بعجينة السواد، كل من في الفناء ألقين بنظرة خاطفة صوب خاتم ورجعن لمهمتهن باستغراق، هبطت على المكان غيبوبة أو خَدَر، الكل أَلِفَ مشهد انضمام بنت جديدة لقطيع الشيخة، حين شقَّ هلال الباب سقطت خاتم بين يديه وانكسر المشهد، قذفته حبشية بلون الزبرجد بمشطها، تلقفه بمهارة وأعاده طائراً صوبها، في لمحة كان قد جذب خاتم مغادراً... كأن

ذاك المشهد لم يكن إلا في مخيلتها، لولا بقعة البلل في أوثق البقاع اتصالاً بقلبها. . .

لم يمهلها، جَذَبَها لأجراف الجبل العليا، هناك موطن اللصوص والقتلة كما يعرف كل أهل مكة، على بقعة في الدرب بدأ الشخير، مثل خوار ثور يدعوهما للابتعاد، لكن هلال كان عنيداً ويجر خاتم من معصمها بلا شفقة، في خلدر تركت له قيادها، حتى أطل بها على تلك الجثة العفنة، كان شيخ مثل شيطان يتلوى على الأرض أمامهما، لضحكة هلال المدوية جحظت عين الشيخ، مثل حيوان في مصيدة كان خوف غير بشري يحفر في ذاك المحجر الفارغ ويطفر، شعرت خاتم ببرودته على كامل جسدها، خرجت من الخدر لتهوي في مستنقع الألم ذاك، بدا لكأن الشيخ يحتضر، صاح به هلال:

«يا مهراس الكلب، كلُّ الجبلِ يُعَلِّقُ الزيناتَ لزَفِّكَ لبوابةِ جهنم. . .» زاد جحوظ الموت في ذاك الوجه، ثم غرق الجسد في نوبة تشنجات لكأن سكيناً تجري في العروق وتقطع الروح من كل جذورها، مثل محراث يحصد والجسد يقاوم، كلما غادر المحراث بقعة سكنت، حتى بلغ الحنجرة، عندها صاح هلال صيحة قبيحة، بين صيحة الضبع والغراب، تقطعت لها عروق خاتم بينما فزعت روح المحتضر المغادرة، رجعت أدراجها تختبيء في أطرافه، عاد التشنج يحصد العروق من جديد، صاحت خاتم بيأس:

«دع الشيخ يموت في سلام. . .» ضحكة هلال جعلت

روح المحتضر تتلوى مبتعدة به، قَطَعَ أقداماً في المكان وأنحطَّ في بقعةٍ أبعد يكمل احتضاره، قال هلال:

«سلام؟! ابنة نصيب الخنثى محروسة مُبَخَّرة من شياطين هذه الدنيا، هذا إبليسهم الأكبر، لم يسلم من شره أحد لا الأطفال ولا الكبار، لا الإناث ولا الذكور، ركب الجميع للهاوية، هذا الدرب قبل عامين لم يكن ليجرؤ أحد على الاقتراب منه، أو النظر صوبه، ولا حتى عسكر الحميدية، ولاحتى حامية القلعة، عظام ضحاياه لا تزال ترقد بين ذاك الردف العلوي، أتريدين جمع بعضها لنقاقيرك؟»

جفلت خاتم من الفكرة، ولم تستطع إغلاق عينها عن تلك الجثة العظيمة المتآكلة، بقايا في فوطة حائلة تُزكم بروائح المخلفات التي تترك دائرة رطوبة حولها، أطراف بلون التراب الملطخ بالعفونه، وقد بدأ الدود يسري بأطرافه قبل أن يلفظ روحه، وذباب أزرق يحوم على محجريه، بينما أسنانه مهترئة وما بقي منها تغطيه خضرة كما لو غرقت في طحلب، فكرت خاتم: إنه وجه إبليس نفسه. أكمل هلال:

«الملعون مهراس هذا هو الشوك المثالي لأرض إبليس هذه، الخير الوحيد الذي أقدم عليه هذا الشيطان في دنياه هو الاحتضار بمعزلٍ عن الضحايا... إسالي عن مهراس الذي تُخَوِّف به الأمهات الأولاد، ألم تخوفكِ عمتنا سكينة من مهراس الذي يسرق الكحل من العين، وحين يجوع يأكل أفخاذ البنات الرُضَّع نَيئة، ألم تكرر أمك التحذير: اغلقي الباب حتى لا يلمح مهراس وجهك فيجوع ويدخل، البنت

التي لا يتعشى بها مهراس يسوقها لدحديرة الشيخة (تحفة) ربة الصنعة، البنت التي لا تشتريها الشيخة يربطها لرحى المطاحن حتى تتآكل عظامها ثم يتركها لغربان الردف التي تُساكنه في العلالي... مهراس هو الموت الأشنع من الموت للمسروق، لا فرق بين ذكر وأنثى. والآن هاهو ينهش ذاته، أنظري يا خاتم نصيب، روحه لا تقدر على الطلوع، لأنه لا يشبع من العذاب، يطلب المزيد، غرامه أن يحتضر ألف مرة...»

والشيخ يُحَشرج ويفور الزبد من حلقه، يغطي رقبته وصدره، كلما وصلت روحه للحنجرة، صاح هلال ورقص حول المحتضر فترجع الروح للاختباء بذاك الهيكل المتهدم، يهتف هلال منتصراً: «أنظري رجعت روحه لخرابة جسده، لا يجب أن نسمح لها بالطلوع من هذه العفونة والنجس...»

في المرة الثانية التي صرخ فيها هلال عند صعود الحشرجة لحلق الشيخ، أنفجر شيء بصدر خاتم: عميت وصُمّت وفار بخارٌ من كامل جسدها، أفلتت يدها من يده، دفعته بكل قوتها فسقط على الأرض بجوار المحتضر، نظرت إليهما بفزع، وكانت عين هلال مُحَدِّقة فيها بين الإعجاب والعجب، من موقعه على الأرض بجوار الجثة هتف هلال بهدوء شرير:

«أنظري جُرْمُه الشرير يتجمّع مثل سحابة فوق رأسكِ، وبوسعه الانتقال في الرؤوس وإعطابها بشروره.. إنه يتحرك حولنا وفينا...»

رفعت خاتم رأسها للسماء فزعة، طوال الوقت كانت غربان واقفة على الردف العلوي ترقب. جاء صوت هلال:

«كل هذه الغربان طالعة من صدره...»

لم تعرف خاتم أكان ما يرقبها غرابٌ واحد عملاق أم سرب غربان، مثل غمامة سواد قدحت عيونها ومخالبها الحمر في صدر خاتم، ارتعدت، شيء داخلها صار ينقبض وينبسط مثل غمامة تلك الروح البائسة، شيء نشب بحلقها، فكانت تتقيأ، قفز هلال ناهضاً ممسكاً بمعصمها، يُسند وربما يمنعها من الانسحاب في الوقت نفسه، يده على قلبها تقدح مثل كلابة، وخاتم تقذف ما في جوفها كأنما تلفظ أنفاسها مع ذاك البائس، أرادت أن تركض، لكن هلال يمسكها، في تشنج رهيب انفلتت الروح من حلق مهراس وخلعت خاتم معصمها من قبضة عزرائيلها وراحت تركض، لم يلحق بها هلال، تركها تجد طريقها وحدها لخارج تلك المتاهة، لا تعرف كيف اسْتَدَلَّتْ، لكن الرجل الذي كان يحمل ابنه للبيع كان أمامها على الدرب، الجسد الصغير بثوبه الأبيض وكوفيته المقصبة مثل نسمةٍ تسير لعيد، عرفت بحدسها أنه في سبيله لجهة الرخاء، حيث دارها، تبعته قدماها على غير هدى، حتى لاح لها المسجد الفاصل بين العالمين، صارت تركض بكل قواها، لا تعرف كيف لكنها وجدت يد سَنَد تتلقفها في قبو دارهم، كان سَنَد قد عثر عليها وهي تركض، تبعها للقبو، هناك كانت دموعها قد جفت، مسحت وجنتيها المتخشبتين، كانتا مثل صفحة ياقوت ترمي بشرر وتصر تحت

كفيها، تحركت صاعدة للمبيتات، وهناك اندست في كومة الفرش المتكومة بركن المبيت العلوي، تسلقت للفراش الأعلى، دخلت بين طيتيه وأغلقت عليها، إن أحداً لن يبحث عنها هنا إلا بعد صلاة العشاء حين يحين وقت النوم، عندها تكون قد تخلصت من الغمامة التي تسكن صدرها، غربان إبليس المحتضر التي لا تريد مفارقتها..

بين طيتي الفراش بدأت تنزلق حولها أجساد الأسماك في سراويلها الحلبية، تنزلق حولها وفيها حتى تطلع من جذعها غربان إبليس تتشنج وتصرخ، حتى تقذف باللهب ثم بالماء، دافئ ويطفئ كل تلك الصورة، تغمس جسدها في طيتي الفراش أعمق...

بعدها لم تجد خاتم الخلاص من تلك الغربان والأسماك، صارت خندقاً يُحَوِّط جسدَها ويفصلها عن سَنَد الغافل عما مرت به...

* * *

شعر سَنَد بنأي خاتم، شعر كمن يدور على ذاته، لا يتوصل لطريقةٍ تكسر تلك المسافة، كان يحس أنها تدخل في عوالم تبتعد عنه، وفي محاولة لاستدراجها فكَّر أن يأخذها إلى العالم الذي طالما أخفاه، كان دوماً يختلس المرور على قبو الجواهر خلف حانوت شيخ الجواهرجية، كان يشعر بتوقٍ للانفراد هناك لا يفعل شيئاً غير مراقبة سفر ياقوت، المُعَلِّم في التعامل مع الأحجار الكريمة، كان سفر ياقوت مثل

ساحر، يأخذ مكانه في ركن القبو، وهناك تبدأ مناورته للأحجار، أثمن الجواهر يلقيها شيخ الجواهرجية دون وجل لسفر ياقوت ليكتشف احتمالاتها، ليصوغ منها أحجبة على صدور عشَّاقها. يقول سفر ياقوت:

«الحجر الذي يٌعَوَّل عليه هو الحجر الكلُّ، الناجي من صاغته بأقلٍّ قدرٍ من الخسائر، حجر ينظر في عينكَ ويسلبكَ بصركَ..» وكان سَنَد يكتفي بالوقوف هناك يرقب عمليات الجلي دون كلام.

«نظرُكَ في قلبِ الحَجَرِ كنظره في طالعكَ، ما لم تتأصل في أعماقكَ ذات المائية وقوة الشعاع وصفاء الصبغة والخصال فلا سبيل لقراءة الحجر الكريم، بعد هذا يبقى أن تتعلم كيف تحمل الجوهرة على أن تعطيك من خباياها، أن تنظر فيكَ، ما لم تتكرس للحجر الكريم دفعته للانطواء، للانتحار، كلمةٌ، نَفَسٌ واحدٌ كفيل بكسر الطقس والذهاب بقلب الجوهرة...» ولا نَفَس يطلع في ذاك القبو، وكان سَنَد يقف يتدرب على حبس أنفاسه، على تَحْييد كلٍّ قواه وترك قوى الحجر تتحرك في المكان لتمنح أجمل ما فيها. لذا لم يكن واثقاً من جدوى اصطحاب خاتم، حيث الطاقة في هذا الجسد النحيل الفارع مخيفة، قطعاً ستتداخل إن لم تتنافر وقوى الحجر، قد تشتبك بلغة الكريم وتُسْفِر عن مجزرة، لكن ذاك اليوم لم يجد سَنَد سنَّارة تُرجع خاتم للانسجام الذي خلقاه في علاقتهما الوثيقة، لم يبق في جعبته غير محرابه يفتحه لكي يضمها إليه من جديد، بعد صلاة الفجر،

كانا قد اخترقا الأروقة كعادتهما كل يوم، قصدا المسعى الممتد بين صفين من الحوانيت، هناك كان الساعون يروحون ويجيئون في طقس هاجر بينما الحوانيت تفتح أبوابها:

«يا فتّاح يا عليم، يا رزّاق يا كريم...» ويدخل الباعة طقس الاستفتاح. هذا الطقس يأسر الصبيين، هناك تَدَاخلٌ في طقسين يأسر خاتم، السلاسةُ التي تجمعُ بيعَ الدنيا لبيعِ الآخرة يستحوذ على خاتم، تلتقط موسيقى الأجساد في نبشها عن نبعٍ سماوي مقدس ونبع سُفلي حميم، كل جسد يطوي خيالاتِ النبعين ويمضي يتنقل بين أرض وسماء. لا تمل تَتَبّع ذلك الإيقاع كل صباح، جلسا على مصطبة بجوار حانوت العم مرزوق بائع السُبح يرقبان، كل مجموعة حوانيت تبيع نفس البضاعة وبسعرٍ مُوَحّد ضمنياً بين التجار، الرزق هو ما يجذب المشترين لحانوت من المجموعة وليس السلعة.

الزبون الأول ككل فجر من نصيب العم مرزوق، لا أحد يتدخل في القسمة، لكن الزبون الأول ينقاد دوماً وبتدبير قَدَري للعم مرزوق:

«مسبحة فيروز إيراني...» تَلَقّى العم مرزوق زبونه باستبشار، لم يقايض على الثمن، أخذ ما دفعه الزبون دون أن ينظر فيه ودسّه في الدُرج. حين جاء الزبون الثاني يطلب مسبحة فيروز لم يتردد:

«أنظر جاري...»

تَحَوّلَ الزبون لحانوت الجار رغم تكدس الفيروز لدى

مرزوق، بعد قليل حين يجيء من يطلب مسبحة فيروز سيُحَوّل لحانوتٍ ثالث، وهكذا حتى نهاية مجموعة حوانيت المسابح. الكل يحترم طقس الاستفتاح، حتى يظفر كل حانوت ببيعته الأولى عندها تُطْلَق حركة البيع، يُباح للزبائن الوقوف بأي حانوت شاؤوا، يتحرك الرزقُ بحُريّة يُكيّل هنا ويشح هناك بلا حساب.

لم ينتظر سَنَد ليرقب أكثر، وجدته خاتم يأخذ بيدها، لم تعرف أين يقودها، عرفت أنها بسبيلها إلى خفاء ما، محظور ما.

بصمتٍ أنسلّ بخاتم عَبْرَ المسعى، ودخل زقاقَ الصاغة، ومن هناك لدكان شيخ الجواهرجية محمد علي، لم يخطر لخاتم قط أن تتجوّل في تلك الأزقة الضيقة، غاية ما يبلغونه هو واجهات الصاغة التي تخطف البصر بحُلِّيها وجواهرها، هذه الخلفيات المعتمة محظورة مناجمها على الجميع، زادت ضربات قلبها، شعر سَنَد بقلبها في راحة يديها التي في كفّه، زاد تدفق الدم في عروقه، مالت بشرته من ذهبها لأرجوان، من حجرِ الدم صار جسده، وواصل التقدم، خلف الدكان سحبها لتدخل من الباب الواطيء، اضطرت للانحناء لتدخل الدهليز الذي يقود للقبو الهابط في جوف أرض المسعى، من جلسته على الكرويتة في الدهليز رمقهما الحارس عيدروس الأسود بجثته المهولة، لم يعترض سبيلهما، جلسة عيدروس على تلك الكرويتة لا تتبدل، لا يغادرها إلا وقت الصلوات، يتوضأ وينتظر يُلَمّعُ سوادَه حتى يغادر آخر عامل، عندها يغلق

الباب الخشبي القديم بالقفل، ويتجه مع نداءات الإقامة برفقة سفر ياقوت للحرم، يصلي في أقرب بقعةٍ للمسعى، ثم يرجع قبل الجميع ليفتح، يجلس يتملى في الداخلين أكثر من جلوسه للحراسة، إذ ليس غير أهل الحِرْفة مباح لهم دخول الدرب.

اجتاز بها سَنَد أربع درجات للقبو، فجأة وجدت خاتم نفسها في مكان شحيح الضوء، ست أتاريك مضيئة حول المكان، الضوء قوي لكنه لا ينجح في كشف سر تلك الفسحة من وقت وجواهر، في ذاك الضوء الشحيح لمعت أعينٌ على خاتم ثم تلاشت، أحاط بها رجال بعيون مشقوقة يقطعون بحدة أبصارهم في قلب الجوهرة، شعرت بتلك الشفرة تقطع في قلبها ثم تُخَلِّيها مُهْمَلَة، وهجٌ يطلع من آلات صياغةِ الذهب، وهجٌ من توق الذهبِ لاحتواء الجواهر، وهجٌ يطلع من بطائن الشخوص المعتكفة هناك، يجاوبه وهجُ قلب خاتم. عاد الرجال لعملهم دون اعتبار لهذا القادم، سفر ياقوت وحده هز رأسه مؤنباً سَنَد، لكنه أيضاً لم ينطق، كان سَنَد مصمماً على أسر خاتم في ذاك العالم، في تلك العيون المشقوقة، أراد لعينه أن تَنْشَقَّ وتقطع في جوف خاتم، أراد في نفس الوقت لو تغادر وتتركه وحده مع الحجارة التي تعرفه ولم تغمض عنه قط، ليس كما فعلت خاتم مؤخراً. شعرت خاتم برغبة سَنَد في الخروج بها، لكنها تمردت، تركت يده، تقدمت، خَلَّت كل ماحولها وتركزت ببصرها، بقلبها، بقالبها في عين سفر ياقوت، عرفت أن الكلام محظور هنا، لأن لغة

قاتلة تسري في المكان، لغة خلق، لغة شق لأرحام وتوليد، لغة تخليق، صارت تكرر لنفسها لغة القتل تلك حتى بدأت أسنانها تصطك، أطبقت عليها بشدة، خطوط فكها تحددت مقطوعة كما لو من تلك الحجارة، انتقلت الرعدةُ لأطرافها، شَعَرَ بها سفر ياقوت فكفَّ عن جلي الحجر أمامه، كانت زمردة خضراء بحجم عقلة الابهام، توقف ولم يحد ببصره عن الزمردة، شعرت خاتم بالحرج، جاهدت لتُخرس كلَّ أطرافها، حتى جريان دمها أخذ يتباطأ حتى وصل لمرحلةِ خَدَرٍ لذيذ، استجمع ياقوتُ جِدَّتَه، حوله كانت عيون الرجال ماضية في الحجارة تحدد المسالك التي يسلكها الذهب حولَ الأجسادِ الكريمة، تُحَدِّد الأفلاك المؤهلَة لتبجيل تلك الجواهر دون انهيارٍ أو إخلال، تُطْلِقُ النارَ من صوبِ والمَبَارِدَ وشفراتَ الألماسِ بحسابٍ.

تَقَدَّمَ ياقوت وقادَ سَنَد وخاتمَ لحجرةٍ سفلية، تهبط من ذاك القبو لقبو جانبي، هناك كانت الحجارة الخام، حجارةٌ من سِرِّ عشقِ الشيخِ محمد علي للكريم في أكمامه، تلك الحفنة هي لُبُّ ثروة شيخ الجواهرجية، جاء بها من مناجم بآخر الأرض قبل أن يتناولها مبردٌ أو فضولٌ لتتفتق وتزهر. لم يسبق لسَنَد أن هبط لتلك الخزنة، تناول سفر ياقوت من الحجارة المعتمة الملبدة بالشوائب وعَرَضَ على الولدين، قال:

«هكذا تطلع الكريمة من جوف الأرض محجوبة..»
تأملت خاتم في الحجارة منها لجسد المُعَلَّم، تحركت عيناها

على ظهره المنحني مثل خطاف، يبدأ الانحناء من أسفل الكتفين ويرسم مع رقبته تقويسة عجيبة يختمها الرأس الساقط كمن يتأهب لغوصٍ في قاعٍ، المسافة بين الكتفين ونهاية الرأس الساقط أطول من المعتاد في الأجساد، تكاد تعادل المسافة بين القدمين والكتفين، شعرت خاتم أن ذاك الجسد لن يتوازن طويلاً سيهوي بخطافه لأعماق الأرض، يبلغ القلب الذي تحتجب فيه الحجارة الكريمة، يبلغ وجوه الحجارة الصقيلة وراء كل قناع».

حَدَّثت نفسَها:

«هذا جسد لا يرفع بصره للسماء ولا للوجوه... جسد لا سماء له لا وجه غير الحجر...»

تركها سفر ياقوت تتأمل فيه، كان يتشاغل بتلمس تلك الأجساد المستورة بطبقاتٍ من الزمن والصمتِ والعماء، وحده يُبْصِر ما يكمن في الداخل، كان ذلك ترسه الذي يحميه من نظرات الفضول، مثله مثل حجارته هو أيضاً مطمور تحت طبقةٍ من هذا الجسد المُتَحَوِرِ، وحده الغارق أبداً في عوالم الحجارة الخفية، فإذا انفكَّ عنه السحر طلع مثل مارد قاطع.

تساءلت خاتم دون أن تنبس بكلمة: «تُرى كيف ينتصب، وما سيُبصر؟ ترى كم يبلغ من العمر؟» قطعاً الكثير، عمر كفيل بطيٍّ هذا الجذع كخطاف، إلا أنه يَظَلُّ بلا أثرٍ لتجعيدة مثل حجرٍ صقيل.

هتف سفر ياقوت كمن يقرأ مباشرة في القلب:

«هذا ما تعطيه العروش الكريمة، حين تخدم في بلاطها تُسبغ عليك من جلائها، من قدرتها على التجلّي، كلما جَلَوتُ حجراً تَجَلَّت بقعة من جسدي، أكتشفُ لجسدي ذاكرة كونية، ذاكرة مثل مرآة لا شيء يُفلت منها ولا ساكن يشيخ فيها، نظرتها عُلويّة كُلّية، تعكس حقيقة الزمنَ بكامل استدارته، من بدءٍ لبدءٍ يتجلى في خيالاتها، محبوس أنا خيالُ تلك المرآة / المملكة، ولا عرش لعطبٍ في مسامي، السلطان للدورة/ للذاكرة الكلية، وحدها مملكة الحجر لا تُؤدي جزيتها للعطب، وإنما لتلك الذاكرة التي تكتنز ولا تفنى...»

كان سفر ياقوت يُحَدِّث المملكة حوله أكثر مما يتوجه للصبيين، لم تعِ خاتم ولا سَنَد ما قاله لكن رهبة هيمنت على المكان من صوته، لم تَتَلَقَّط خاتم المعنى بقدر ما انشغلت بتَلَقُّط ذلك الإيقاع القَدَري الأبدي المصيري بصوته، لم تأخذها الكلماتُ بمعانيها وإنما بوَقْعِها، إيقاع اعترافٍ وكشف، إيقاع روح تلفظ أنفاسها للدخول في موسيقى كونية يتشاركها ذاك القبو والمسعى فوقه والحجارة التي لم تخلع جلودها بعد ولم تُسفر عن قلوبها، لم تتعرف وجهاً غير وجهها الأزلي/ مرآتها/ مملكتها التي يحاول سفر ياقوت الإفصاح للعتم عنها.

لم يفهم سَنَد من كلام سفر ياقوت إلا أزلية معشوقته الحجارة، فهم أنه من الصعب حتى على المقربين حبس سفر في عمر، دوماً يكرر لسَنَد ما يقوله الآن لخاتم:

«إن جوف الجوهرة مثل متاهة، إن سلكت من غير بصيرة انهارت على رأسك وتقوضت وقوضت جسدك وفرصتك في كشفِ عروشِ تلك المملكة المخفية».

شعر سَنَد بغيرة أن يمنح سفر ياقوت خاتمَ في لمحة ما منحه إياه بعد أيام من الرفقة، هو الشغوف بالأحجار، هو الذي أتقن كتمان هذا العشق هذه المملكة حتى عن خاتم، ها كتمانه يفقد أهميته وقد فضح سفر ياقوت كل سِرّ، الأسرار كان يجب أن تَبقى له وحده هو الذي لم يتخلف مذ اكتشف هذه المملكة منذ خمسة أعوام. ليس من حق ياقوت أن يمنح من شاء من مملكتهم، شعر برغبة في التوقف وللخلاص بمملكته من هيمنة خاتم، فجأة كان يتحرك خارجاً دون أن يعتني باصطحاب خاتم، وهذه المرة لم تتردد خاتم، خرجت وراءه تاركة خيالاً في مرآة بحجم الأرض التي تسير عليها وقُبَّة السماء التي تعكسها، كل خطوةٍ تقطعها تقع في جسد ذاك المارد، تَنْضَمُّ لإيقاعه الذي يتداخل بكلٌ وجهةٍ تنفتحُ أمامها، من تحت قدميها كان الإيقاع يصعد، إيقاعٌ علوي حاوية مَسَاقطه لكل ما شذَّ وانسجم، إيقاعٌ من مزيجِ شذوذٍ وتَوَافُقٍ ليخلص لموسيقى كُلِّية تخلب فلا يفلت منها حي ولا ميت، جمال أو قباحة، الحياة والموت/ الأبيض وسواده/ نغمتان تتداخلان بعنفٍ يُهَيِّجُ كوامنَ خفيةً بتلك الموسيقى الكونية. وراءهما بقي سفر ياقوت مفرغاً غائباً في حُجُب حجارته.

* * *

لم يلبث الشيخ نصيب أن قَبَّلَ الحجرَ الأسود وخرج من دائرة الطواف، جلس في الحصوة يتأمل الحمَامَ وهو يرسمُ مَطَافَات صاعدة في سماء الكعبة، كان غائباً حين قاطعه سلام شيخ الجواهرجية، لم يدخل الشيخُ محمد علي المطَافَ بل اتخذَ مكانَه إلى جوار الشيخ نصيب، شعر نصيب بالحاجة في نفس الجواهرجي، إلا أنه لم يسأل ولا الجواهرجي تَعَجَّلَ فَتْحَ ماجاء بشأنه، جلسا في صمت يتأملان الطائفين من طير ونورٍ وبشر، مرَّ بهما اليمني بائع الزمزم بدوارقه المعلقة على ظهره، دورق جاهز للصبابة في يمناه، وطاسات النحاس المتراصة في يُسراه، وبالمصطكا يفوح ويسبقه لعطش الشارب، صبَّ في طاستين وسقاهما، ألقى كلُّ شيخ بمافيه النصيب للزمزمي وأكملا جلوسهما بصمت، غادر الزمزمي سعيداً بحصيلته، سعادة لايقدر على اثارتها غيرُ ريِّ الأعيانِ، حين قامت الصلاة وقفا جنباً إلى جنب وانتظم حولهما صف المصلين يصلون الظهر، حتى أتما الصلاة، ألتفت محمد علي شيخ الجواهرجية لرفيقه:

«ابنكَ يا شيخ نصيب، أقصد سَنَد، يقصدنا كمسحور، عينه من عين أهل الصنعة، قلبه من قلوب الجواهرجية، أشعر بهذا في وقفته بحانوتي كل يوم. . .»

«لكنه يتلقى العلوم على يد شيخنا مستور في ركن الحنفية. . .»

«ولدينا علم ينتظره، كما أن عشقه جليّ للصنعة، وهذا قد يأخذه لبعيد، ثم يا شيخنا في الأصل كل العلوم أغصان ترجع لجذع السدرة، بعضُنا يتعلّق لها بكلمة، والبعض بضربة مطرقةٍ أو بشَقَّةِ طريق. . .»

«ربما كنت على حق، تعليمه أمانة في عنقي، والشيخ مستور اشتكى لنا مراراً من انصراف قلب سَنَد، لطالما قال لي: ربيبكَ يجتهد، لكن اجتهاده لا يبحر به بعيداً في علومنا. . .»

«هذا لأن قلبه في بحرنا. . . وكما لا يغيب عنك فإن بوسع الحجارة الكريمة أن تحمله لعروش وعروش. . .»

بعد صمت أكمل شيخ الجواهرجية بأسى:

«هذه علوم نخزنها عادة لنسلنا، نكتمها في الأصلاب ونصبُّها لقُرَّة عينٍ، لكنني كما تعرف أنقطع مائي في ولدٍ وحيد أخذه السفر، رَحَلَ وراء الحجارة في أرض الله ولم يرجع. . .»

فَكَّرَ الشيخُ نصيب، ما الذي يمكن أن تقدمه الحجارة الكريمة لربيبه يُعَوِّض عما يقدمه الشيخ مستور، مستور له

علاقة بعلوم الظاهر بينما الحجارة علومها الباطن، كيف سيتقدم سَنَد في تلك المجاهل وقد فشل إلى حد ما في سلوك الظاهر، فشل مستور في حشو رأسه بأحوال الممالك والمسالك، حتى مستور نفسه لا يمكن أن يتقدم في الحجارة، مستور رحّالة قضى شبابه في الزوايا وبيوت العلم، لم يدع كتاباً لم ينبش فيه ولا تضاريس لم يَتَقَصّ خرائطها وعمرانها، واستمر يحرق شمعة إبصاره بلا هوادة، ثم أستقر حين أتم فَقْدَ بصره في مكة يُعَلِّمُ أولادَ السادةِ علومَ الأرض. لكن شيخ الجواهرجية نظرته مثل الألماس ثاقبة، وتُلْقي بضوئها على وجه ربيبه، يعرف أن سَنَد سيَتَنَوَّر تحت يد هذا الشيخ، يعرف أن طريقه مسدود في حلقة مستور الأعمى. عكس خاتم التي تتقدم في علوم مستور بلا مشقة:

«خاتم يسترجع من كتاب مفتوح بقلبه» هذا ما قاله مستور عنها. وهذا يكفي، ربما يجب أن يرسم كلٌّ طريقَه الخاصة، ربما لا يجب أن يكون من نسله أكثر من علاّمة.

ليلتها حين انفرد الشيخ نصيب بربيبه وأبلغه قرارَ تحويله لحِرفة الجواهر تقوض الهواء في الدار، فرحة سَنَد ونشوته صارت تجول مثل إعصار، شعر سَنَد بجسده يشتد مثل حجر، عرف أن الزمن واقف أمامه ويتأمل فيه، يتنفس في وجهه لآخر مرة، كمن يقول:

«هاهو حجر يخرج من تحت مِدكي، ها مرآة تَتَلمذ لتمسك بحلقة افعواني. . .»

* * *

ذلك الصباح الأول الذي يفترق فيه سَنَد عن خاتم، كانت قد عرفت بقرار أبيها، الأمر الذي لم تعرف أَأَفْرَحَها أم سَلَبَها بطانة حميمة ظَلَّت ملفوفة على قلبها مثل حرير، شَعَرَت لكأن حبلاً كان يربطها لهذه الضفة قد انقطع، لكأن مرساة رُفعت وتركت سفينتها حائرة على الماء، أيُّ هَبَّةٍ كفيلة بحملها بعيداً، شعرت بأن ذراعيها غير راغبتين في جذب حبل تلك المرساة، الحبل الذي تركت لسَنَد دوماً أن يجذبه، لكنها رغم حيرتها وضياعها شعرت بنشوة تَتَمَلَّكَها من إيقاع سَنَد، إيقاع جارف مبهور يُرسل شحنات قوية متتابعة، تتلاحق فيتلاحق معها جسدك. تَنَفُّسك، نبضك، إيقاع ينغلق بصاحبه عنكَ وينفتح، في تقلصات تشعرها خاتم آخذة بجوفها. هو أيضاً شعر بسفينته تقلع في اتجاه لا يعرف أين يقوده، اصطفاق البابِ بآخر الدهليز زاد في اضطرابهما، راح وجاء يحفر في الجدارِ كما في رَقْصِ شماتةٍ. الحيرةُ رافقتْهما على دروبِ الجبلِ في صمتٍ، تجاوزا العم برمك بائع اللَّنْقَطة، وعرّجا على باب ابراهيم، لم يشعرا برغبةٍ حتى في اختلاسِ نَزْلَةٍ لبئرِ زمزم لاستراقِ رَشَّةٍ أو شَرْبة، سارا بصمتٍ مخترقين أروقةَ الحرم، عند ركن الحنفية تركها سَنَد لحلقة الشيخ مستور الأعمى، سَلَّمَ على الشيخ واستأذن في المغادرة، ربت الشيخ على كتفه وقال:

«حلقتنا لم تُثْرَ قط بالأجساد، روحُكَ يا سَنَد لم ترافقنا يوماً، وعسى أن تجد لها في الجواهر سفراً يُحييها، الحرفة ستر للرجل في دنياه وآخرته، بارك الله لكَ» قبل أن يغادر

سَنَد أخذَ بيد خاتم وأسندها لقلبه، كان يخفق مثل حمامة على مذبح، ألقى بيدها وغادر صوب المسعى، ومن هناك لحانوت شيخ الجواهرجية والقبو.

لا يعرف كيف تم استقباله هناك، وكيف انتقل ليد سفر ياقوت، أفاق حين كان سفر ياقوت يضع في يده ياقوتة كان يجلوها على صفيحة فضة بالجَزْع المُكَلَّس والماء، سقطت الصفيحة من يد سَنَد، كان يرتعد بتوقٍ عجيب، حين واجه جسدَ الياقوتة الرقيق شعر بالخوف، شعر بالحجر كمن ينظر إليه بِتَرَقُّبٍ، بتحذيرٍ أن يَمَسَّ منه عِرْقاً، كل ذلك النهار تركه سفر ياقوت يتأمل في الياقوتة، بقي السُنْبَاذَج مرذولاً جانباً مع صفيحة الفضة. في مرحلة جاء سفر ياقوت وأبعد الحجر الكريم، اصطحب سَنَد للخزنة السفلى حيث كان مع خاتم من قبل، وهناك بدأ بتعريفه أسماءَ أحجار الياقوت وأصنافها، لم يتناول سَنَد قلماً ولا ورقة، كانت أسماء الحجارة وألوانها مكتوبة هناك في صدره، كانت غافية وكلما ناداها سفر ياقوت أجابت وتجسدت مثل تطهيم داخل رأسه. تَعَجَّب سفر ياقوت من حافظة المتدرب، وحين أمسك بالعدسة ـ لتأمل الفروق الأدق المُمَيِّزة لكلِّ حجرٍ وكلِّ صنفٍ ـ صحا قوسُ قزح في صدره ومنه تغرف الحجارة، قوس بالألوان قبائلها وتدرجاتها التي لا تُرى بالعين، كلها هناك في قلب سَنَد، بدا جلياً افتتان سفر بحجره الياقوت، وكان يتناول من خزنته ويصف للمتدرب:

«الياقوت علقة من دم أبينا آدم تَخَلَّقَت على هذه الهيئة

المشعة، وحجارته كما البشر، التفضيل فيها على شدة الصبغ وكثرة المائية والشعاع.» للحال لاحت لسَنَد حمرة شَعْرِ خاتم، هذه الأعلى رتبة، أكمل سفر ياقوت:

«الياقوت كما أفاد مولانا التيفاشي على قبائل أربع، وهي حسب علو مراتبها وعراقة دمائها كالتالي: أحمر، وأصفر، واسمانجوني (أزرق أو بنفسجي)، وأبيض.

كل قبيلة حسب تدرجاتها على أربعة أفخاذ، فقبيلة الأحمر بأفخاذ سبعة:

الرماني: وهو الشبيه بحب الرمان الغض، الخالص الحمرة، الشديد الصبغ، الكثير الماء، أتعرف كيف تميز لونه؟ أنظر...»

تناول صفيحة الفضة التي خلاها سَنَد، ثم أخذ بخنجر صغير فضرب بخفةٍ في عرقٍ من عروق يده وقَطَّر على الصفيحة، قطرة هوت بنقاءٍ قانٍ على الفضة المجلاة، لون من القلب ويخطف... هتف سفر ياقوت متأملاً في ذاك الخطف البديع بنشوة:

«ذا هو الرماني.»

ثم مضى يعرض عليه ياقوتة بهرمانية، شديدة الحمرة بلون البهرمان. ثم أرجوانية ظلَّ يتأمل فيها لا يُطيق أن يُخليها على الصفيحة ولالعين سَنَد، قال مسحوراً:

«هو دمٌ محظور على السوقة، يميز المُلْكَ والملوك، دم جمري، يتقد في حامله فيتوجه على العروش الروحانية.

الياقوتة الجمرية لا يتقلدها إلا ابن نار، متمرس على الحرق أو تحرقه هباء.»

ثم تناولَ ياقوتةً قَرَّبَها من شفتيه، على وجنته، كمن يشربها بحواسه، قال لسَنَد:

«لو قَطَّرنا لحمك، القطر النقي قبل أن يَشوبه ملح، طلعت ياقوتة كهذه. هذه اللحمية قَطْرُ حي...»

مضى سفر ياقوت يتأمل فيما صقل من أجساد اليواقيت، كأعمى يسترجع بكفيه تفاصيل معشوقته، تحدث عن البنفسجي، ثم الجلناري المشوب ببعض صفرة، وأنزل طبقات الأحمر: الوردي المشوب ببياض. قال:

«أما قبيلة الأصفر فهاك أفخاذها الثلاثة.» وألقى على الصفيحة بأحجارٍ ثلاثة:

«الرقيق وهو قليل الصفرة، كثير الماء، ساطع الشعاع.

والخلُوقي وهو أشبع صفرة من الرقيق.»

انسلب سَنَد للحجر الثالث الواقف يرمي بالشرر والماء، تبع سفر مهوى عينيه وهتف فخوراً:

«هذا الجُلَّنَاري سيِّد الأصفر، أين من صفرته صفرة الخلوقي، أين من روحه روح الرقيق، هو عرش النور والرواء. تَحَرَّى شعاعه الذي يكسف كل شعاع وماءه الذي يَمدّ في كل ماء...»

ومضى سفر يقدم له أصناف الاسمانجوني بأفخاذه الخمسة: الأزرق، واللازوردي، والنيلي، والكحلي،

والزيتي، توقف بقبيلة الأبيض، قال:

«هي على فخذين: المَهَوي نسبة إلى المها أي البلور، والذكر، وهو أثقل من المهوي وأقل شعاعاً وأصلب حجراً، وهو أرخص جنس الياقوت.»

فتنت سَنَد قبائلُ اليواقيت، فجأة شعر بشوق لخاتم، أن تسترق معه غطسة في هذا الكون. بينما سفر ياقوت يصف ويعرض عليه تلك الأجناس، عثر سَنَد لخاتم في قبيلة الأبيض على إجابة، ملجأ من نَصْبَتُها الحائرة بين دنيا الإناث والذكور، هذه النصبة التي شاءها بلا رأفة الشيخُ نصيب، اختزن لخاتم ما قاله سفر ياقوت، حدَّث نفسه أن ليس لخاتم أن تتسول في عالم الذكور بعد الآن، بوسعها أن تخلع بلا وجلٍ هذه الهيئة الأثقل والأقل شعاعاً والأصلب حجراً والأرخص. تخلع القُضْبَ الأزرق للأبد. هي الياقوتة البيضاء. أكمل سفر ياقوت:

«أما القدماء فكانوا يصفون بالياقوت الذكر ما ضرب لونه إلى النيلية، وبالأنثى ما دانى لونه البياض...»

فيما تلا علمه سفر ياقوت كيف يرصد ضعف الحجارة:

«كما تراقب الضعف في نفسك، التي قد يشوبها النمش الذي كالكدر والغيم يشوه ظاهرها، أو تشوبها الحرمليات، تلك الحجارة الدنيا التي تشوب الشعاع، أو قد يطغى فيها الرَتَم حين يفيض طين الجسد على نوره ومائه فينكسف، أو قد يغزوك التَفَث، التي كما الصدوع في زجاجة الروح تُشظي صاحبها وتبتلع قواه.»

ثم توغل به لقياس حمرته:

«شوائب الصبغة كما شوائب نقاوة الدم، تختبر بالشدائد والنار، حيث لا يثبت على النار غير الحمرة ويزول ماعداها، وتبقى هي خالصة، ومتى زالت الحمرة بالحمى فليس بياقوت...»

قبل أن يغادر سَنَد تأمل فيه سفر ياقوت قبل أن يقول:

«ياولد، لاتقل أثقلتُ عليكَ، حين يكبر المتدرب لانعود نُحَدِّثُه هكذا، حدثتكَ لأنكَ مبتدىء، لكونكَ في موقفٍ إذا فاتَ لايعود، في موقفٍ كما أول الوقوع في العشق، حين يكون العاشق تجسيداً لوحي معشوقه، ذاك المؤهل لتلقي الخوارق عن المعشوق.. بعدها تتضبب الحواس بالإِلْفِ، ويُهتك السر، فلا يعود من سِرٍّ يُسَرُ...»



ليس أثقل من قلب خاتم هذا الصباح ويميل بها صوب دنيا الحميم، صوب المحظور القابع بتقشف الجبل، دون أن تنطق بدأت بالانسحاب من حلقة مستور، تراجعت حتى أسندت ظهرها للعمود، التقطت أنفاسها ثم توارت بالعمود، ثم انسلت بصمت بلا نظرة للوراء، قطعت الطرق وحدها لأول مرة، لا هلال ولا سَنَد يُحَفِّزان خطوَها، صوتٌ داخلَها صَحَا ليقود. في غيبة كانت تسرع الخطى، تركض، حتى انتهت هناك، دفعة واحدة توقف قلبها عن الدوي، كان حد المسجد، حد الحظر وراءها لا يبين، كانت في قلب المحظور.

قادتها قدماها لضفة الحميم تلك، حولها صمت لكأن الحميم يترقب خطوها ويَتَقَرّب، يستدرجها بهوة الصمت تلك، من بعيد جاء صوت أنغام من النشوة تشد قدمي خاتم لا تعرف أين، لكنها وجدت نفسها في دحديرة العساس أمام باب فناء الشيخة تحفة، وقفت تتنصت من وراء الباب، كان غناء يهطل كما من السماء:

«يــاريــح قــولــي لــلــرشــا   لـم يزدني الورِد إلا عـطـشـا
لي حبيبٌ حبه وسط الحشا   لو يشا يمشي على رمشي مشا
روحه روحي وروحي روحه   إن يشا شئتُ وإن شئتُ يشا»

سحرها الصوت القادم من وراء، تحرك كامل جسدها فشق الباب بصمت منجذباً لبلوغ نبع تلك النغمات، صارت خاتم واقفة بوسط الفناء، أمامها على مصطبة كانت الحلبية زرياب وحدها جالسة منطوية على العود تداعب أوتاره وتغني، سَكَت الغناء وبقيت تراجيع العود تملأ قلب خاتم بأمواجٍ لم تعاينها قبلاً، شيء داخلها صار يتدفق ويجيش ويحملها، وقفت مسحورة تنتظر بقعة البلل حتى انتبهت لوقفتها الحلبية، الدهشة التي طفت على وجه الحلبية تلاشت، خَلَّت العود وقامت، دنت من خاتم بابتسامة تقطر عذوبة، شعرت خاتم بجسدها يتصلب للغطس بتلك الضحكة، هتفت العازفة مرحبة:

«ياهلا، أنا زرياب الحلبية، أنتِ البنت التي جاء بها هلال في ثياب صبي وأنا البنت باسم صبي؟ أجئتِ للعمل هنا؟»

هزت خاتم رأسها بالنفي، لم تعرف كيف تقول لها أنها قد جاءت للعود، للغناء الذي لم يهبط بعد في هواء الفناء. ضحكت الحلبية:

«إن جئتِ كزبونة فلقد أخطأتِ الدحديرة، الزبائن هنا من الرجال فقط.»

الحمرة التي فاضت من أطراف خاتم لم تفت الحلبية، شَقَّت وجهها ابتسامةٌ جذابة أعجزت الحلبية عن الطلب إلى خاتم أن تغادر المكان، هتفت بصوت أبح:

«ملعون أبو اللي مايقلب الدحديرة على العساس، ماعاش مَنْ رَدّك، تعالي..» بابتسامتها التي ازدادت خبثاً قادت خاتم، تورات بها في الحجرة الأخيرة، شهقة الحلبية التي طلعت من الحجرة وشَقَّت سكينة الصباح لم تُفسر قط، لكن جسد خاتم خرج من دنيا العماء لدنيا الألم، ذاك الألم الخاص، ذاك الممزوج بشيء لم يعرفه جسدها من قبل، أشبه بالغطس في بركة ورد بلدي بأشواك مُذَوَّبَة، ورد بأشواق، والطلوع ببقعة البلل، بقعة الشوق الحراق.

* * *

فيما تلى من أيام كانت خاتم تجيء العود، لا تطيق البعد، وعين زرياب تتبعها بنظرة أثارت الريبة في قلب شيخة الدحديرة، نظرة كما نجمة في لحظة نشوة متواصلة، ضحكة الحلبية صار لها رنين ينافس صوت العود في الدحديرة، كل شيء اكتسب خفة حول زرياب، التي لم تتردد، في خلال زيارة خاتم الثانية، أن انفردت بها في حجرتها كمن يُعد لسِر، جردت خاتم وأجلستها مفترشة الأرض العارية، كان الوقت ضُحى، راحت وجاءت بالعود ووسَّدته لحِجْرِ خاتم، شهقتُها شَقَّت عذوبة في قلب زرياب، حين لامس الخشب حيوية الجسد انطوى بجسد خاتم، كمن تَلَقَّى جنيناً لجوفه، صارت شرائح الجسد الخشبي تنحفر بجلدها مثل نقش،

خشب الزان والبقم يشرخ أنفها، كل حيويات خاتم انصبَّت لحوضها متمثلة لجسد العود، تناولت زرياب أصابع خاتم المسلوبة بالرهبة، وقعت بها في ضمة لعنق العود، ارتعد الجسدان في توافق، برفقٍ فَرَّقَت الأصابع على الأوتار المسبوكة من حي، هتفت بصوتٍ أقرب لتنفس الهواء:

«المسي الزير...»

مَسَّتْه فاستجاب جسدها لذاك الحد الرفيع المنصوب على هوة العود، مَرّت بيسراها مثل طيرً على أهداب خاتم، أغمضت، حَرّكت تحت إصبعها الوترَ، حَرّضتها على مداعبته، «أوصدي عينيك وأُذنيك، أنصتي بإصبعك، وقولي: أي أطراف جسدكِ يهيج لهذا الوتر؟»

حين علا نغم الزير شعرت خاتم بعصارات جسدها تجيش، وتُهَيِّج معها العناصر النارية، يصحو في جسدها صيفٌ حرّاق، يَتَصَبَّبُ العرق على نحرها، وتشعر به يسري بجسدها فيبسطه على قُبَّة البروج الجهنمية من السرطان مروراً بالأسد للسنبلة، في جسدها سماء من ذروتها حتى مغربها، وقابضة في تلك السماء على زمنٍ تشتد ظهيرته فتحملها لحدود مغربه، يقبض جسدها على شباب مشحون بقواه الجاذبة، كل من يعبر من طيرٍ ونور ينجذب لعريها المنطوي على العود. أفاقت خاتم من ذلك الوتر، طلع وجهها مثل بدر.. أرادت أن تهتف بزرياب:

«أنا من القمر بدره...» لكن زرياب كانت منسلبة لهيئة خاتم، ولا مجال لكلام.

مضى زمن اعتادت خاتم فيه الخروج لضفة الحميم، تعلّمت ضرب العود عل يد زرياب الحلبية. بعدها فقدت خاتم كل لغةٍ لجسدها غير لغة العود، وحده العود قادر على وصل بقاعها ووصلها بالآخرين، أدمنت الفرار للدُحديرة، تهرع للعود، وزرياب تقودها للتخاطب مع جسدها دون وجل، تقول منه الأعمق والأفدح.



في شوقٍ للكشف نَقَّلت إصبعها على وتر المثنى، وهذه المرة لم تحتج خاتم لسؤال، شعرت أنها قابضة في أنغامه على دمها وما يحويه من الهواء والصبا والربيع وما تحت سلطانه من البروج من الحمل للثور للجوزاء، وبكونها منبسطة بجسدها من نهاية غربها لطالعها، وبكونها قابضة على الزمن من طلوع نصف فرس الشمس لتوسطها للسماء. مضت أصابعها تداعب المثنى كعائدٍ من سفر، غاصت أصابعها في الوتر بمعرفةٍ كراجعٍ لماء، لكأن الأنغام غافية بإصبعها تنتظر الوصل بآلة لتقول.

انسلبت زرياب لسلاسة أصابع خاتم على الأوتار، للمعرفة القديمة بين الجسد والجسد، استغرقت في نغم نقلها مع خاتم للشعور بأن كلٍّ منهما غفل، معجونة بحداثة وبراءة لا يضاهيها بدءٌ. أفلتت مخيلة خاتم، شطحت وحملتها فوق الحقائق، لاشيء منها يهم، أغرقت زرياب وغرقت في نعيم غفلةٍ لا يدانيها شكٌّ أو تَكَلُّف. طلعتا من ذاك النغم كهلال مضفور بوتر العود، يتطوح أينما تطوح المثنى.

شعرت بإصبعها ينساق من تلقائه للبم، ما أن مَسَّت ذلك الوتر حتى نقلها النغم في خواتم الزمن، أرسل في جسدها الدبور والماء والشتاء من تربيعة القمر لمحاقه من الجدي للدلو للحوت، شعرت بأنها في ذلك النغم تشيخ، منساقة لما في الشيخوخة من حلم وسكينة، أفزعها ذاك البرد فرفعت أصابعها عن الأوتار كملدوغ، لكن جسدها لم يُطِقْ مفارقةَ جسدِ العود.

«هذه الطريق المصنوعة لقلبٍ من حجر. .» كلما وقع بصرُ خاتم على هلال رَاوَدَتها هذه العبارة، لا تعرف تطلع من أين، تشعر أن بوسعها أن تنحني لقلبها تلبسه كخُفٍّ وتمشي على جسد هلال، يُخيفها أن تطأ بقعةً منه دون حصن، دون دَرَّاعةٍ تلم جسدَها من قَتْلَةٍ في تلك الطريق. يعرفه جسدُها، ذاك الطريق يتهددها في كل لمحةٍ / في كل نظرةٍ في كل غيبةٍ بالخطف. يتهددها جسدُها حين يتعرف على خيوله الجوامح في جسد هلال، تشعر بحاجةٍ لخفٍ مثل جذع نخلة، يغرس شوكته في كل خطوة للصاعدين، جذع لا يهاود ولا يهادن، وحين تجلس لعودها وتُحننه تخشى مَرَّة هلال، لو أمسك بها في ذاك التَجَلِّي الرهيفِ لما نَجَتْ، تشعر بالموت في كل جلسةٍ لعودها معرضة لطَلَّة هلال، ترتعد مع كل نغمةٍ تمر وفي أذيالها وعد ظهوره، خطرُ ظهوره. . . تَتَجَرَّدُ بعودها وفي تَرَقُّبِ الوحشِ تَرِقُّ حواسُها لا يفوتها حي، تلقط الزمنَ في عينِ طائر، في لمعةِ حشرةٍ تعبر الفناء بلا آخر، تضمُّ

لإيقاعها زَمَّة شفتيّ هلال المطوية غضباً فوق غضبٍ، غضبٌ كمين يسكن هذه الشفة، مستعراً من نارٍ باطنية، تؤججها الزبانيةُ بوجوهها غير المسبوقة في العنف والأبالسة. . . تغني ومن قلب أغنية تطلع لها مخابئ من الطفولة، مخابئهما في اسطبل بيتهم، دوماً كان هلال مسكوناً بالرغبة في استراق السمع لما يدق في جوفها، لما يُغَنِّي فيها حتى قبل أن تبدأ الغناء، مسكون بِتَلَقِّي تلك الأغاني التي لم تتعلمها في قلبٍ أو كتاب، كان يَجُرُّها بين السروجِ والبرادع المزخرفة بالقصب، يُلقيها على ترابِ الاسطبل، يحسر ثوبَ الأنثى عن ساقيها ويمرغ فخذيها في التراب، ثم ينصت لصوت جسدها، يُوسِّد رأسَه بين قدميها، يضع قلبَه على بقعةٍ في باطنِ راحةِ القَدَمِ ويُنصتُ، يسمعُ كلَّ دَبَّةٍ يخطفُها قلبُها / كلَّ شرودٍ يُغيِّمُ على الحواس. . . وحين تفلت منه يستدرجها بطبطاب الجَنَّة، الحلوى التي تطبخُ أَمَةُ جِنِّها بالزنجبيل، يدسُّ كسرةً من طبطاب الجنة بين شفتيها، ويُسند أُذنه لشفتيها، يُنصتُ لذوبان السُكَّر وطقطقةَ الزنجبيل على حلماتِ اللسان، يَتَتَبَّعُ الطقطقةَ والسُكَّرَ في جريانها لبطانةِ العُنق، وللقلب، يقول إن قلبها (مع الخُطَّار جناحه فضة وقلبه نار)، يهمس في عتمٍ عتمها أن قلبَها يُغَنِّي. كانا يتبادلان الإنصات، أُذنها لشفتيه وشفتاها لأُذنه، وما بينهما كان دوي الأغنية الصغيرة، أغنية من كلمتين، قلبٌ وقلب، بذات الأحرف تتطابق وتفترق في عنف الدوي وجهة رحيله، تشقهما تُشقيهما تلك الأغنية دوماً هو للفتك وهي للفرار،

تلك الأغنية الصغيرة تستحوذُ على إيقاع الإسطبل، كما تستحوذ الآن على الجبل، تُحرِّضُ حيواناَتَه على الإفلات للوحش، تجفل حتى أكثر الحمير والدواب أُلفة، كلُّ مُرَوَّضٍ يستوحش ويطلب الوحش، في تلك الأغنية الصغيرة تدخل الحيوانات وحجارة الجبل القاسية وتربته المنغرسة في فخذيها، وأخشاب سطول العلف، وروائح البلد الحرام، والخاتم الذي لا يُباح فيه الصيد، كلُّ حي يجمح لحتفه، لا حتفَ يُرسَم من صياد... تدخل تلك الأغنية قلبَ خاتم وتوصده عليها، تدخلُ قلبَ هلال وتفتحه على توقٍ بحجمِ دائرةِ الحرم، بحجمِ الإيقاع المخفي في مركزِ الكونِ ذاك، إيقاعٌ تَتَتَبَّعُه الأحياءُ بالصلوات، تَتَتَبَّعُه بالتوقِ، كلُّ توقٍ يهوي ليلحق بالأغنيةِ في قلبِ هلال، قلبٌ من جهّنم، جهنمُ تأتيها كلُّ القلوب المسكونة بالمحرَّمات، الطائعة في العصيان، المنفلتة المكرسة للعذاب، لا مكان لقلوبِ الشبهات في قلبِ جهنم، هذا الذي له زفير يشق جوف خاتم، ويقول هل من مزيد... لا يشبع من تهييج تلك الأغنية. يُوَحِّش أصواتها ولا يرتوي. أغنية من ماء نار، ملوحته كاوية لا تروي بقدر ما تُوْرِي الحميم...

لم تعرف تلك الصغيرة كيف تُوْقِف الأغنية، كما لا تعرف الآن كيف، تَظَلُّ تتسلقها وتأكل منها، تُفَكِّر بينما عيون الحيوانات مُنْصَبَّة عليها، وحجارةُ الجبلِ غارقة في لحمها الحي:

«أنا طبطاب جَنَّة، وقَدَمُ هلال زنجبيل.»

خطواتٌ تركض، تتبعثر على الطبطاب الرقيق، أينما وَطِئتْ تركتْ غباراً يلهث في الصدر، وأثارت زوبعةَ زغبٍ حرّاق، على مؤخر عنقها تطارد خاتم ذاك الزغب، تُمَسِّده فلا يلمحه فزعُ سكينة ولا فضول شارة أو حماية سَنَد. . .

تلك الأغنية كانت قد أُوصِدَت ببابٍ في دهليز أبيها، لم يصمد الباب للوقت، وهاهو العود يجيء الآن فلا يدع من بابٍ قابل للقيامة بقلب أغنية، كل شيء ينهمر الآن يجرف وخاتم ترجع طفلة مسلوبة بقلبِ طوفان.

* * *

تلك الليلة سيُفْتَحُ بيتُ نصيب لاحتواء عرس ابنة جيرانهم. هذا يوم تتأنث فيه خاتم، قضت الصباح مع أمها وزوجة الجيران خديجة، قصدوا الشريفة فاطمة زوجة الجواهرجي، لاستئجار مجوهرات للعروس، بيت الشريفة فاطمة في جبل أجياد ويطلّ برواشنه على الحرم، بيت من بيوت الأشراف العريقة، حين انفتح الباب للدهليز باغت خاتم مشهدُ السلاملك، فرعي السلالم الشاهقة التي تلتف على الدار صاعدة بها، وقتها كان الشريف صاعداً بجواده حتى مجلسه في الطابق الأول، انتظرت النسوة حتى خَفَّت الحركة وصعدن لما فوق، حيث يلتم ذراعا السلالم ويلتقيان في صعدةٍ عريضةٍ تأخذ لرحابة السماء، ثم لا تلبث أن تنشطر لتقود لمجالس النسوة.

دخلت خاتم خلف أمها، تتأمل كل ما يمر بها من ذاك البيت العريق، أقواسه شاهقة، عن يمينِ وشمالِ كلِّ بابٍ من أبوابه مرايا تُحلِّق للسماء، تُضَعِّف النقش على الجدران

وأخشاب السقف، شَعَرَت خاتم أنه بيتٌ يطير أعلى من كل بيوت الجبل الشاهقة، بيت بأقدامه في الأرض وجسده في السماء، شعرت بجسدها يطير ويستجيب لتلك المساحات التي لا ترجع. جلست في محرمتها وصديريتها، بينما الشريفة لم تكف عن الكلام والترحيب وإصدار الأوامر للجواري في نفس النَفَس:

«أنستونا، على بيتنا نور... يا شارية الشاي، يا بخيتة المعمول..» وللحال جلست الحماة الشريفة حفصة لنصبة الشاي المبسوطة على الأرض يتصدرها السماور، هتفت الحماة باعتزاز:

«أنا كَيِّيفة شاي، لا أشرب شاياً من يد أحد، لا يُكَيِّفني غير صنع يدي...» الشاي من مهام السادة في البيوت الكبيرة، وبمهارةٍ أوقدت السَمَاوَرَ، وبدأ بخارٌ رقيقٌ يصعد ويحاول التعلّق بسقف الحجرة وعيون الزوار، فناجين الشاي المُحَزَّمة بالذهب، مصفوفة على الأرض تغوص في مفرش التُل، الملاعق المذهبة غارقة في مطبقية السكر الشفافة والمنقوشة بطيور خرافية، أكملت الحماة الطقس لآخر تفاصيله، كالت من الشاي الجاف وصبت عليه الماء بمقدار كمن يُحَضِّر أخلاطاً سحرية، أو هو في سبيله لتحويل ذاك الشاي لذهب، حين انطلقت الرائحة ملأت المجلس بأرواح خفيفة، أرواح تدور بالمزاج، بعناية كالت السكر وصبت الذهب، فناجين من ذهب وفناجين من زمرد النعناع الخالص دارت في الصواني، راحت الجواري وجئن بصواني الشاي،

وتدخلت صواني الغُريبة والمعمول بالتمر.

طوال الوقت ظلّت عينُ خاتم معلّقة بالعود القائم مستنداً للجدار وراء نَصْبَة الشاي، عود قديم ألوانه مجبولة من ملامس أيدي العازفين، أخشابه غَنَّت مالاحصر له من الأحلام ورَجَّعت نشوة السُمّار. عينُ الشريفة حفصة لم تغفل لحظةً عن قلبِ خاتم المعلّق للعود، ترشف من ذهب فنجانها الرقيق وترقب.

ثم أُذن للجواهر أن تدخل المجلس، ذهبت الشريفة فاطمة وعادت بالعلب المبطنة بالمخمل، فتحت وعرضت:

«موية ألماس، مشبك بسبع أشواط من أهلة اللولو...»

عرضت وخديجة تتشاور مع سكينة وينتقيان ما يستأجرانه لتزيين العروس.

استغلّت خاتم انشغال النسوة في الانتقاء وتسللت لما وراء نصبة الشاي، برهبةٍ مَدّت يدها، وعين الشريفة حفصة على اليد والعين الأخرى على بدائع عُلب المخمل، رفعت عينها عن العود للشريفة حفصة، تجاهلت الشريفة نظرتها وتشاغلت بتجديد ماء السماور، شعرت خاتم بالعود ينفرد بها ويجذب.

رؤوس النسوة انشدّت دفعة واحدة طالعة من غرقتها في الجواهر، انتشلها صوت العود، المشهد الذي تلقاهم أخرس سكينة، كانت المرة الأولى التي تسمع فيها عزف ابنتها على عود، حين صمت العزف وعت خاتم العيون المصبوبة

عليها، ابتسمت الشريفة حفصة واستجابت الوجوه لابتسامتها الآمرة، كسرت الصمت المخيم على الرؤوس:

«هذا عزف بنات الحور، تبارك الله. . .»

لم تُجِزْ سكينةُ جواباً لسؤال الشريفة فاطمة عمن عَلَّم ابنتها الضرب على الأوتار، تلعثمت، تدخلت الجارة:

«خاتم يا حافظ بنت أُنس، كل ما تسمعه في جلسات الأُنس ينتقل ليدها ويطلع طرباً، بدأت تضرب على النقاقير، والآن. . .» صمتَ الحديث.

قلبُ سكينة لم يرجع لعُلب المخمل، كل حواسها مجتمعة لجسد ابنتها، تلك التي ظَلَّت تحتضن العود لا تُطيق إفلاته. مرَّ الوقت كدهر على سكينة، تنفست الصعداء حين قامت الشريفة فاطمة تودعهن. التفتت لخاتم تأمرها أن تتبع حين نهضت الشريفة حفصة، دفعت العود ليد خاتم، جمد الدم في عروق سكينة، توقف الزمن حول خاتم، هتفت سكينة:

«يا ستنا الشريفة، أبوها. . .» قاطعتها الأخيرة حاسمة الموقف:

«هذا عود كان لجارية يمينة، أعتقناها وزوجناها، أخذها الزوج من العود، خذيه يا خاتم فالوتر مشتاق. . .»

حاولت سكينة، لكن خاتم التصقت بجسدها لجسد العود أكثر وأكثر، كانت واعية بأدق تفاصيله: سقيفة العاج على عنقه، خشب الليمون، شرائح المهاجوني، المتداخلة بالزان، سقيفة الأبنوس، الأوتار من جوفٍ حي.

لم تعرف سكينة كيف رجعوا بتلك الكارثة، لكن تَشَبُّثَ خاتم بالعطية أَعْجَزَها، التصميم في عين خاتم ألجم سكينة، بل أفزعها، لم تعرف كيف توبخها، لم تعرف كيف تشطر جسد العود عن جسدها المشدود مثل سيف، لم تجد غير الاستسلام. أخفوه في عباءة سكينة، وتسللوا به للمبيت العلوي، هناك أخفته خاتم.

خروج خاتم من مجلس الشريفة كان أشبه بخروج طير من ريشه، لم يخرجها من تلك النشوة غير مشهد المغنيات في فرقتهن عن يمين ريكة العروس، أنغام العود تلهج على مويات الألماس ومشابك الياقوت والزبرجد والعشرين شوطٍ من عِقد اللؤلؤ الساقط ليستريح بحِجْرِها، صدر العروس مثل رخ يعلو ويهبط تحت المخدة المرشوشة بالحلي، أهلة اللؤلؤ ساقطة على أذنيها، كانت الأنغام تطلع من ذاك البهاء، وخاتم مسلوبة، جسدها مشدود مثل وترٍ ويُرَسِّلُ أنغامَه لتمسَّ من بهاء العروس، تنزلق عليه، تغرق...

قضت خاتم الليل غائبة تُرجِّع كلمات الطرب، حتى أفاقت بدخول القرين على عروسه، كل المكان تحجّب بالمحارم التُل والحرير الرهيف، تجنبن عينَ الداخلِ، تحرّك العروسان بين صفين من ضاربات الدفوف (الزَفَّافات)، سود وصفر وحمر:

«صلوا على...» وعلت دفوف، دفوف مبحوحة، بين العويل والنشوة الشريرة، تقطعها زخَّات الزغاريد، ومداخلات الأصوات الحادة:

«الصلاة والسلام عليك يا رسول الله محمد...» صيحة تعقبها زخة من الزغاريد، بدأت على أثرها أم العروس تبكي، وتبعتها قريباتها، طقس البكاء مقصود للإشعار بقيمة العروس وعزتها في أهلها، وجدت خاتم نفسها محبوسة في ذاك الطقس من عويل الدفوف والزغاريد وصيحة الصلاة والسلام على رسول الله محمد، شعرت بالعروس كما قُمرية بين مخالب صقر، كل جسد خاتم تصلب بحنقٍ تجاه الصقر المنفوش الريش في عمامته اللاس وثوبه الأبيض وحزامه المقصب، كانت دموع خاتم تجري، شهقاتها قاطعت الطقسَ وصبغته بمأساوية حقيقية أحرجت حتى العروس، تكالبت عليها أنظارُ النساءِ المحيطات، علا الحرج وجه سكينة، أسرعت لابنتها تصد سيل الدمع ذاك:

«إنها دموع فرح، يكفي يا خاتم...» وخاتم تشهق بما لا تعرف، شيء أقرب للذعر وللاستحواذ والفتك و... لا تعرف ماذا، كل جسدها تاق لاختراق الصفوف وحمل تلك القمرية بين ذراعيها والفرار بها للأسطح، وشهيقها لا ينقطع كلما نهضت أجسادُ النسوة المزركشة حائلاً بينها وبين القمرية، كل العيون على تشنجات وجه خاتم، وسكينة لا تملك أن تصد عنها، في لمحة كانت خاتم تركض، ألقت برقعها على وجهها وغادرت لدارهم، في الطريق ألقت بمحرمتها ومدورتها، وتاقت لثوبٍ من بياض ثياب الرجال يلمها، لا تعرف كيف تسللت وسط ولائم المحتفلين في مجالسهم، وجدت نفسها في الطيرمة الشاهقة أعلى دارهم،

أرادت التعري من ثوب الأنثى ذاك، ألقت الثوب ووقفت عارية بقلب الطيرمة، حولها أتاريك العرس على الخوارج السفلية لاتجرؤ على الصعود، وقف جسدها عارٍ إلا من سراويلها الحلبية وصديريتها، من تحت النسيج الرقيق ـ مثل فنارٍ ـ وَقَفَ جسدُ خاتم يستدعي وحشَ الجبل، شعرت بجسدها يلم كل المسكوت عليه في ذاك التكوين الصخري المترفع عن أرضه، جسد قبر يعمي ويُخرس مايدخله، جسد مقطوع اللسان، مسمول القلب...

حين رجعت النسوة للبيت كانت خاتم في سروالها الحلبي وصديريتها ملمومة لعودها، كانت على يقين من أن بنت الجيران قد سيقت الليلة وتحت أبصار الجميع لمذبح، عاودتها لمحاتٌ لوجهِ القرين، وجه مدور مثل شمامة ويفوح بنفس الحلاوة، وجه محايد، لكن حياده مثل مستنقع. خَيَّمَ عليهن وجهُ العروس، ذاك الوجه المحاط بأهلة اللؤلؤ، وجه نحيل يتحرك بخفة في المكان، بعينين تشقان الهواء بفضول، مثل ذاك الفضول يفتح الطرق الموصدة، لكنه فضول يغرق مثل حجرٍ في شمامة وجه الزوج...

في السر أقسمت خاتم: ألا تُمْنَح لذاك المذبح.

انقضى سابعُ العرس، وحين اجتمعت النسوة في خارجة البيت يسترجعن بهجةَ العرسِ قاطعتهن خاتم:

«لن أدع رجلاً يذبحني على ريكة...»

شهقت سكينة ولطمت بكفيها على رأسها، لكأن تلك

العبارة برقٌ فَلَقَ رأسَها فلقتين، استجابة أفزعت خاتم، حتى الجارية شارة استوقفتها حدَّةُ سكينة. كل من في المبيت أجفلتهم تلك الاستجابة.

العود المخفي صار يتحين خرجات الشيخ نصيب، كلما غادر دارَه طلع العود اليماني وأطرب الخوارج، كل من في البيت تآمر للإبقاءِ على هذه الروح التي حَلَّت بالخوارج، كل الطوابق تعلَّقت لجلسات الطرب المختلسة في الأعالي.

أدمنت الدارُ عزفَ خاتم للعود، مالت البنت الولد للصمت، دخلت في قطيعةٍ مع صوتها، مع جسدها، مع ظاهر لغة الصوت والجسد، صارت تفتش عن صوت أو ثوب أعمق من هذا الصوت والجسد القابلين للتحريفِ بثيابِ أنثى أو ذكر، وانتقل السِرُّ بحذرٍ مُتجنباً مجالسَ الرجال:

«للشيخ نصيب ابنة عَوَّادة ولا أبدع...»

زاد انقطاعها لدحديرة العساس وعود زرياب. الذي يتقدم بجسدها مثل مشعل ليكتشف مجاهله.

* * *

لا تعرف ما الذي استدعاها تلك الليلة للهبوط للفناء، أمامها كان الحارس العم موسى ينحني على جسد مطروح عند حوض الوضوء الممتد بصنابيره بطول السور، أسرعت خاتم مندفعة ولحق بها سَنَد، كان العم موسى يحمل الماء في طاسة ويصب على وجه هلال، أفاق نظر في الوجوه حوله وشقَّت علامات الألم على وجهه ابتسامةٌ ساخرة، بدأ يغني بصوت أبح خفيض:

«يا أيلي يا نونو يا حنون»

تحامل يريد الوقوف، لكن ضربة ألم حادة في خاصرته رَدَّته للأرض، بعينه على خاتم:

«والله يا صغير يا حنون

أمه تسبه وأبوه يحبه»

تأملته، سواده يبرق في بياض ثوبِ الشاش العريض المُحَزَّم بالبقشة، ذاك الحزام العريض الذي يرتديه لاعبو

المزمار، تحامل على نفسه جالساً وضربته موجةُ ألم شديدة، أسرع العم موسى يسنده، انطوى على جسده مبعداً اليد المطوقة لجروحه، مثل عَلَقَة تتلوى على الأرض ويتعفر بياض ثوبه بالتراب، إلى جواره سقطت الكوفية المطنقرة والعمامة الضخمة، بدا لكأن إصابات غير مرئية تغطي جسده، لا يبين منها غير تلك الخطوط العريضة من دم أشد سواداً من خضرته القاتمة، خطوط كما العَرَق الأسود تَنِزُّ هنا وهناك تغطي وجهه ورأسه، لو انقشع ليل جسده لأظهر علامات الكي التي تتركها ضربات الشومة، لكن انتظام هذا البحر من قتامه يجعل من الصعب تحديد إصاباته أو مدى خطورتها، حل العم موسى البقشة عن خاصرته فانبسط الثوب مثل مظلة، أراد أن يقشع الثوب فمنعته حركة حازمة من يد هلال:

«شارد من بابه

الأه ه ه ه» شقت الآهة صدره وبحركة متوافقة مع تلك الآهة انتزع جسده من التراب وقام ناهضاً، أكمل الآهة:

«الآه يانونو ياحنون»

تَمَاسَكَ الجسدُ المصاب وتطوح متجهاً صوب المقاعد، يضع قدميه ويرفعهما بألم عظيم كمن تنهش الأرض من لحمهما، لحقوا به عن بعد، اندس في المقعد البعيد المخصص للخزين، هناك لن يعثر عليه متطفل، وبالذات لن يلحق به غضب والده الحاج طاس. لم يجرؤ أحد على القيام بمهمة استنفار من يسعفه، دوماً يسعى هلال للوقوع في

خوانق كهذه ومكابدتها وحيداً وبعيداً، غالباً ما يختفي هلال لأسابيع وربما لشهور قبل أن يعاود الظهور أشد عنفاً وخضرة كالطالع من قبر، لا أحد يعرف أين يغيب ولاكيف ينجح في البقاء، الألم والتشرد والوحدة عطش لايسكت بصدر هلال، إن تدخلاً هنا لتهديد وحدة هذا الكائن الجريح كفيل بتفجير بركان إبليس الرابض بجسده، وحده العم موسى لم يعبأ، أسرع يطرق باب الحاجة ميمونة، من موقعهما المراقب عن بعد شاهدا ميمونة تهرع مع العم موسى لقبو الخزين، لم يعرفا ما يجري لكنهما قطعاً وجدا هلال غائباً عن الوعي من جديد، خرجت ميمونة مسرعة ورجعت بشارة، كانتا تحملان طاسة بماء وخروق ومراهم تصنعها شارة من شحم الدجاج المخلوط بوصفاتها السرية، حين تجرأت خاتم على الاطلال ومن خلفها سَنَد كان هلال مطروحاً بصدرٍ عارٍ، لسواد جسده شفافية تفصح عن خضرةٍ زيتونية في لحظات العشق والتعب، لا تغطيه غير تجلطات السواد التي تركتها عصي الشومات، تلك الخضرة أيقظت في نفس سَنَد ذكرى حجرٍ وصل اليوم لحوزة شيخ الجواهرجية، حجر من الزمرد الذُّبابي، يشبه الذباب الطاووسية التي تكون في البساتين الخضر، وقيل إن (الأفاعي إذا نظرته تسيل أعينها. . .) أغمض عينه خوف أن تسيل عينيه بحجر هلال، بينما مالت خاتم بجذعها من وراء باب المخزن تستزيد من جروح هلال. شعر سَنَد أن كشف خاتم لذلك الحجر كفيل بأن يُذهب لمحةَ حميمٍ منها، يُصيبها بعمى ما، لكنه طرد تلك الفكرة المزعجَة، وراقب.

بوجهيهما قامت راحتا قدمي هلال، كل راحة تتضخم في مساحة المخزن الضيقة، منتفخة متفحمة طالعة لتوها من فرن، كانت الحاجة ميمونة أحرص من ولدها على إخفاء سقطاته عن أبيه، ذلك الحاج البعيد عن الأرض، رجل منقطع عن ترابه لا يؤاخي غير الكتب، وكل كتاب يحمله في الغياب أبعد، يشف كتاباً وراء كتاب حتى صار سريع القصف، وهي ميمونة تزداد صلابة، لقَرَابة الربعِ قرنٍ عَاشرت رجلاً أخذته لغةٌ غريبة وسافرت به لهذه الأرض مجاوراً، لغة لم تنجح هي في مصادقتها، ولافي هجرها والعودة للغتها الجبلية من عنفوان البانتو، وحين أنجبت لتتوطن هاهو ابنها لم يأوِ لا للغتها ولا للغة أبيه، اختار هو الآخر لغةً تُشَرِّده، لغة الحارات بأعرافها من الشهامة والقتال ورفض الضيم لحد الكبرياء الزائف أحياناً، تشعر ميمونة أنها تمسك بين يديها في راحةِ هواءً وفي راحة حمأً مسنوناً، طاس وهلال، رجل يصدمه طينُ ولده الوحيد ويجعله يتبرأ بعنفٍ من الأرض، أو يُعرِّض نفسه للارتطام بها، هذا الارتطام يحطم قلب الحاجة ميمونة، يهدد الرجلين الوحيدين المنصوب عليهما عالمها.
غسلت المرأتان حروق الكدمات، غطتها شارة بالمراهم، لم تجرؤا على تضميد القدمين، غطتهما شارة مثل أرنبين محروقين بمعجون شحمي وتركتهما عاريتين في المكان.
كلما تأملت ميمونة في هذه الأطراف الممشوقة راجعتْها صيحاتُ وحش كيبو، وعنفوانُ الريحِ في مروحة الجبال التي بلا آخر، جسدٌ في ذروة، جسدُ يلبس الماعزَ الجبلي ويُناطح

المَهَاوي، يلبس القطَّ الجبلي القَتَّال، يلبس مانام بجوف كيبو، يلبسُ الصخرَ ويَنْحَطُّ، عجينتُه مما لا يُقبض ولا يستكين. لا تُطيق النظرَ إليه، وحين تنظر يجرفها ويَنْقَضُّ لتلك الأجراف السحيقة التي لا تبلغ أرضاً قَط، تحتبس أنفاسها، تَزْرَقُّ أطرافها لو واصلتِ النظرَ لذاك الاعصار. بوجعٍ / بحنانٍ أغمضت عينها على تلك الرشاقة التي لا تُطاق.

حين تمت المهمة لم تجد شارة ما تقول، وقفت بيديها معلقتين في الهواء أمامها، تحرك العم موسى مغادراً فلحقت به، لم يتبادلا كلمة، غادر للفناء وهي للطوابق العليا، دون حوار أدركا أن ما شهداه من الأسرار لا يُروى.

حين تركوها وحيدة أمام جسد ابنها لم تجد الحاجة ميمونة ماتقول أو تدعو، حين انطلق لسانها من شلله كانت تتمتم بلغتها الغريبة، تتمتم ثم تلجأ لمرساةٍ من لغةٍ كونية قد تنجح في تسكين ولدها ليابسة:

«الله الله الله. . .»

عاد العم موسى لجلسته الأبدية على كرويتته أمام باب الفناء، حوله خاتم وسَنَد راحا يتحركان بمزيج من فضول وقلق، قال بعجب:

«هلال من مطاليق قعيقعان تجذبه نيران المزمار كطير سراج. . .»

دوماً كان يحكي لهما عن المطاليق، أولئك الممسوسون

بأرواح قتلى قبيلة قاطوراء في حربها مع جُرهم، حرب عتيقة لا تزال قائمة في سِرِّ هذا الجبل، وموتى لا تزال قعقعة أسلحتهم ترن، تلتقطها الأذن حين تتقصاها قبيل الفجر وعلو صوت الأذان...

«صار معروفاً في كلِّ واقعة لتصفية ثأر، لو عرف العم طاس لتبرأ منه...»

الغيظ في صوت سَنَد أزعج العم موسى، رمقه بشك، قال محذراً من مجرد التفكير في الوشاية:

«لو عرف العم طاس لمات قهراً..»

رن صوت هلال في قلب خاتم: «الآه يا نونو يا حنون»

في اليوم التالي كان سَنَد وخاتم يحتسيان شراب الشعير (السوبياء) عند باب الزيادة وقد استوقفهما اسم هلال في الحوار الدائر بين العم عرقسوس وزبونه. بعد أن ناولهما الكأسين أكمل العم عرقسوس حواره مع زبون من أولاد حارة النقَا، تَقَابَلَ الرجلان بحزاميهما العريضين يتناولان كؤوس العرقسوس الكأس وراء الكأس لا يفرغ ويحكيان، قال الزبون:

«هلال الجن جَنْدَلَ عشرة رجال، من زمن وهم يترصدونه حتى طَبَّ البارحة...» الحزام العريض والراء القوية المتلجلجة شارة المعروفين (باولاد الحارة) أولئك المتطوعين الذين يدافعون عن أهالي الحارات ولا يتورعون عن القتل في معارك المزمار، تأمل سَنَد في بنية الرجلين

الضخمة، أكمل عرقسوس شامتاً:

«هلال هذا بلاء، يمشي وراء نار المزمار في الحارات، في كل حارة له ثأر. . .»

أفاض الآخر باعجاب:

«البارحة كانت وقعة عجب، عشرة مطاليق أوقعوا به في مزمار الشبيكة، وعلى عينك، هلال معجون بموية جن، جرَّ الشومة على الأرض بوجه المطاليق ووَلَّعَها، طارت شومته وجندلت الرجال، العزاء منصوب في الحواري العشرة من جوفة غيلم والقرارة وكداء وجبل السودان والعبادي للمعلاة، مطاليق نشامى يرقدون الآن بجراح قتالة، وهلال ولا مالت عمامته على كوفيته المطنقرة. . .»

أرتفع صوتُ ولد النَقَا يردد أغنيةَ المطاليق:

«رجَّال وأحمي كلامي وسكينتي في حزامي»

هتف عرقسوس بمزيج من ضيق واعجاب: «حوالينا ولاعلينا. . .»

انتشر مذاق الهيل بالخبز المنقوع في حواس خاتم، انتابها مزيج من حماسة وضيق:

«لما حاصروه وطأ النار ما هاب، سقى شومته الدم. . .»

«هذا ولد موت، لو سكت المزمار انضم لأول ثورة وطلب الدم. . .»

تعلقت تلك الجملة مثل نبوءة على رأس الرجلين وغَيَّمَت على رأس خاتم وسَنَد، صارت للهيل لزوجة الدم

في حلق خاتم، اعترتها رجفة من ذاك الوصف (ولد موت).

لأيام ظل هلال مطروحاً في مقعد الخزين، عاري الصدر منتفخ القدمين، وكل يومٍ تزداد حروقه قتامة، إيذاناً بقرب انقشاعها، تتماسك خضرَته رويداً رويداً كمن يتقوى بتلك الأوتاد من ألم. لم يجرؤ أحد على الاقتراب من ذلك المقعد، فقط شارة والحاجة ميمونة، كانت تحرق السكر مع الزنجبيل وتبسطه في الصواني لينصقل في طبقة رقيقة شفافة، تَكْسِرُ كِسَرَاً من طُبْطَاب الجَنَّة وتدسُّ في فم هلال، تحرب النار بالنار في محاولة يائسة محاولة طفولية لتستحلب ريقه، تستحلب ذكرى طفولته عَلَّه يَرْجع الحمل الوديع الذي كان، تعرف أن هلال ومذ كان طفلاً يعشق طُبْطَاب الجنَّة، أرادت لذاك الفأل أن ينبسط الآن ويشمله بجَنَّته وطُبْطابها.

في اليوم الخامس حين نهض ليغادر كانت صدمة، انخلع قلب الحاجة ميمونة وراءه، غاب صوتها، لم يسعفها لتوبيخه أو حتى مناداته، همست تستعطفه أن يبقى، بلغتها الأقرب للقلب، وتختم استعاطفها المُهْدَرِ بالدعاء: «ياهادي يادليل...»

وشارة تتدخل وتستعطف:

«يا ولدي قلب أمك وقلوبنا ذابت عليك، وانتَ تنام في موت وتصحا في عدو، يا هلال ما ناصرك غير رضا أمك، بالله يرضى عليك خليك حتى تطيب، لا تخرج من قلبها كده خروج جنازة، فَرِّحْها بخرجة عريس...» حين واراه الدرب غادرت الحياة أطراف ميمونة.

غاب هلال بعدها ربما لشهر أو يزيد، انقطعت أخباره حتى تأكد لميمونة موته، وسكن قلبها الصمت، ثم صارت الأخبار المتفرقة والمتناقضة تأتي: بأن هلال قد ظهر في مزمارٍ ببستان الزاهر، وعن دمه الذي شربتْ منه شوماتُ مكة ويَتَجَدَّد مثل سواني العرقسوس، أو أنه ظهر في ضفة الجبل المحظورة بجروح حيث قامت بنات الشيخة تحفة بتطبيبه، كل الأخبار تجيء بجروح لهلال، جروح تفتح في جسده أو تغلق على أيدي الخارجين من طينته، جروح أكبر من رقعة جسده بكثير، جروح من معارك على رهان خاسر، أو معارك على سيادة المعابر بين الحارات، أو معارك المزمار التي قد تشتعل بلا سبب غير فيض النار في عروق أولاد الحارات، إلا أن كل الأخبار اتفقت على الرجوع بخفة شومته وفتكها، ليس مثله من يضرب بالشومة، يجدونه في كل معركة تصفية حسابات.



خاتم لم تكف تهرب وتعاشر العود عند زرياب الحلبية، العزف على النقاقير جاءها بالفطرة وبلا عناء، أما العود فيشعرها كما العائد لذاته، للصمت الذي يتنغم داخله، للمحاولات المضنية لترجمة ذاك الذي لا يُتَرْجَم. والشيخ نصيب لا يعرف إلا أن خاتم تهبط كل صباح لزواية الشيخ مستور الأعمى تتعلم القراءة وعلوم الأرض. بينما خاتم سابحة في علوم تلك الأنغام التي لا تحطّ بأرض. صوت خاتم يسحر، حين تبدأ بالغناء تنسل إليها كل بنات الدحديرة، وتتكوم تحت قدميها زرياب الحلبية التي عرفت عنها مالا يُعرف وكتمت حتى عن نفسها ما تعرف.

تقول زرياب الحلبية «العود جسدي..» يهمها أن تأخذ خاتم لحكايتها، أن تحبسها فيها بأن تعيدها على مسمعها المرة تلو المرة، ترجع لما كان وتسوق أمامها خاتم كمن يتشبث بذاك الحور الضارب في البهاء، الضارب في النعيم المندثر، كمن يحتمي بتاريخ فوق تاريخ الدحديرة:

«قبل أن آتي هنا كنت في بيت له شجرة حور، وحولنا تدور الفسيفساء بالأروقة التي تدور بفناء من الدلب والحور، كل ذاكرتي مملوءة بغَزَل العود للحجارة القديمة، غَزَله للفسيفساء في حَمَّامنا المفتوح بكُوَّاتٍ ضيقة مُسَيّرة بالزجاج الملون، كانوا يمشطون شعري في الحَمَّام بينما العود يلاغي الظلال الملونة على الأرضيات المبللة، لا أستطيع رفع عيني للجدران، لأنها تدور من الطرب، تخرج الفسيفساء عن جدارياتها وترقص حتى أدوخ. . . لذا أُبقي عيني مشدودة للظلال الملونة، تلك تحاكيني بلطف، وتتوزع على جسدي مثل يمامة. . .» نظرت خاتم إليها مسحورة، هبطت بعينيها للذراعين المكشوفتين، للعنق تفتش عن هديل اليمام. أكملت زرياب بنشوة: «في ذاك الفناء وتحت تصفيق ورق الحور كانت سجادة أبي مبسوطة دوماً، على تلك السجادة أبي علمني أنا والحور كيف نُلاغي العود، قال: العود يُعطي المُحَنِّن ويَحْرِم المُسْتَنْطق، بعضهم لا يُجالس الآلة وإنما يحبسها كما في جلسة تحقيق، لذا تضطرب بين يديه، تنفر وتتلجلج. . .» يسترخي العود في حِجْر خاتم، تتأمل زرياب في ليونة طية الجسد على الجسد، تتأمل بافتتان كيف يميل خشب الليمون والزان للجريان في اللحم الحي، تقلد صوتَ الأب «خَلِّي جسدك للعود، رَفَّة الوتر رَفَّة وريد. . .» تكمل، «كان يُخيفني، أنهمكُ أعزفُ وفجأة أجده يقبض على أصابعي، يخطفها عن الأوتار ويقول: أصابعك مغموسة في وريد. . . حَنِّنيها! يُحَدِّق في قلبي ويغوص بالتحنين، كل

عروقي ترتعد وتعزف، حين أمسك بالعود لا أعود أعرف أينا يُغَنّي أوتاره أم عروقي. . .»

ظَلّت الصورة التي تركها حديثُ زرياب مُعَلَّقة في الهواء، تتناقض بشكل حاد مع تقشف هذه الحجرة الضيقة المتربة، أثاثها لا يزيد عن حصيرةٍ بتقليم حائل الحمرة، تتنافر في عتاقتها مع وقاحة تنجيد فِراش القُطن الجديد المتصدر الحجرة يحتل كل مساحتها، مِرْفَع الشِرَاب في الركن يتشارك مع العود في توزيع الطراوة على ساكنة المكان وقاصديها، هنا تتجمع حياة زرياب مُنْتَهَكَة ممن شاء، كل من يدخل يطوي عود زرياب ويداعب أوتارها، كل من يملك ريال فضة لامن يملك اللغة التي تحنن الوتر ليُجيب على الوتر، حتميةُ الصورةِ قَطَعَت كسكينٍ في صدر خاتم. وحده العود يرفع الحجرة عن الأرض، عن قبضة المشترين، عن التعب والطرق المسدودة والدحديرة التي تقود دوماً للأسفل مكشوفة لكل أحياء مكة. . . .

علاقة غريبة قامت بين خاتم وزرياب، محورها العود، انطواء زرياب للعود يشعر خاتم بالإقصاء، بالنفي، فتتملكها غيرة، وحين يلاغي العودُ أنامل خاتم ويمنح من أوتاره لجسدها يتملك زرياب الحسد، تشعر لكأن الأوتار تغوص في جسد خاتم وتبعث النغم من مكان سحيق لا يبلغه غير الصمت، متاهات من الصمت تحول بين زرياب وبلوغ تلك البقعة من روح خاتم، كلما نأت خاتم تلتمس لها زريابُ الأعذارَ، تُحَدِّث نفسَها بأن خاتم من أنهارٍ انقرضت، من

آلات الحياة، تلك التي تطلع منها النفحة التي تسبك الجسد وتُعيد تخليقه، خاتم ممن يمنح الآلة أكثر مما يعرف كيف يمنح البشر. . . مثل هذه الأفكار تُدخل زريابَ في نفق يأس، تنفرد بها أمزجةٌ سوداوية، لاتطلع منها، حتى تنظر لخاتم بعين الشفقة، تتبادلها ورفيقاتها:

«هذا الولد مسكين. . .» تقاطعها دانة القحطانية:

«ولد أم بنت؟»

تسارع زرياب مؤكدة:

«بنت في ثوب ولد، خاتم إنسان، ومثلما خطفونا من أهلنا خطفوه من جسده، نقلوه لجسدٍ لا هو بالذكر ولا بالأنثى. في الأفراح والولائم أنثى، وفي الصلوات ذَكَر، أي لغةٍ يمكن لجسد هذا الإنسان أن يتكلم؟ لو استراح للغنج واسترسل فمن أين يجيء بالرجولة لحمل ثوب؟ أيضاً في العشق: يلعب بالإبرة أم بالكشتبان؟!» لم تعرف كيف تشرح تلك الحيرة في جسد خاتم، هذا الضياع عن الجسد ولغته، جسد محبوس في لغتين حتى صار يبرطم من هذه لهذه، من لغة الأنثى للغة الذكر حسب مناسباتهم، صار للشك في الوجهين، لا هو يستريح للأنثى ولا للذكر، انقلب على الإثنين، لم يعد يعرف كيف يسترسل في وجهٍ ويجمح وهم يُنَقِّلونه في المناسبات التي تريد وجهاً نقيضاً في كل لحظة. ظَلَّت زرياب تنتظر تفاعلاً من رفيقاتها، وحين لم يُعلِّق أحدٌ بقولٍ أو لمحة فهمٍ أو اهتمامٍ، وجدت نفسها منساقة بحنق للاسترسال:

«كلنا ذكر وأنثى، لكن المشكلة في الوقت، متى يُدوزن آلته؟ متى يُلَعِّبها لتشطح في لحنِ الأُنثى، أو بالعكس، متى تَنفلت آلته لتُعطي نفسَها للحن الكامل، الذي تتحاور فيه نغمة الذكر بنغمة الأُنثى في نفس الرنَّة. . .»

استمرت البنات يرقبنها بلامبالاة وبصمت، مستغرقات في عوالمهن الخاصة، وهي تُحَدِّق فيهن ليبلغهن هذا العجز الذي تشعره في آلة خاتم، عجزٌ عن أن تُعطي نفسَها بشِقَّيْها الذكر والأنثى. وأمام إلحاح نظرتها، استجدائها لفهمٍ سارعت دانة تجاملها:

«كلنا أنثى وذكر؟! سامحك الله. . .»

تمطت بجسدها مثل أفعوان، مسحت بدلال على امتداد جذعها، همست «ليس في هذا غير لبن نجم. . .»

تدخلت الشيخة تحفة بسخريةٍ:

«ولد الأكابر مخطوف!! تشيلهم أرض تحطهم سما، يضربوا الرمل يركبوا البابور يرسوا الأكابر ويعملوا نون وما يسطرون، ويا عيني علينا نحن المخاطيف. . .»

تأملت فيها زرياب بحيرة، وعاد يجرفها الكلام:

«كان يمكن أن يضرب الوتر بالريشة ويُغنّي ولا أبدع. .»

اتجهت الأعين لعودها وريشتها، هتفت: «العود أيضاً له شطر ذكر وشطر أنثى، الوتر والريشة، مَنْ الذَكَر ومَنْ الأنثى؟ وجسد العود، هذا الذي يُوَلِّد الألحان، لا هو أُنثى ولا هو ذَكَر.»

شعرت زرياب أنها محمومة وتهذي، صمتت فجأة عن الكلام، وأرسلت صوت العود.

ذاك الصباح حين أطلت خاتم، انساقت زرياب لشعورِ بحتميةِ التَوَحّد بها، انفردت بها وعادت تُثير موضوع اتحادهما في الخطف والضياع، قالت:

«أنا أيضاً حَمَّلَني أبي اسم ذكر، من عشقه للطرب وللأندلسي زرياب سَمَّاني على اسمه، لا يكتفي أبي من الطرب، كأنه عطشان، ولأني وحيدته لم يجد من يُنَوِّع في مناغاته سواي، يرضى عني فيُناديني: يا عود، ياطرب...» عاجلتها خاتم قائلة:

«مِنْ سِتْرِ الله لم يعشق أسحقَ الموصلي...»

كل أحاديث زرياب عن أبيها تشي بالعز، وربما كان الأب من ميسوري حلب، كان في طريقه للحج حين غزتهم حرب فمات دون أن يلبي نداءَ الحرم، زرياب لاتحكي شيئاً عما كان في تلك الغارة، ولا كيف انتقلت للشيخة تحفة، إشارات متفرقة لولائم حضرتها، ولسيدات اجتمعن على عودها محتفيات بالطفلة العَوَّادة، تشير لوجودها زمناً في بيت عائلة مكية مرموقة، ربما بيت إمارة، ثم تختفي معالم الطريق التي تلقفتها بعدها، مرة، وفي معرض حديثها عن حلول زرياب بالدحديرة، قالت تحفة شيئاً عن الشقي مهراس الذي دخل بزرياب عليها مثل جوهرة في تاج....

شعرت خاتم بحنق على ذاك الأب، حنق غير مُبَرَّر،

فكرت أن ضياعه على طريق الحج جاء كعقوبةٍ عادلةٍ، علامَ؟ لا تعرف، تساءلت:

«أكنتِ تطلبين اسماً غيره ورفيقاً غير العود؟»

احتارت الحلبية:

«ربما العود هو الرفيق الذي لا يخلينا، لكلٍّ عمرٍ ولكلٍّ مكان وفي أي مزاج تدخل يلحقك، لايخليني، هو الذي رافقني حتى هنا، ومال بي على محطاتِ فرح ومَيَّلَ، مع أن دربي أبعد ما تكون عن الفرح. . .»

فكرت خاتم: هل يمكن اعتبار العود رفيقاً أم سَجَّاناً عَيَّنَه الأب على الابنة؟ قالت تُحَرِّض زرياب:

«العود رفيق، حسناً، لكن جربي خلع اسم أبيك هذا، ثم تختارين لنفسك اسماً يليق بكِ؟ أي اسم تحبينه؟»

نظرت إليها زرياب بدهشة،كست عينها علامات الحيرة، لم تفهم أين تقود تلك اللعبة، هتفت دون تفكير:

«سنسميني ميسم، أو حلا، أو نَوا أو حجاز كار. . .» ضحكت «هكذا لن يتأرق أبي في قبره. . .» كَرَّرتْ كلَّ اسم، كررته خاتم معها، لاكته، لم تجد سوى الفراغ، لم تعرفا كيف باغتهما الحديث فمال للجدية، شدت زريابُ العود لجسدها، تشبثت به من فراغ تلك الاسماء ودَوَّامتها، هتفت باستسلام:

«لا أظنني أعرف نفسي في اسم سواه»

تَجَمَّعَ غيظٌ غير مُبَرَّرٍ بصدر خاتم، هتفت:

«زرياب؟»

أجابت الحلبية باعتذار:

«زرياب». . . أمام بؤس الحلبية تراجعت خاتم، هتفت:

«معكِ حق، أنا أيضاً تعلقت بزرياب، ولن أعرفك في غيره، إلا لو سميناك بنجكا. . . .»

لحقت وسادتُها وضحكتُها بخاتم للباب، حين غادرت الحجرة تركت خاتم للأسى أن يطفو على ملامحها. لم تستطع أن توجه وجهها لأي من الحجرات المحيطة، لم تستطع أن تنظر إلا في اتجاه باب الفناء الخارجي، ليس غير البؤس مقيم في الحجرات التسع، ليس غير السلع من كل لون وجنس، قلوب معلقة بلقمة العيش التي تجيء مغموسة بالابتذال/ بالطحن اليومي، فجأة طفر الدمع في حلق خاتم، دمع مُرّ يجري تحت جلد الوجنتين والصدغين يهبط الذقن للنحر ويكوي، أختنق صوتها، تسللت مستترة بجدران الفناء متجنبة الشيخة تحفة، من جلستها لنوافذ الروشن بحجرتها شعرت الشيخةُ بالهواء الثقيل المتحرك في الفناء، حسها المرهف مثل حيوان بري هو الذي يُدير لجج المشاعر المتلاطمة بتلك الحجرات، حدس لا يخطيء، يقرأ اللفتة قبل النظرة، يقرأ وبطلاقة موجات الجسدَ المصمت، من حجرتها تستطيع تَلَقِّي شحنات البنات، تعرف تلك التي على وشك الانكسار وتلك التي تَتَفَلَّت وتلك المشدودة مثل وتر، تجبر الكسر وتُحَيِّد الموجةَ قبل أن تستفحل وتخلع البنات من تاجها. لم تلتفت الشيخة، تعمدت تجاهل المتسلل يمين

سورها، ثم على الطريق المغادرة للدحديرة، تنفست بعمق، هذه الفتاة الصبي خاتم عجيبة من العجائب، تترك ضفة النعيم وتأتي لتغرق في هذا الجحيم، ابتسمت:

«لسعدكِ يا تحفة. إنها مثل زير فخار قديم يُرَوِّق ماءنا ويُلَطِّف أمزجةَ البنات..» تُذكرها خاتم بمعشوق قديم، باهر كتالوج، الحبيب الذي سواده طلسم، لعقة منه ووقعت تحفة في عشقه، سواد مسكون بقبيلة طرب، وتسخرت لجنٍّ طَرَبِه، مضى على ذلك الطلسم عقد من الزمان، في زمان العشق ذاك كانت ستنقطع للتَدَلّه بكتالوج وتُغلق الدحديرة، لولا أن ابتلعته أجراف الجبل ذات عتمٍ فلم يرجع، انحل الطلسم الآن، لم يبق من سواد كتالوج في مكة ولا لمحة، لم يعد مثل ذاك السواد يتحرك بين الحيوان والبشر، لكأن حَظْراً تَمَّ في المدينة يُحَرِّم على الأحياءِ مثل تلك الحدة والوحشية، وها حمرة وشحوب خاتم تنافس بالضد، لكأنه غياب الألوان، غرقتها، هو الوجه الآخر لذاك الجِنّ، هتفت طاردة خيالَ كتالوج:

«خاتم ولد فن، لا لوم ولا خطية...»

لعقدٍ من الزمان تَعَمَّدت الشيخة دفن ذكرى باهر كتالوج، وهاهي خاتم تُحيي الكَيَّ، والغريب ان الشيخة غدت تستلذ بالحرق الذي طال دفنه، لم تعد تؤلمها الحكايا التي تقال عن المقهى المتقشف عند جبل ثور، والذي يَتَتَوَّج على كراسيه زنجي فَقَدَ سواده، يُغَنِّي الركائبَ التي لا تنقطع عن زيارة الغار. قالوا إن باهر كتالوج ماسواه هو الذي نَصَبَ

كراسي المقهى وصار يوزع السحلب بالزنجبيل، هذا الذي يحرق قلوب المسافرين كما قلب كتالوج. لم يبق فيه من سواد غير فحم قلبه. مثل تلك الخرافات كانت كفيلة بأن تؤرقها لليالٍ، أخبارٌ تُخيِّم بسواد غيمها على الدحديرة، لذا كانت تحفة وطوال ربع قرنٍ تحرص على قطعها من دحديرتها، لكنها الآن تتلذذ باسترجاعها، ولولا الخوف من مغادرة عرينها لخرجت للغار للتحقق من نار الزنجبيل...

إلا أن روحها تدربت وطوال ربع قرنٍ من الهجر كيف تميل للسلام، حتى ما عاد فيها من نار تنافح نار كتالوج، أحاطت نفسها بالبنات، هكذا تسميهن (البنات)، وتتحدث عنهن بـ «بناتي»، وهن ينظرن إليها ويشرن إليها في أحاديثهن تحبباً بـ (أمنا الغولة). باتفاق ما للأقدار صارت الغريبة المرذولة نَسَباً يأخذها لألوان البشر شتى، كل الألوان التي خاتلتها في الأسود، والتي ظَلَّ يكنزها بغيرته الرهيبة.

* * *

عند باب ابراهيم المفتوح على سوق الصغير وقف سَنَد بصحبة خاتم قبل أن يلجا لزاوية الشيخ مستور بالحرم، كل صباح يقفان بهذا الحانوت الصغير لتناول إفطارهما الثاني:

«يامرحبا بمن حَبَا. . .»

من بعيد استقبلهما العم برمك بائع اللَّنْقَطة مازحاً، وأكملا التحية:

«ومن دَبَا. . .» اختار العم برمك قليلاً من العجينة السائلة، وأخذ يصب في الزيت الحار، تَكَوَّرت حبات اللَّنْقَطة مرسلة رائحتها الشهية التي يسيل لها لعاب المارة، ينسحرون للحانوت بدافوره الصغير وصاجه الغميق وقدر العجينة السائلة التي لا تفرغ، خلف سَنَد وخاتم يتجمع عدد من الزبائن بانتظار دورهم، يكمل العم برمك صب حفنات العجين السائل في الزيت وتتجمع كرات ذهبية بحجم بيض حمامة أو أصغر، يغرفها للولدين في طاسة ويدفعها لطاولتهما الصغيرة، يسارعان لغرف العسل والجبن، ويحشوان كرات

اللَّنْقَطة ويأكلان بنهم، حولهما تنتشر طاولات صغيرة وكراس متقشفة يتوزعها الزبائن، كانت هذه هي المتعة التي يختلسها الولدان كل صباح، حيث تحرص شارة على إطعامهما فَتوت الفطير بالحليب قبل المغادرة، اللجوء لحوانيت الأكل كل يوم يُعيب سمعة مطابخ البيوت العريقة، لكنهما وما أن يحاذيا حانوت برمك حتى تجذبهما التحية المرحة وروائح اللَّنْقَطة والجبنة البلدي المرقَّطة بالحبة السوداء.

تغمس خاتم اللَّنْقَطة في العسل حيناً وفي الشيرة حيناً وتلتهمها كاملة، تسيل الشيرة لذقنها، ويلحقها لسانها الوردي، يذوب السُكَّر على ذاك اللسان، يَتَتَبَّع سَنَد حرارةَ اللسان ويفكر، كل ما في خاتم كما من تَفَجُّرِ الوردِ الطائفي.

تختفي الكراتُ الذهبية تباعاً والعم برمك يرقبهما من وراء ظهره، وبين الحين والآخر يمدهما بدفعة جديدة من اللَّنْقَطة الساخنة، حين يسمحان أخيراً للصحن أن يفرغ يبتسم العم برمك برضى، يغادران ويتبعهما منادياً:

«بلِّغْ سلامي. . .» يقصد للشيخ نصيب، تلك كانت العبارة الوحيدة التي يتبادلونها كل يوم، أثناء الأكل تُنفى كل مداخلةٍ من قلقٍ أو تعب، يتلذذان بالحلاوة على ملوحة في الكرات الحارة والصمت، وحين يغادران تفتح عبارة برمك الحديث من جديد، هتف سَنَد:

«الله يستر مع الشيخ مستور، كل يوم أتوقع فضيحة، لو اكتشف الشيخ غيابك فلن يرده عن عمي نصيب استعطاف ولا رجا، كل يومِ أنا وأنتِ نُهيء لكارثة. .»

تأملته خاتم:

«لا ترافقني اليوم وسأعتذر للشيخ بنفسي، لقد اعتاد شيخنا الكذبة، وكالعادة، أشعر به يستريح لصمتي حيث تزعجه أسئلتي، لا حاجة لوجودك الآن لاستمرار الكذبة...»
شعر سَنَد بضيق، أزعجه أن ترغب خاتم في بتره، هما اللذان لم يفترقا في أمرٍ من قبل، كان لها مثل ظل، يقف ويسند، هتف بضيق:

«تريدين الخلاص مني؟ لو عرف الشيخ نصيب بما تفعلين سيغلق عليكِ في البيت ولن تخرجي بعدها...»

دون تفكير هتفت بضيق:

«لا يهمني ما سيحدث، سأستمر بالذهاب حتى يُكْتَشَف أو لا يُكْتَشَف أمري...»

شَعَرَ سَنَد بعجزٍ، لم يعرف كيف يواجه ثورتها، وجد نفسه منساقاً لإغاظتها:

«أمي دوماً تقول: العناد أساس الكفر...»

رَدَّت بعنف:

«أنت دونهم جميعاً لابد تعرف ما يعطيني العود، فَضَّلتَ الأحجارَ على أخبار رحلات الشيخ وحساباته للطُرق والأسوار واحتفاله بالمقاييس ونوادر الكبراء وتحفهم واغتياله للأسفار، الشيخ يتحرك خارج الأشياء، في ظواهرها، بينما العود يأخذني لقلبها، تحت قُبَّة العود أشعر بين يدي بروح الكون، روح كلية، حين تنطق تقول لي مايهم ويعني ويخلق، تقول

أصول الإحياء، وحين تصمت تُصيب حواسي كلها بالصمم، تلقيني في موت. العود جسدي، هذا الكون الذي يعنيني، أما أخبار الشيخ فأُدركها حين أُدركها، حتى الشيخ لم يشتكِ، دوماً يُتْحِف أبي بتقارير الرضى والثناء...»

لم تكن خاتم لتنصاع لزاوية الشيخ مستور إلا أيام الجمع، والأيام البيض من كل شهر، حينها يعتكف الشيخ نصيب صائما في المسجد الحرام، مما يجعل من الصعب على خاتم التغيب عن الدرس، كما أن دحديرة عساس تغص بالرواد أوقات العطلات مما يجعل خاتم تنفر من الشيخة وسربها في ذاك الزحام. ومع ذلك فإن تواجد خاتم المحدود في زاوية الشيخ مستور لم يُشَكِّل عائقاً أمام التقاطها للعلوم التي يُطَعِّمها بالكثير من أخباره وفلسفته عن الأكابر، الأمر الذي ساهم في تأمين التغطية الملائمة لرحلاتها للدحديرة. أما الشيخ مستور فكان يشفق على تلميذه النجيب ضعفه الجسدي.

يُسِرُّ للشيخ نصيب:

«إبنكَ يُذَكِّرني بنفسي، قوة حافظته وفهمه تأكل من قواه البدنية، كما أكلت معارفي قوةَ إبصاري...»

يتأمل نصيب في خاتم، بينما يكمل الأعمى: «لكَ أن تفخر بإبن كهذا يُضَحِّي ما يُضَحِّي في سبيل المعرفة...»

وكانت خاتم تكتفي بإشعاره بوجودها في حلقته، تلقي السلام وتعتذر عن توعكها، ثم تجلس في أقصى أطراف

الحلقة حيث يمكنها التسلل دون أن يشعر بها معلمها، مما شَجَّعَ رفاقَ الدرس على التناوب في التسلل لنزواتهم والعودة.

كانت خاتم تنفلت كالممسوسة على الدرب الصاعد للحميم، يتحرك جسدها في تلك المَشَاهِد الخارجة عن اتساق الكون في الأسفل، في تلك المنظومة الشاذة كانت تجد ذاتها، كانت كمن تغرف من ذاك البؤس المحيط، ذاك التناغم مع الجبل رغم البؤس وتُحنن أوتارها، صارت كما تقول نسوة الدحديرة:

«ولد فن...»

في ختام ليالي البدر أسرعت خاتم تهبط الدحديرة بعد غيبة الأيام البيض، هذه الليلة كانت زرياب تنتظر كمن على جمر، توعكها بدأ من البارحة، أغلقت غرفتها فلم تستقبل زائراً ولا طالب طرب، والليلة طلعت للفناء ترقب إطلالة خاتم، دوماً يعم فرح لطلتها في الدار المهترئة، حين أقبلت خاتم لم تنهض زرياب، جاءتها خاتم لحيث هي بوسط الفناء، انطوى الجسدان واحدهما للآخر، راقبتهما تحفة بحنان، على تربة الحوش جلست خاتم بجبتها السوداء، ومستندة بظهرها إليها جلست زرياب في قفطان أبيض حلبي، جلستهما مثل هلال، نصفُ سوادٍ ونصفُ بياضٍ يتصل الجسدان ويرسمان هلالاً بوسط الفناء وقلوب البنات، وكلاهما منطوٍ على عوده، والأوتار لا تستريح تختلج وترجف الأجساد المحيطة:

«هـي الـسُـرَّة سُـرَّة لـولـو أما الـباقـي مـا أقـدر أقـولـو»

تطوحت رؤوس الرجال صوب الهلال، صوت خاتم مثل تنفس في الهواء، مثل بُرَاقٍ لم يُروَّض يتمازج بالأرواح ويرفعها، فاضت في الأجساد أشواق محفوفة بأحزان مائية تزيدها حلاوة. كل جسدٍ استرجع ظِلَّه، كل ظلٍّ انطوى لوليفه، وتجسدت هيئة باهر كتالوج أمام تحفة، تماماً كما اعتاد أن يجلس على مصطبتها بفوطته البنفسجية وصدره العاري مثل ليلٍ شارخٍ لقاعِ بحر، مالت تحفة برأسها لذاك السواد فاصطدمت جبهتها ببرودة الحائط، أفاقت لتأخذها موجات الوجد والفقد المحيطة. وجوه الزبائن تُخفي فراغاً، كلٌّ يحضر لدحديرتها بثقبٍ في الصدر، يأخذ من طين بناتها ويرتق، بعدها يتبددون كأن لم يعرفوا للدحديرة من دربٍ، ثم يعاودون الظهور كمن لم يُتقنوا من الاتجاهات غيرها وجْهَة. بعضهم يعتاد هذه الدحديرة التي تترك نفسها للهوة بلا وجل، بلا نظرة للوراء تهوي أو ترقى، بقعة من الأرض تسقط لأي دركٍ شاءت السقوط ثم ترتفع بصوت عودها ومغنيها لشاهق، ما بين سقطة وشهقة تغسل الأجسادَ المحمولة عليها، المجبولة بطينها، تُخَفِّفها من آلامها ومخاوفها وأشواقها.

في لمحةِ ماس صوتُ خاتم ليُبَدِّل الإيقاعَ الشعبي بإيقاعٍ حميم:

«سقوني وقالوا لا تُغنِّ ولو سقوا

جبال حُنين ما سُقيتُ لغنتِ»

تُحرِّكُ خاتم إبهامَها على عنق العود، في هذا الابهام

يرقد الجواب لكل نغم تطلقه السبابة والوسطى والبنصر، حين طلع من الصمت كان صوت زرياب يغني:

«خافق الأحشاء موهون القوى   كلما فكر في البين بكى
ويحه يبكي لما لم يقع»

تَقَرُّب خاتم من جسد العود سَكَنَها بهاجس الزمن، صارت تعتني بحساب أزمنة الموجودات حولها، امتداد حركتها وقصرها، وجواب تلك الحركة، الذي يكمل سُلَّمَها الوجودي، ديوانها الموسيقي، كائن بلا جواب هو الكائن النشاز، هو البعد عن الكمال، وكانت تعرف أن جواب جسدها في العود أو في زرياب ذلك الجسد الذي أينما مسَّته كان وتر ويُرسل نغمة مُغَيِّبة...

كانت تتلقى الجواب في كل شيء حولها، حركة العطر واللون، ثياب بنات تحفة تتلاغى بطلاقة مع الألحان والأجساد التي تُطَوِّحها. أما الشيخة فمثل رسول الحميم: تستقبل قاصديها في ثياب تتناغم فيها الصفرة بالبياض، محبوكة في مسرح حجرتها الذي تتناغم فيه الحمرة بالسواد، تركيبة اللون الرباعية تلك أفتت بها البنتُ التركية، تركيبة من لون وطقوس تُدَرِّسها خُدا ورد المسكونة بتوليف الأنسجة والخياطة، بلغة فصحى تؤكد على الشيخة تحفة:

«من جلستك في الروشن إذا لمحت عيناً من الأعيان يهبط صوبكِ الدحديرة، فلا تقومي إليه باللهفة، ولا تَخِفِّي لاستقباله بفنائك، دعيه يقطع التراب من باب الفناء لباب حجرتك، فإذا أطل تتلقينه من مقامكِ بالروشن، فأول ما

يستقبله منكِ تركيبة الصفرة بالبياض والحمرة بالسواد، فتُحرك القوى الكرمية لديه، فيُغدق ـ شأنه شأن المريد ـ ولو من عدمِ وحاجة. . .» لا أحد يجرؤ فيدخل على تحفة بشُح.

تكرر للداخلين بغنج:

«حَفَرنا دحديرتنا للطَيِّب الغالي، أمانة، بالزَرَى لاتدفنونا. . .»

أما ثياب البنات فعلى نصيحة خُدا ورد:

«الثوب حجاب قُربى أو نفرة، فإن شئتَ القُربَ تَقْرِنُ فيه ما شئتَ الوردي بالصفرة أو السواد بالبنفسج، فإن تم القران فاضت إليه القوى السرورية واللذية، وتمَّ المراد بسلبَ العاشق للمعشوقة».

تتفنن التركية خُدا ورد في استنطاق الألوان لتُجري القلوبَ وما في أذيالها من الأرزاق للدحديرة، تقرن في ثياب البنات القوى وتعقد على جذوعهن الميّاسة:

«إذا اقترن البياض التفاحي في شحوبه بالحمرة هَيّجَ القوى اللذية مع القوى الشوقية. .»

تلقي على كتف تفاح هذه بشال أحمر أو تعقد على حمرة هذه بإزار تفاح، تُوَحِّش الحمرة وتُحرِّض بفصاحتها التركية:

«سَيِّلي دم التفاحي ينصبُّ إليكِ سيله. .» تُرَجِّف كفيها في تتابعٍ يُحرك الهواء والأجساد حولها، «بالأشواق واللذة. .» ما أن تكتسي البنات حتى يفيض كرم تحفة، تلحق بهن، تُطَيِّبهن بقارورة عطرها الوحيدة في تلك الدار، قارورة

تظهر في العام مرة حين يفيض كرم زبون من السادة وتختفي أيام القحط، تُطيِّب وتغرس في قلوبهن ما لا سبيل لنسيانه أو الشك فيه (طلسم خُدا ورد):

«التفاحي يُسَيِّل سيولَ الشوق للدحديرة...» ويلحقها غناء زرياب:

«سيدي ثيابه حرير

وليه ياطير ما عرفته...»

تنصت خاتم وتغرق في المسافات بين الصوت وما يليه، نقاط التحويل تلك، صارت تُقيم في تلك النقاط، نقاط في جسد الصوت وتنويعته، نقاط في جسد الكون الكلي، نقاطٌ بين الكائن والكائن ليقول الكون جملةً متفردة، كل ربطة بين كائن وآخر تقول جملتها الخاصة، كل معنى ما هو إلا حزمة من الأجساد وما بينها من مسافات تتبدل وتنتقل لتكوين حكاية... هذا عشق خاتم الذي فصلها عن عالم بيتها وحلقة الشيخ مستور ومصير رفاقها، لم تكن لتملك ترجمة تلك الحقائق التي تنتابها وتسحرها وتفصلها عن الآخر، كانت تعيها مثل غمامة تُقبل عليها وتحيطها ولا تخليها، غمامة تستدعي غماماً لا يكفُّ يُباغتها بجديدٍ لا يُتَرْجَم، ليس غير العود يُتَرجم هذه الوعي الخارق بالأشياء، هذا المنفى الذي يأخذها ويُغلق على الآخرين في الخارج فلا يبلغونها إلا بالموسيقى، موسيقى نظرة أو لفتة، موسيقى غالباً لا يتعمدونها، لكنها كمينة في صمتهم...

* * *

في الصباحات تَتَصَدَّر تحفة مصطبتها في شمسٍ وهواءِ الجبل بينما حولها تتوزع البناتُ أمورَ الدار، خاتم لا تتخلف عن تلك الطقوس، تجيء فارَّة إليهن، تنظم الإيقاع بعودها، تستشف اللحن في بساطة تلك الحركات اليومية:

في ظل المطبخ المعزول عن الحجرات لليمين جلست صفا خان الهندية تجلو الشِرَاب بكسرة فخار، كلما احتكَّ الفخارُ بالفخار قشع من عتمته، أمام خاتم راحت الاسكندرانية مرام ورجعت تمشط حصى الفناء، تشاكس الجالسة للعود برشات من الماء، بينما جمر كوانين المطبخ يغزو الحواس بأرواحه البرية، تلك مقاطعة المغربية لَلاّ مريام ورفيقتها الحبشية هاجر، تناديها تحفة:

«يا للاّ يا لَلاّ أيه عندك نتسلى. . .» لَلاّ مريام وهاجر موهوبتان في اختراع وجباتٍ من أبسط الزاد، في فيضٍ وشُحٍّ لايعجز المطبخ عن إطعام الشيخة وبناتها، في صباحات الرخاء تشيع الحلاوة التركي من دقيق وسكر، وعريكة الدخن

بالتمر، والكسكس، والحلاوة الشعيرية، بينما في الشح تتسيِّد فتَّةُ الخبز الناشف بالخضار المجففة. يستوقف خاتم إيقاعُ قماقم الخضار المجففة المتراصة تلك، قماقم لامعة من كل حجمٍ تتبدَّل في لحنِ الوفرة والشح على رفِّ المطبخ الشرقي، تصطخب مثل قناديل تتجدد وتتزاحم في الصيف بينما تغيب كوصلةِ صمتٍ في الشتاء وتتناقص. في صباحات الرخاء تجد لَلاّ مريام وهاجر منهمكتين أمام بسطات الخضار، يقلبانها في الظل ويعالجانها بالسحق والطحن وتتكاثر على الرفِّ قماقم مكتنزة بربيع وصيف لتصمد لأيام العوز. لا يكف رقص الإيقاع على ذلك الرفّ وبأمر لَلاّ مريام وهاجر.

اليوم من الأيام الأقرب للشح، المطبخ على قدم وساق يهيء للوجبة الرئيسية المتقشفة (مَرَقَة هوا) ليس مثلها يُسعف في أيام القحط، حيث ينوب البصل والطماطم عن اللحم في خلطة عجيبة، تُغمس بالخبز أو تُشَرَّب بالأرز، حين يجيء خير تحرص المغربية على تطعيم مرقتها بالزيتون الذي يفوح بعنفوانٍ يُجري لعابَ الحجارة.

يمين خاتم تَغَيَّرَ الإيقاعُ، بين يدي الهندية علا صوت النحاس (الصِفْر) يُدلك بالرماد، تكاد أغطية الشِراب تطير بين يديّ صفا خان المسبوكتين من برونز خالص، أغطية مُجَنَّحَة، كل غطاء على هيئة طائر خرافي واقف في حراسة الماء، يطير ويسمح لك فتشرب، تتوجس خاتم من مقاربة طيور الصِفر تلك، لأنها وكل صباح لا تكف ترمقها في خضابها من رمادٍ وتُحَرِّضها، تشعر خاتم بريشة النسر بين يديها كمن تتوق

لوقفة على ذاك الماء، تعرف أن ضربة من ريش تلك الطيور كفيلة بتسييل الماء في أوتارها، يُفزعها هذا الشرود فترجع للفناء وبناته.

من المطبخ طلعت العجمية فرح بطاسة الجمر المتقد وحفنة المصطكا، تشاركت وصفا خان طقسَ تبخير الشِراب، شاعت أرواح المصطكا في المكان وتداخلت بأوتار خاتم:

«لي سيد في الطائفْ،

ولي سيد في القِيَمْ،

والسيد الآخر في الهدا يذكرونه.»

كل شَربة فخَّار تعرف ما ينتظرها، وتخضع لنفس الطقس، تستسلم ليد فرح بينما تقلبها على البخور المتصاعد حتى تطفح، ثم وحتى لا تُفلت منها روح تسارع صفا خان لإغلاقها وهي لا تزال منكسة. تجتمع الشراب ببخورها على المِرْكَن المتقشف في حديد أخضر، يُترك للفخار أن يتشرب أرواح المصطكا قبل أن تُملأ كلُّ شربةٍ بالزمزم أو الماء الذي يتشبع بمذاق البخور الفاتر، بعض الشِراب تُعَطَّر بماء الورد أو الكادي حين تُتْحَف الشيخة بقارورة هدية من زائر، كل شربة لذة على لذة للشاربين.

عن يسار خاتم أرتفع غناء بَرٌّ:

«على وِشْ قال الحميدي وربابته فوق مِنّي

أنا ما عليّه من الناس ولاعلى الناس مني

على ما ليل ما ليلة على ما ليل ما ليلة»

في بقعة من شمس جلست القحطانية الضامرة الكحيلة مثل غزالة، افترشت الأرضَ منهمكة تُلَمِّع زجاجَ الفوانيس بالرماد وتغني، الرماد والغناء وفتائل الإيقاد ذاك عشق دانة اليومي، وأهازيج الهريس تنقلها للمضارب البعيدة، الرماد على الزجاج سحر، كما الطالع من حطب سمر في بر الطفولة البعيدة، يقولون إنها نسلُ قحطٍ وآن، دانة قحطٌ ولمحةٌ من زمانٍ تخطف، معروفة في الدحديرة:

«دانتها في الليل تشع مثل فوانيسها تنادي وتحرق الوارد..»

«على ما ليل ماليله على ما ليل ماليله».

ترافقها أصوات البنات في ذاك الطقس اليومي، من مطبخها يجيء صوت لَلاّ مريام المغربية (ماليله) رخيماً عميقاً كما ريح بقمم أطلس، تتداخل بشموس صوت هاجر الحبشي، بطيئاً من ماءٍ حميم يسري صوتُ هاجر يُمَشِّط الفناء، تُغَنِّي (ماليله)، بينما خُدا ورد التركية تَطْرَب لكن لا تُغَنِّي، لم تُسْمَع قط تُرافق الغناء، فقط يخونها رأسُها فيَتَطَوَّح حين يَجِنُّ الليل لعزفِ خاتم، مثل ملكة متوجة تُسَخِّر الجميعَ للخياطة.

خُدا ورد، يرقة الدار الدؤوب، تبني شرانقها لكسوة الأجساد فلا يتآكلها الهجر ولا البرد والإهمال في الدحديرة، ليس كبديع كسوتها يُخضعهن لمزاجها الناري، يهدأن بين يديها مثل قطط، بينما تقيس على أجسادهن وتُفَصِّل، تستظهر أدقَّ تحولات الأجساد، تقرأ في المقاييس أحوالَ القلب

والأرحام، تُنْذِر بالانفجارات قبل أن تقع، تقيس وأعينهن على زَمَّة شفتيها، حين تنغلق فذلك نذير خيانةٍ في الجسد، تقيس وأعينهن على تبدلات نبضها، يتسقَّطن آتيهن، وتحفة تتبع تلك المقاييس وتحتاط لمباغتاتها.

تنفرد خُدا ورد بماكينة الخياطة البدائية بينما تجري البنات بين يديها، يساعدن برفو الأطراف والتطريز تبعاً لأوامرها السلطانية، أكثر ما تستلذ خاتم بتسلط خُدا ورد على تلك الجلسات الحميمة، كانت تُجرب تناول الإبرة وخيوط الحرير والقصب وتستغرق في تطريب الأكفُ والياقاتِ والحِجالِ والحُزم، كلما سرت على جسدها سرا النغم في ريشتها، حين تعود للعود تشعر بريشة النسر تغرف من ملمس الحرير على رسغ ونحرٍ وكاحل، تغرف من شقة الصدر وشهقة الياقات على مؤخر العنق، مسكونة خاتم بكل تنويعات الموجودات من نسيج الجماد للنسيج الحي...

لم يكتمل مُدَرَّج النغم في تلك الدار إلا بالبنت السابعة خُدا ورد، حيث في إمارتها جواب نغمة التسليم بالأمر الواقع/ التسليم بالبؤس/ الشائعة في البنات، كل من يدخل عليها لايملك إلا الخضوع لهالة السلطان التي تُحيطها، يشعر كما الواقف بحضرة، وماتمنحه يجيء كهبة ملكية.

* * *

غادرت بهم الخيولُ المبعوثةُ من الأمير أحمد زقاقَ الصَوَغ، في ركائب مطهمة أميرية ومتبوعة بالحراس في العمائم الحمر جاءت خَرْجَةُ شيخِ الجواهرجية محمد علي. عَبَرَ تحت أنظار التُجّارِ يُرافقه إجلالٌ من هنا وحسدٌ من هناك. ركب يصطحب أجيره سَنَد حتى بلغوا إجياد، طَلعت بهم الخيولُ حتى الطابق الرابع في قصرِ الإمارة، وهناك قادهم الخدم لمجلسٍ محروس بحُرّاسٍ في العمائم الحمر، تناولوا عنهما زمام الحصانين، وتواروا جانباً بانتظار فراغ المهمة، آخرون برئاسة خازن مالِ الأمير كانوا في الاستقبال، فرجوا باب المجلس وخلوا شيخ الجواهرجية وأجيرَه يعبران وحيدين لسِرٍّ ذاك المجلس، ما أن دخلا حتى انغلق وراءهما البابُ بالضَبَّةِ والمفتاح، وجد سَنَد نفسَه هناك مسحوراً لشمسٍ طلعت بغتة في أرض المكان الشاسع، الأسقفُ الشاهقةُ بنقوشها الحيوانية التي أخذت تتلوى وتَتَوَعَّدُ لم تنجح في استدراجِ رهبةِ القادمين، لم تنجح في كَشْفِ خطفِ

الشمسِ لعينِ الصبي وشيخه، تحت قدميهما كانت دفائنُ المخمل، وزنابيلُ الخوص، وصناديقٌ، وبُسطٌ، كل شيء مفروش بالجواهر والحُلِيّ، حُلِيٌّ لا عينٌ رأت ولا صاغ صاغةٌ من أولِ لآخرِ الزمان، كان أمر الأمير محدداً في كتابه:

«ثَمِّنوا عنَّا جواهر خزانتنا، لاعانتنا في تقديرِ زكاتها السنوية. فيكم نضع ثقتنا، حيث لا تُثمن أمانتكم بمال. . .»

في دخوله لم يلتقِ الأمير، فقط وجوه الجواهر هذه، وجوه لا تعرف الصداقة ولا الحب، وجوه منحت بكارتها لأميرها، وبعد الأمير لا سحرَ لحجرٍ يطلع من خزائنه هبةً أو شروةً لطامع، الحجر يمنح نفسه أول وآخر ما يمنح بعدها ليس لديه ما يمنح غيرَ سوءِ الحظِّ والفَنَاء. . .

تقدم الشيخ محمد علي، وتبعه صَبيه، أشارَ لمكانٍ، فأزاح سَنَد عنه أكوام الحلي، جلس الشيخ على الأرض وأمامه بدأ صبيه يُقَدِّم مجموعات وعوائل الجواهر، بدآ من عند عتبة الباب، يتناولان الأكداس في صفوفٍ من يمينٍ ليسار حتى نهاية الصفوفِ أسفل الروشن. يتقدم بها سَنَد ليُلقي عليها الشيخُ نظرةً، ثم يهمس لصبيه بما يُعينه على الرؤيةِ لحقيقةِ الحجرِ، لندرته أو فراغه، لقدرته على الحَجْبِ أو الكشفِ لعينِ المُثَمِّنِ، على الإفصاح أو التضليل، ليرجع بالنهاية حيث كان، كومةً في حشدٍ يتنافس لرضى الأمير.

ومضى الزمنُ في الخارج، في الداخل ليس غير ذلك البريق الذي سَرَق من القلوبِ ما سَرَق على طريق قدومه لهذه الخزنة، بريقٌ يُرْفَدُ بنورِ أبصارٍ وقلوب ولا يَكلُّ. وعينُ

الشيخ محمد علي حادةٌ كحفرةٍ في النورِ حولها يدور، وعيُن سَنَد تدمع، تنكسف، يفقدُ الإبصارَ في ساعاتٍ ويسترده في ساعاتٍ، حين أظلمت الوجوهُ في الخارج ظلّت وجوه الحجارة مشرقة، كان المجلسُ مضاءً بتلك الوجوه، وحين انفتح الباب واقتادهما الحرّاسُ لمائدةِ الأمير سارا في عماءٍ، يتعثران، لم تمتد يد الشيخ محمد علي لطعامٍ، فقط تناول من الماءِ، يُسقط فيه من جَهْرَةِ عينيه يَحِلُّ ويشرب، بينما سَنَد صامتٌ طوالَ الوقتِ. الأمير أكتفى بالتحية الأولى، ولم يُعَرّف القادمَ للحضور، لا أحد يجهل جليلَ القَدْرِ شيخ الجواهرجية، لكن الأمير لم يُفصح لسُمّاره عن عِلَّةِ وجوده في ضيافته، كان وجهُ الأمير لا مبالٍ، لا يقترب من الصمت، لا يعرفه، ويتنقل في خِضَمِّ الكلام، يُحَوِّطُ جسدَه بوَسَطِ نَاطقٍ لا يلتقط أنفاسَه، حتى تَقَطَّعَتْ أنفاسُ الحضورِ، والشيخُ محمد علي وصبيه غائبان، حين أرجعهما الحرس للحانوت، تركوهما هناك، لم يعتن أحدٌ بالنظر إليهما ملياً، ليس فقط لأنه لا مجال للشك في ذمة شيخ الجواهرجية الذي تفوق سمعتُه لمعةَ الألماس، ولكن لأن مجوهرات مولانا الأمير تعلو عن النقصان، مهما اغترف منها الطامع لا تختل ولا تتأوه. أيضاً الشيخ محمد علي لم يعتنِ بالتنبيه على صبيه بأهميةِ الأمانةِ في أداءِ مثل تلك المهامِ، هي خرجة لتَلَقّي الأمانةَ وجهاً لوجه، لمباغتة الصبي بهذا القدر من الإباحة.

وطوال الوقت لم يلتفت الشيخ لصبيه، لم يرقب، كان يعتمد على حدسٍ داخلي يتلقط ذبذبات الصبي عن بُعد، يعتمد على

رسائل يرسلها الحجرُ حاوية لوجوه من ينظر فيه، تلك الرسائل على هيئة خرائط ليست لظاهر الوجه وإنما لبواطنه، ليس لما يُرى منه لكن لما يختبئ بالنوايا، لذا كان الشيخ لا يرفع عينه عن كريم، يقرأ بواطنَ صبيه كما يقرأ بواطنَه وبواطنَ الأميرِ وحاشيتِه وأهلِ بيته، في تلك الخرائط الكل سواسية، لا يظهرون بالأوسمة والألقاب وإنما بالتراب، بعضُ التراب تحت جلد الوجه تبر، وبعضه فضة، وبعضه رماد، وبعضه من كريم بَرَّاقٍ لا يتفتت عياناً، يوحي بالتماسك، ولا يسمح بالتماهي فيه إلا لأجسادِ الماءِ، الأجساد التي تفكُّ حروفَها حرفاً حرفاً من نورٍ قادرٍ على التسلل والمباغتة وإعادةِ الصياغة، حجرٌ كريمٌ يُوحي بالتنسك، لكنه يعرف عن الحياة والموت أكثر مما تعرفه الحياة نفسها أو الموت، حجرٌ غَرِقَ تحت طبقاتٍ وطبقاتٍ من الزمنِ ووجوهه، حتى ما عادت تستتر عنه حقيقةُ حكايةٍ، حجرٌ يُعَرِّي ولا يَقْبَلنا إلا عراة.

في اليوم التالي عادت بهم الأحصنةُ لعتبةِ ذاتِ المجلسِ، وانغلقت عليهما ذاتُ الضبَّةِ والمفتاح، جلسا هناك لأيام، بنظرةٍ واحدة يقرأ الشيخُ روحَ الحجر، يقرأ ضعفَه وقوتَّه، يقرأ ماضيه وآتيه، بعضُ الحجارةِ قادمة من عمرٍ أزلي لكنها مُشارفة على موات، وبعضُها حديثةٌ مواليد، لكنها من حجارة القيامة، تُقيمُ القياماتَ ولا تَفْنَى، حجارةُ خلودٍ. كل ذلك يدخل في التثمين، كان الشيخ يعرض على صبيه ويُشيرُ للخارطةِ بجوفِ الحجر، ويترك لصبيه أن يَتَتَبَّعَ الإشارةَ، الكلامُ كان محظوراً هناك، لأن كلمة واحدة كفيلة بتعكيرِ قاعِ

حجرٍ، كلمة واحدة طائشة كفيلة بإسقاط قلب حجر، ضحكة زائغة كفيلة بقصف هيكل حجر. كان سَنَد يتبع الإشارةَ الخاطفة، غالباً ما يعرف أين يُوَجِّهُ نورَ بصيرته، وأحياناً تفوته الإشارة، لكنه لايجرؤ فيُعلنُ لشيخه عن فوات الهدف، والشيخ واعٍ بما وَقَعَ في قلبِ صبيه وما زاغَ، لكنه لا يتوقف عند زيغٍ، يعتمدُ تَرَاكمَ الوقائعِ، تراكمَ الشواقبِ، جوفاً وراءَ جوفٍ تُفَتَحُ مَغَالِقَ سَنَد...

* * *

كانت خاتم جالسة لعودها في خارجة بيتهم حين سمعت رغاء الجمل، السقاء اليمني جاء يسقي بيت نصيب، من جلستها للعود تلقت صعدة الجمل بحمله من الماء:

«يا ساتر. . .» كلما عبر طابقاً توارت النساءُ وخلين السلالمَ لصعدةِ الجَمَلِ البطيئة:

«يا ساتر. . .» صعد اليمني بجمله للطابق السابع، ملأ حنفية الحمام، بقيت ثلاث صفائح أتجه بها صوب المطبخ:

«ياساتر» حين عبر البسطة للمطبخ بعبع الجمل، رفع اليمني عينه المرخية عن العورات فإذا بخاتم أمامه، في نفس اللمحة وقعت خاتم في عين الجمل المسورة بالأهداب وعين السَقَّاء الكحيلة، كأبهى ماتكون البنات في ثوب واسع ومحرمة ومدورة، ومنطوية على عود، جحظت عين السقَّاء، وجفل الجمل، أحتاج وقتاً لتهدئة الحيوان المنفلت في الطابق السابع، النظرة التي وقعت في وجه خاتم أرجعت ذكرى البارحة، كان السقَّاء حاضراً جلسة الطرب في الدحديرة،

وحين تَطَوَّحَ الإيقاعُ قامَ يرقصُ وقد دارت برأسه حلاوةُ الولد النحيل على حمرة، البارحة وقعَ جمرُ خاتم في قلب السقّاء، والآن هاهي تُصبح فتطلع كما الروح من حلقه، غمزها لتلحق به للخارج، ليتبادل معها سؤالاً عند حنفية المطبخ، لكنها لم تستجب، بقيت حيث هي، التساؤل عن علة وجودها في بيت الشيخ احتبس في حلقه وزاد اضطراب الحيوان، لم تستجب خاتم للاستعطاف في تلك العين الكحيلة، أرخت عودها وغادرت الخارجة لتستتر مع النساء. الحيرة ظلت معقودة على لسان السقّاء، حين هبط مرغماً يسقي الطوابق السفلى انفرد بفرج:

«في بيتكم عوّاد؟» لم يجبه فرج، لكن اليمني لم يتزحزح بانتظار إجابة، هتف فرج:

«الفضول يُغلق البازان ويقطع رزق السقّا...»

استحى السَقّاء اليمني وغادر بجمله مضطرباً بالسؤال. تلك الليلة كان أول الواصلين لدحديرة العساس، استأذن بالدخول على الشيخة، هتف ملهوفاً:

«الولد العوّاد، أهو من عبيد البيوت؟»

ابتسمت تحفة:

«يا عجب، حاجتك عندي ولد؟! هنا نحن لا نبيع ما تشتري...»

هتف مستعطفاً:

«لكنني رأيتُ العوّاد في ثياب الحريم ببيت الشيخ نصيب...»

أخفت الشيخة عجبها من انكشاف نسب ولد الفن الذي هبط من السماء على دحديرتها، قالت بلامبالاة:

«نحن لا نبحث في أصول الزبائن، أصل الزبون لا يهبط إلينا، يخلعه لينتظر خارج الدحديرة، كلهم ياعيني يهبطون إلينا كما ولدتهم أمهاتهم...»

سأل اليمني بيأس:

«حرمة ولا رجّال؟»

وبختة الشيخة:

«مالك علينا سؤال، نحن لا لنا في الطاس ولا في الراس، هو طالب عود ونحن طالبين طرب، لا عاشق ولاهيمان، وافقناه ووافق هوانا، كيف نجازيه؟ بالفضول! وهو يا عيني لا رَدَّنا ولا صَدَّنا ولا خان عشرتنا، ولا مثلك طالب يشتري آدم في سوق حوا...» دارت رأس السقَّاء اليمني. تلك الليلة لم تظهر خاتم في الدحديرة.

في اليوم التالي كان السَقَّاء في مهمة ألهته عن جنس خاتم، كان يُوَرِّد الماء لحمَّام قائد الحامية التركي، حمَّام النساء الوحيد بمكة، الدعوة إليه أشبه بوسام تتباهى به المكيات، ويتنافسن على ادعاء دخوله، وكانت زوج قائد الحامية التركية تقيم في قصرٍ من قصور الأشراف بأجياد، والحمَّام في آخر طريق القُشاشية، وَلَجَ السَقَّاء بجمله في الضوء الشحيح للحمَّام، لم يكن ذاك أوان تواجد النساء لكنه وجد حاجة للتنحنح:

«يا ساتر. .» لم تلبث الخاتون إن غادرت مع ضيفاتها، فراغ حنفيات الماء يعقب كل جلسة غُسْلٍ وطرب. كانت الخاتون، وقد دعاها الفضول لاستضافة خاتم، أرادت إيقاد حمامها بتجليات الأوتار التي شاعت شهرتها في سِرِّ المجالس. طوال فترة الضحى لم يسكت العود، خاتم لا يسترها غير جسد العود بحجرها ومنشفة تلتف على خاصرتها، ذاك أقصى ما تستره النسوة، وحين ترتفع أبخرة المس تتجرد لها الأجساد بلا روية.

جلست خاتم تعزف والأنغام تفلت في شطحٍ، تصعد الحي الطري وتتمسح، كل أعين النساء انصَبَّتْ للصدر المسطَّح كما صدر العود، لا حد بين جسد العود وجسد خاتم، كلاهما من نغم، لا يَتَجَسَّد ولا يَنْهَد فيه غير النغم، تجاوزت الخاتون عن تلك الهنة / الزلة في التجسيد، ذاك النقص المُعَكِّر للكمال وغابت في كمال النغم.

حين أقبل السقَّاء اليمني لم تفشل حواسه في التقاط بقايا النغم، الحجارة لا تزال تخفق في جسد الحمَّام، لا تزال تخفق واستلمت جسدَ السقاء، واستجاب الجمل للروائح الحميمة حوله، صار يتشمم المناشف الناصعة، والأرائك الخشبية، وأرضيات الرخام، ومصطبات الفسيفساء، واليمني تجرأ فصار يتبعه يتلقط الروائح، أكثرها عبقاً تلك المتروكة على مصطبات الحجر، طازجة بزيوت الترطيب وبقايا أدهان العود، يكاد يمس تلك الأجساد المطروحة ولا تزال بَضْمَتُها، تَرَكَ لجمله العنان، وبسط جسده على حجر المصطبة يَتَتَبَّع

زيتَ عبَّاد الشمس المجلوب من إنطاكية، شعر بكامل جسده يخترق الحجر ويصوغ منه الأصنام التي كانت قبل لحظات ريانة على هذا الحجر، لا تزال حرارة العَرَق حية في أنفاس المكان، وهاهي تسري تتنفس على جسده. لتلك الحجرة الجوَّانية المُوْقَدِ عليها من جحيم سفلي كانت خاتم قد استراحت، لم يكن بوسع عود الخشب أن يَلِجَ الحميمَ، لذا كان عليها أن تُخَلِّي الخشبَ في الحجرة الخارجية وتلج، دخلت خاتم بعودها الطري، تجويف من عتمِ جسدِ الأرض لا تُضيئه غيرُ ثقوبٍ في قُبَّةٍ علوية، ثقوب مكسية بزجاج ملون، الثقب الأوسط يسقط بحمرةٍ على الأرض تنادي مثل نجمةٍ في جُرْحٍ / نجمةٍ في شوقٍ لا يخمد، مثل حفرة في الملكوت تدعو للدفن، ثقب صغير من جمر، ويقع على المصطبة، لهناك انسحرت خاتم، في الضوء الشحيح أرخت منشفتها، استلقت منبطحة على وجهها تاركة لعري جسدها أن يلامس حجر المصطبة. كل أوتار جسدها انشدّت للعزف، لتحنين أغوار تلك النجمة، نغمات راجفة سَرَتْ بها في أجساد النسوة حولها، كل الكون انحبك في تلك النجمة، كل الأجساد تَقَبَّبَت مُفْرِجَة عن نجمتها، كانت لحظات من غيبة كلية، من نداءٍ لا يُجاب إلا بالموت، شعرت خاتم بريشتها تغوص في كل نجوم السقف والأرض تُقْبَر وتشرب: نغماً / موتاً يَتَرَجَّع في جسدها والأجساد المحيطة. دهنٌ كدهن الزباد يتقد سالَ من وترها المشدود في النَزْع، وترك بَصْمَةً بحجم قُبَّة. وهاهو السَقَّاء يلتقط أطراف القُبَّة، يلمها على

جسدها، يرسم ذاتَ الرشح/ الغيبة التي رَسَمَها جسدُ خاتم من قبل. ولم يوقظه غير بعبعة الجمل يتشمم شعره المُسْدَل بزيوت الكادي، وعِرْقٌ من نبتةِ فسيفساء التفٌ على كاحليه ورسغيه ويغرق، عِرْقٌ يشرب من ذات اللوعة التي على كاحليٍّ خاتم، على كل كاحلٍ رهيف غارَ بهذه الحجرة الجوانية. . .

صارت هوية خاتم سر السَقَّاء يوزعه في حنفيات مكة. صار السقاء لا يغيب عن جلسات طرب الدحديرة، يجلس يرقب جسد خاتم يتماهى عوداً ويتخلل الأجساد، لا يترك جسداً لا يمسه / لا يُطربه.

ومن ولاء السَقَّاء نشأت علاقة خاصة بين خاتم والماء، كلما تَعَذَّر عليها الخروج وانحبست في ثياب الأنثى، تلجأ لحنفيات الماء، تغمر وجهها بأطرافها، في محاولة لاسترجاع الروائح في صفائح اليمني الذي يمر عليهم عقب كل زيارة للحمَّام التركي. في ذاك الماء تسترجع خاتم شَدَّةَ وترها في جوف النجمة، تغيب ولا تطلع، يوبخونها على تلويث ماء الحنفية، صارت تلجأ لبِرْكة الماء بين مجالس أبيها، هذا ماء مُسَخَّر لنجمتها. لهنا تجيء الجواري واللاجئات، يتبردن إذا جَنَّ بليلٍ سَمومُ مكة، يجئنها كمغطس من الآلام في أواخر الليل حين ينام السادة والكبار والقوانين وتنطلق الحاجة، تخمد الحركة في دار نصيب تصبح حركة باطنية لا تُرى، تنام الأعين بينما عين خاتم غارقة في ماء البركة، تتلصص على أجساد الجواري، تلك الضامرة الرهيفة، وتلك المكتنزة مثل

قِرَب زبدة حالكة وزيتونية ونحاس طافية بتلك البِرْكَة، وأمام عجز جسدها عن الاستقرار بهوية، كانت أقصى أحلامها أن تأتيها تلك الأطراف الخارقة تلبسها، وتصبح جزءً من جسدها هي / أو جسده هو خاتم، كل ليلة تغرف من أجساد الجواري، لا جسد يؤوي قباحة، حتى تلك الأجساد الضخمة كان فيها من زهو الحياة وشَدَّتها ما في وتر مشحون بالنغم. ليس كالماء والنغم فاتح لحواجز التجسد وناقل للطاقة، ضربة وتر أو رَشَّة ماء كفيلة بحملها في الأجساد حولها أو حمل الأجساد إليها، يصير الجمع جسداً واحداً / طاقةً موحدة تفوق الطاقة الواعية لفردٍ من البشر، تتلذذ خاتم بالجلوس في المركز تَتَلَقَّى، تنتقل إليها طاقةُ تلك الأجساد، تصير هي تلك الطاقة الخارقة، تتحرَّكُ فيها أول ما تتحرك برهبة، ثم تنجرف بلذة مهولة، ثم يتملكها خوف من فرط تلك اللذة، تغادر، ولا يُخرجها من غرقتها غير الرهبة.

لساعات تقف خاتم ترقب أجساد الجواري والمهاجرات في البركة، تماماً كما ترقب أجساد بنات الشيخة تحفة، ترقب حتى تشعر بجسدها يتماهى في تلك الأجساد، يستبطن قدرتها على الوجود والتلذذ، رغبة حارقة في استبطان ما يعتمل في تلك الأجساد، في استبطان أنوثتها التي لاشكَّ فيها. تغيب خاتم في لدونة الأطراف سلاستها موسيقاها الحية، لا يخرجها منها إلا الرهبة، رهبة أن تستجيب لها تلك الأجساد فتُغَيِّبها، رهبة تتحول لعداء، لرغبة في الفتك تتملك جسد خاتم، لكونها على يقين أنها وحين تغمد ريشة نسرها في

جسد من تلك الأجساد فسيتلقاه بلذةٍ تَفُوقُ أيَّ لذةٍ يمكن لخاتم أن تعيشها. لذة قادرة في عمقها وعنفوانها ووحشيتها أن تقتل خاتم بالحسرة.

وفي ليالٍ كانت تقضي ساهرة تأمر جسدها بالتمسك كلياً بصفة الأنثى، تأمره بخلع كل ذاكرة الذكورة وتبعاتها، تغوص في تلك الرغبة ثم لا تلبث أن تطفو بذعر: ماذا لو فقدت الطريق للذكر كلية؟ حينها لا يعود من باب ينفتح لها على الطريق وما يخبئه من مفاجآت ومنحدرات وتحف الدحديرة. ذعر يتحول لكابوس من فقدان تلك السلطة التي تلبسها في ثوب الذكر، وتطلقها مثل طاووس على دروب الجبل، قوة لا يُستهان بها في ذاك الثوب تُخَوِّلها أن تفتح ما شاءت من أبواب وتُغلق، تفتح ما شاءت من الأجساد وتطوي، قوة أدمنتها وصار خلعها مثل إخصاءٍ نهائي ولا رجعة فيه، لقدرتها على الوجود بحُرِّية.

تفكر في كونها محظوظة بهذه الوقفة بين العالمين، وفي النهاية فإن الطاقة التي يشحذها هذا التحول لا تُضاهى، تقضي خاتم الليل تمارس لعبة شحذ تلك الطاقة للتنويع في إيقاع جسدها، للتنويع في أعضائه، تقضي الليل في لعبة الانغمار في الماء للخروج من الجسد أو إنبات أجزاء للجسد أو بتر أجزاء، بقليل من تحريك ذرات الجسد البطيئة التي تبدو متماسكة، بالإخلال بحركتها المنتظمة يمكن أن تتحول للشكل الذي تريده، تستنبت عضواً مؤنثاً الليلة وتسترجع عضوها المذكر غداً، لا تكف خاتم عن المحاولة والفشل،

لا يعيقها عن الشطح غيرُ الخوف من اللارجعة.

سألتها زرياب يوماً:

«ماذا ينتظر الشيخ نصيب لكي يستقر بكِ في جنس؟»

فاجأ السؤالُ خاتم، أثار في نفسها اضطراباً أقرب للضيق، شعرت في السؤال ربما باتهام أو انتقاد.

قالت زاجرة: «وما أدراني؟!»

وأمام عذوبة زرياب لم تملك خاتم إلا التراجع، هتفت بعد تفكير،

«ربما ينتظر أن تتوقف سيول الرجال الذين يطرقون الأبوابَ بالموت...»

لم تعرف خاتم من أين جاءتها تلك الإجابة، ولم تفهم زرياب معنى تلك الإجابة، لكنها بدأت تترقب الغيوم على سماء مكة، تترقب السيول التي تُباغت المدينة من لا مكان، تستجدي السماء أن تكف عن إرسال مايُغْرَق / ياسماء ابعثي بأي طوفان غير هذا النغم، غير هذا الشعور الذي يتفتح في الصدور مثل عَبَّاد شمس.

* * *

امتدت خرجات شيخ الجواهرجية لبيت الأمير، نسي سَنَد كيف ينظر للسماء، في خروجهم يوماً برفقة الحرس نَظَرَ سَنَد فإذا عين شيخه محمد علي غائرة لصدره، لا يرفع بصره ويأتيه السبيل والوجوه فيعرفها دون حاجةٍ للنظر، حين انتبه الشيخ لنظرة تلميذه هتف:

«ما سَعْيُنا للسماءِ وإنما للكريم، لا تحتاج أن تنظر في السماء لكي ترى، لا تسعى في الطير اسعَ في الحجر الكريم، الكريم شعاع وحَرٌّ وحَقٌّ يَصُرُّكَ إليه فيأتيك، يُطَيِّرُ عنكَ وفيكَ ولا يطير ولاتطير كما قال مولانا سلطان الملامتين: الحي لايطير...»

لم يعرف سَنَد كم مضى عليهم يقضون نهاراتهم في تلك الشمس الأرضية، تلك التي تطلع من أجسادهم فترى في الظلام، كان جسدُ سَنَد قد تَعَلَّمَ الرؤيةَ، تَعَلَّمَ الكشفَ في عتمِ الحجرِ ونوره.

أكثر ما تَعَلَّمَ كان: القراءةَ في جهرةِ النورِ وحرارته / في

ذروته التي تُعمي، وترمي بالرجفة، باللذة. كان الكريم قد تجسد في تلك الحرارة والنور فأعماهما عما سواه، حتى وَصَلَ مع شيخه لصفِّ الجواهرِ أسفل الروشن. حتى تلك الخاتمة لم يكن الشيخ قد سَجَّلَ رقماً على ورقةٍ أو قرطاسٍ، قرطاسُه قلبُه ومدادُه ذلك النور الذي لا تخفت سُوَرُه. مذ وَقَعَ ببصره في الجوهرةِ الأولى من جواهر الأمير تَكَوَّنَ في قلبه رقمٌ، لم يُفصح عنه، وبالمقابل لم يفارقه الرقمُ، ظلَّ أميناً في قلبه حين يغادر ويرجع لقصر الأمير، وكلما وقع الرقمُ في جوهرةٍ تَعَاظَم من فيضِ شعاعها ومائيتها، كل جلسةٍ تثمين يزداد قدرةً على قدرة.

فيما تَلَى من مهامٍ غادروا إلى مجلس اللؤلؤ، هناك كانت في انتظارهم سلالُ اللؤلؤ مصفوفة بلا آخر، لؤلؤها مُسَيَّرٌ لا مُخَيَّر، وفي خيوطٍ تخلط عاليه بسافله، عزيزه على الذليلِ بلا تمييزٍ ولا إجلالٍ.

الشيخ نصيب استعد لذلك الخلط بمكاييله السبعة، لكلِّ مقامٍ في اللؤلؤ مكيالٌ، على تمام السبعة مكاييل. وكان سَنَد يفرِط الخيوطَ ويُجري موجَ اللؤلؤ / موجٌ راجع لجوفِ الجوفِ، شَعَرَ سَنَد بجوفه يجيشُ في توقٍ لجُرْح يَستضيفُ ذلك الدمع. ظَلَّتْ عينُه تتبع أدقَّ تفاصيل اللؤلؤة، تُقدِّر المكانةَ وتُلقي في المكيال، يطفح ويُصَبُّ في سلال، كلما طفحت سلَّةٌ تَوَارَتْ وجاءت أخرى لتحبل بطبقاتِ سِرِّ البحرِ ذاك. . .

مضت أيامٌ، ثم جاءت أيامٌ قَضَى فيها الشيخُ وصبيه

وسفر ياقوت ـ برفقتهما هذه المرة ـ ينظمون اللؤلؤ في حُلِيّ، بين ذهبٍ وجوهرٍ تَدْخلُ عقودُ اللؤلؤِ في وساطاتٍ، ترسمُ قناديلَ للشَعْر، ومغاراتَ للشعراءِ والعشاق.

ربما مضى على سَنَد شهرٌ في قصر الأمير أحمد، إلا أن الشيخ محمد علي لم يعد لتلبية وليمة الأمير، كان شرطه ـ لإتمام التثمين وإعادة صياغة اللؤلؤ ـ الرجوعَ بضيفه الرقم لحانوته دون ضيافةٍ أو سَمَرٍ، يرجع في غيبةٍ بعد تمامِ كلٍّ يومِ عمل.

في الختام فارق الرقمُ شيخَه طالعاً للأمير ومنه لخازنه، تَسَخَّر لهيبته من الأمير للغفير، فتحوا له ساحةَ الإمارة، ومن هناك خرجَ لطُرقاتِ مكة في هيئةِ عطايا وهباتٍ، حتى لم يجتمع لسلطانٍ من المساكين قط عدد أولئك الذين اجتمعوا لتجليات الرقم، تلك التي طلعَت لها جحافلُ وجحافلُ من العَوَزِ والمرضِ والعاهات، فلم يبق عارٍ لم يكتسِ ولا جائعِ لم يشبع، ولا مريضٍ لم يتداوَ، في دائرةٍ شاسعةٍ حول الحرم عَمَّت فرحةُ خروجِ الرقم بزكاةِ الأمير.

* * *

في جلسة عزفٍ، صوتها بدا طالعاً من صدر العود:

«هذا الجسد حي من زمن بعيد، هو جسد ولد (لامِك)، وهو الآن جسدي، حكى أبي: حين مات للامك ابنه الأوحد عَمدَ إلى غصنِ شجرةٍ مجوفة على هيئة جوف ابنه، وصاغ له عنقاً كعنقه، ثم شد عليه أوتاراً كعروق ولده، ثم ضرب عليه وناح...» ضربت وتلقت خاتم النواح طالعاً من مكان سحيق بجسدها، أسَرَّت لنفسها: إنها ولد لامك. وتناولت العود من يد زرياب وضربت، استجاب لها الجسد كمن يعرفها معرفة قديمة. تلك الليلة وحين التقت سَنَد طالعاً من قبو الصياغة أسرعت إليه كطيرٍ مُحَمَّل بسِرٍّ، جلسا في الرواق أمام بئر زمزم بأعينهما للحمام الطَوّاف، وخلفهما حفظة القرآن يرتلون سورة الرحمن على القراءات السبعة، تتيه روح خاتم في تلك التنويعات، حين سكتت القراءة حكت لسَنَد حكاية لامك، ثم أكملت:

«الجسد الذي نؤول إليه بالموسيقى لا يموت، هو هذا الممتد من ولد لامك لجسدي..»

ما أن انطلقت العبارة حتى نجحت في إبهار سَنَد وخاتم معاً، استدار يتأمل في خاتم، لم يعِ ما قالت، لكن كثافة في العبارة أنذرته، حتى خاتم تحتاج وقتاً للتملي في معانيها، لكن جسدها يعيها تمام الوعي، يجد ملجأه فيها.

في اليوم التالي حين أرادت صياغة نفس العبارة لإبهار زرياب خانتها، وجدت نفسها تقول:

حين تغيب خاتم في عودها وتمازج تلك الأجساد الخارقة تنطوي زرياب على غيرتها، تتداخل نغمات الغيرة مع المشهد فتزيده اتقاداً، كل من يقع في دائرة النغم تلك لا يطلع، بين يدي العجمية الأقرب بجسدها لغلام جلس السقاء سليمان زمانه، يمضغ القات ويترك حوله رقشاً من حنينٍ وخضرة، يمضغ ويتأمل في انطواء العود بجسد خاتم.

رفعت خاتم عينها للسَقَّاء، في تلك النظرة المشقوقة مثل قبر: قرأت ماجعلها تتذكَّر: أول ما حكت لها زرياب عن نفسها راحت وجاءت بالعود، وضعته بين يدي خاتم وقالت: «هذا أنا. . .»

وحين رأت الدهشة على وجه خاتم أخذت بيديها، بسطتهما على جسد العود، تحت أصابعها شعرت خاتم بحنين الخشب، وحين غاصت سبابتها والوسطى والبنصر في الأوتار سمعت الرعدة في صدرها، ابتسمت زرياب بينما أصابع خاتم تمشط الأوتار، تناولت العود، ضمته إليها كما

«الجسد الذي صاغه لامك ليس له فترة تحبسه، هو الآن والأمس وغداً، هو الزمان.»

بعدها وكلما أمسكت خاتم بالعود شعرت أنها ممسكة بجسدها، وحين يشد إصبعها على وتر تشعر بشدته في جسدها.

وها هو السَقَّاء اليمني من موضعه البعيد لا يرفع عينه لجسدٍ غير جسد العود، من جلسته بعيداً يشدُّ على الأوتار، يَتَحَرَّق لتحنين نغمة.

تنفي خاتم تلك النظرة، تَذُبها مثل حشرةٍ عن عودها، وباستحواذ تغمر أصابعها في الأوتار، في حفنة الأوتار بين يديها تقبض خاتم على الكون، وعلى زمانه، تقبض على عمرها متنقلة بضربةِ ريشة نسر من عنفوان الشباب لسكينة الاكتهال والشيخوخة، كل وتر ينقلها لعمر، والأوتار تنقلها لتلك المساحة من الوجود / تلك النوتة المنساقة أبداً لشهوة التقلب والتخليق، مساحة لا تسمح بانغلاق وتغري خاتم بالثورة على سُلَّم العمر وتسلسله الحتمي، تنجو بها من كهولة لطفولة، ومن موت لشباب، فإذا جمعت الأوتار في مقطوعة لَخَّصَت تلك المقطوعة عمرها كاملاً، في تقدمه وارتداداته، لَخَّصَت جسدَها وجسد الكون بروجه ومواسمه وعناصره من نار وهواء وتراب وماء، كل مقطوعة هي عجينة من عجينة حقيقتنا، وتاريخنا ماهو إلا التنقل بدهشة عبر علاماتها وتقسيماتها النغمية، لم يعد بوسع خاتم التنازل عن ذاك الكمال الذي تبلغه بالموسيقى:

«عـنـد الـنَـقَـا ويـلاه ضـيّـعـت أنـا روحـي
يـا أهـل الـحَـرَم بـالـلـه ردّوا عــلــيْ روحـــي»

وزرياب تقود خاتم المُتَلَبِّس بثياب الذكور على طريق الوقوع في أسر الموسيقى، تدله على طاقاتها وتَحَكُّمها في جسده وروحه، تدله على سلطانها القائم في روحه وتقلبات تلك السُلطة القاهرة، وكيف تعزف من جسده فتنومه، وتعزف فتوقظ فيه الأشواق والعشق، وتعزف فيصمت الفرح الطاغي الذي تثيره وتوقظ الحزن والكمد. . .

جسده مثل ترجيع لعودها، لجسدها الذي لا ينفصل عن العود، حتى لُيخيل إليك إنها تعزف على الجسد، وحين تعزف يصبح من المستحيل معرفة ما إذا كانت الأنغام تطلع من صدرها أم من صدر العود، من جسدها أم من الأوتار. . . .

أكثر ما يؤثر في خاتم نقاط صمت النغم التي يعقبها تَحَوُّل، نقاط التحول المسكونة بصمتٍ قادر على أن يجرفك لمباغتة حتمية، لجروف لا تعرف لها قاع، ولشواهق بلا سقف ولا سماء، مثل تلك النقاط تُباغتها بلذةٍ عجيبة، تأخذها تُعرّيها لتكتشف في هيكلها كائناً حليماً أو جباناً أو متهوراً، في الصمت لاتكاد خاتم تعرف نفسها، لا تكاد تقبل الانصياع لقالب، بعد كل صمتٍ تعرف خاتم أن لم يعد بوسع دارهم أن تحويها، لا أرض قادرة على تسكينها غير أرض الموسيقى، هذا العود الجسد. . . .

* * *

الماء والحلم والموسيقى وانحلالها في الجوف لدمٍ وجسد، ذاك هاجس خاتم الذي يَقُضُّها ومَنْ يلتصق بها، شيئاً فشيئاً صارت تدرك حقيقة العود الجسد، حين كانت تنطقها من قبل لم تكن تعيها تماماً،كانت كمن يقرأ الطالع، لكن ذلك الطالع آخذ في التحقق الآن، وبشكل يخلق في نفس خاتم رهبة، حيث لا رجعة لجسدها من ذاك العود.

يتجسد في الفناء اللحن الطالع من عود خاتم، يرافق البنات ويتداخل بحميمهن، على رأسها تُوازِن صفا خان، طيراً من أغطية الشِراب وترقص، لا تعي تلك الأشعار والأنغام العربية، إلا أن لجسدها رغبة في امتلاك الألفاظ النغمات ومعانيها التي لا تُقال، رسمها بجسدها في الهواء والأعين، أن تمتلك بجسدها هذا الكمال الذي للموسيقى، لصوت العود، لجسد خاتم، حين ترقص الهندية كالمنومة داخل الإيقاع تشعر خاتم بدخولها في الكمال، بقبضها على الكمال في جسدها الرقيق الأسمر.

أما دانة فجسدها حين يرقص يقول لغة القلب التي يُجيدها، لا يتوغل أبعد من القلب يفتحه ويرسم ما فيه بالحركات التي لا تُضاهى، كل طرفٍ منها يحكي لمحةً من العشق في صده، استسلامه، غيبته، وعيه الحاد، لاوعيه، عماه وبصيرته، شراهته... بلا خجل يفضح ويوقع في شركه، لا جسد يضاهي ذاك الفضَّاح / آلة العشق تلك التي هي جسد دان دانة.

تأملت خاتم في ساق دانة، قصبة من أصفى ما سبكت

الريح وناحت، تصلح كآلة لطلوع موسيقى الصحارى الخوالي، قصبة تخترقها في مواضع سبعة فيكتمل سُلَّم النغم، تخترقها وتتنفس فيها من روحك/ ثم تترك لها أن تُجيب فتكتمل الأغنية...

أجساد البنات حولها وفي كل أحوالها تقول: لم تطلع الموسيقى ابتداءً إلا من جسد الإنسان. تضحك زرياب وتؤكد:

«أبي على يقين من أن آلة النفخ الأولى صنعت من عظم ساق بشرية...»

صارت خاتم تَتَبَّع انسلال صوتُ العود لجوفها، وكيف يَنْحَلُّ هناك، ويصبح دماً وجسداً..

يوماً وراء يوم وجسداً وراء جسد أو لحناً وراء لحن تزداد خاتم يقيناً: الموسيقى هي عجينة أجسادنا، هي الآلة التي تسبك أجسادنا/ تناسقها وتشوهاتها، كما أن أجسادنا بالمقابل، حين تصفو ويكتمل بهاؤها تصير آلة لطلوع هذه الموسيقى الكونية، كمالنا يتم بطلوع الأغنية المُضْمَرة فينا.

مالت زرياب على خاتم المستلقية وراءها على المصطبة، برقة رَفَّت بشفتيها على الضلع وهمست:

«دعيني، أو دعني أُكلمك كما أكلم عودي...»

تَتَبَّعَت خاتمُ الرَنَّةَ حتى استقرت في عمودها الفقري، هتفت:

«وعودي يُجيبكِ. ضعي قلبك على قفص صدري وانصتي لما يقول...»

تركت لوجهها يستريح على ذاك القفص، مررت رؤوس أصابعها بخفة على عنقه، وهتفت:

«ياعود كيف تراني؟»

سرت رعدة في صدر العود تَلَقَّتْها زرياب لقلبها:

«أراك كما أُغَنّي، بطرب..»

عادت تُداعب أوتار العنق:

«قل لي: أفيَّ ما يُنَفِّر ريشتَك؟ أ فيَّ قباحة؟»

«مذ عرفتك غَنَّى عودي، كيف يمكن أن تُغَنِّي القباحة؟»

تململ الرأس على صدر العود، استقر مستريحاً بوجنته:

«الضعف إذاً، أين هو ضعفي؟»

«ضعفكِ في جمالك، قوتنا وضعفنا وجهان للخوف، خوفنا على ما نُحِبُّ، بقدر ما تحبين بقدر ما تنفتحين للضعف/ للجرح، حبنا جرحنا في اللحظة التي تلي، فقط حين نكف عن الحب نتحول لجبارين بلا خوف...»

«كيف تملك أن تعرفني هكذا، كما لم أعرف نفسي؟ تتكلم عني كما لن يكون بوسعي قط أن أتكلم عن نفسي، تَنْظُمُني بجمال، تنظمني مثل أغنية تسلب...»

«هذا لأنكِ أغنية لا تكتمل إلا بجوابي، كلنا أُغنية تتم بجواب الكون، استجابته لنغمتها، هذه التي تبحث عن صدر يُرجِّعها...»

من بعيد فاحت روائح القرفة والزنجبيل، لَلاّ مريام

تُحضر السحلب لبسطه بين السُمَّار، في ليالي شتاءات مكة تصعد كل الرياح القارسة لرؤوس الجبال، وتبدأ تطوف في دائرة كبيرة حول الحرم في الأسفل، يُصبح المطاف بحجم الجبال المطوقة للبيت الحرام، ويدخل دائرته كل وحش وأهليٌ في تلك الذُرى، تأخذ تطوف كل الهوام والدواب والوحش والجن والإنس، كل غرائب الجبل تطوف وتشطح، يغدو السارون في الدروب المنحدرة في سَكَرٍ وترفعهم دائرة الطواف، في صباحات الشتاء يتكاثر الصاعدون للسماء، وتتزاحم الجنائز في الدروب النازلة للحرم. في ليالي الشتاء لا يُطفيء الحرقة إلا حرقة الزنجبيل والقرفة، تطوف في رواد الدحديرة، توقظهم قبل إرسالهم في رحلة الطواف على الجبل.

«هذه الأغنية، كيف تكتمل..»

«مع آلاتٍ على نفس درجة التجلي، لم أر عوداً يفوق عودكِ في التجلي، انتظري حتى يلتقي أشباهه، أو أولئك الذين سبقوه في الصفاء، ثم انصتي، ستجيئكِ الأغنية التي لم نحلم بسماعها قط من أجسادنا...»

«كعودك؟»

«وأكثر، انتظري حتى تلتقي الآلة التي تجرؤ على المغامرة مع ألحانٍ جديدة، ألحانٍ استكشافية / كاشفة، لا تقف عند حدٌ، تخترق دوماً لوجودٍ أبعد وتكشف وتتمازج وتعزف أبدع ما فيه وفيها/ دهشته / بلوغه... دوماً أقول لعودي: حين نجرؤ على اقتحام معزوفاتٍ جديدة، حينها فقط

تتجاوز آلتنا جمودها، تخرج للحياة. . .» تأمل فيها، لم تقاوم تلك النظرة، على أطراف أصابعها قامت، مالت ورشفت السحلب عن حواف الشفتين، تتبعت حرقة الزنجبيل في هبوطها النحر للجوف، توقفت عند عقيقة الحياة، بين رعدة وصمت هتفت خاتم:

«ما الذي تريدين معرفته يا زرياب عن جسدك أكثر مما تقولين؟ تستطيعين قراءة ما شئتِ/ قراءة الكون في هذه الآلة. جسدك يا زرياب كَشَّاف مستكشف ولقد أخذني معه، أنت الطريق التي ما انتظرت لأسلكها بل حملتني على قرنها مثل سيل، وألقتني في المجهول، في هذا البحر الذي يُغني، لا تُبحر فيه إلا الأغنية / لا نُبحر فيه إلا بأغنية، لا تنفتح طرقه إلا لأغنية، هذا الذي يتحدى آلتي في كل خطوةٍ أخطوها في كل وجهٍ يقابلني في كل حركةٍ تبعث الطاقة حولي، حوارك ينقلني في كل نغمةٍ أبعد، لا أُطيقُ الرجوعَ. كلما انْبَحَّ وَتَرِي أَنْصَتُّ لعزفكِ، تركتُ له أن يُداخل عجينتي، فقمتُ. . لا أستطيع أن استريح طويلاً بلا دوزنة وترِكِ مشدود، لا أُطيق التفكير في ترك وترك يركد، أو ينقطع حول جسدي، نعم أنا مثل الحمام المُطَوَّق، أوتاركِ مثل حزوز بَرْقٍ على عنقي، كلما مسَّني ملل أو تعب سَرَتْ تلك الحزوز وصَعَقَتْني. . .»

همدت حركة زرياب، كالداخل في حضرة، طرفة عين كفيلة بكسر تلك الدخلة، مضت خاتم:

«فيكِ رأيتُني، ورأيت أنها موجودة: كل تلك الأجساد بجسدي، من كل عجينةٍ أحملُ خيالاً، خيال أكثر حقيقة من

كل لحم ودم. كلما طلعتُ من عندكِ صار الناس يتلفتون صوبي، صار جسدي يَرى ويُرى، أراني فيهم ويرون أنفسهم فيَّ، في عودكِ عرفتُ ماذا يرون: حين ينظرون إليَّ يرون أنفسهم أجمل. في عودك عرفتُ كيف أسوق إليهم جَمَالهم في لمحةِ بهاءٍ على وجهي، لمحة تَجَلٍّ...»

«هكذا أنا، كلما نظرتُ إليك رأيتُني أجمل...»

«وأنا كلما نظرتُ إليك رأيتُني في كل مرة أجمل حتى لا أعود أُطيق جمالي، أشعر بحاجةٍ للبكاء، أبكي، يلجأ جسدي لتصريف ذلك العجز عن مواجهة كل ذاك الجمال، أبكي، دموعي ترافق كل نظرة ألقيها صوبك، وكل نغمةٍ أرسلها إليكِ وترسلينها صوبي.»

بدأ الدمع يجري على وجنة زرياب، تأملت خاتم فيه بانبهار، لم تُطق فحولت عينيها للسماء، أكملت.

«يحتاج الآخرون عودَنا لكي يعرفوا أصوات آلاتهم وأين يقودونها. في عودي الوجهة والملامح، في عودكِ تتضح لي الرؤيا كلما غامت في لحني...»

صار الدمع يفيض من العيون، اختلط فما صار يبين أيهما يبكي الدمع المالح أم الدمع الحلو...

قامت خاتم، تشبثت بها زرياب، ثم قالت:

«اتركي بيننا مسافة...»

جلست خاتم بآخر الحجرة، صار عودها يرمق زرياب عن بُعد، يتطلع إليها، ويُغنِّي، زادت خاتم المسافة،ثم عادت

تقترب، «اتركي للمسافة بيننا أن تتبدل، لكي أتطلع إليكِ، اتركي لحواسي أن تراك بكل احتمالاتها وقدرتها على الرؤية. . .»

وفي أيامٍ حين يجلسان للسُمَّار في فناء الشيخة، كانت خاتم تهتف بزرياب:

«اتركي لي مسافة لأرى زرياب التي في عودي. . .» يجلسان في الفناء لا تُلقي إحداهما نظرة للأخرى، حتى إذا سكت عود قال الآخر، أنغام تترك للريشتين بينهما مسافةً كافية للمبارزة. أو تقوم فجأة تخترق الساهرين، تأوي بظهرها لظهر زرياب، تهمس:

«لا تتركي للصمت بيننا جلسة. . .» يلتحمان كجذعٍ واحد، لا تدع لخاتم أن تقوم لحاجة، تهمس آمرة:

«اتركي مسافةً تقول هذا الذي يَتَرَبَّع منكِ بقلبي. .»

ويرجف قلب زرياب.

«لا تدعي المسافة تسترق منا نغمة. .»

وفي أيام كانت خاتم تغيب، حتى يمتد الوقت والمكان بينها وبين زرياب، حتى تشعر زرياب أنه لم يبق غير المسافة، وأن خاتم لن ترجع وأن الطرق بينهما قد انقطعت، حينها ترجع خاتم، تُلازِم ما استطاعت الدحديرة، لا تكاد تغيب حتى تشعر زرياب بأن غياب خاتم خرافة لن تكون، فترجع للغياب، صارت زرياب تعرف شوقاً ما بعده شوق، ما بعده إلا اليأس والموت، ثم تعرف إفراطاً ما بعده إلا الموات

لهذه الأغنية بينها وخاتم، صار التنويع يزيد الأغنية حدة وعمقاً مثل شفرة تقطع في جسدها والدحديرة.

صارت زرياب تنظر لأجساد رفيقاتها تبتعد، أجساد تجهل أكثر مما تعرف عن العوادة، أجساد لم تعد قادرة على اللحاق بجمالها، على رؤيتها بذات المعرفة التي لخاتم، لم تكن في أعينهن أجمل، أجساد لا تلحق بها في ضعف عودها وحيرته وتحليقه، كل الأعين منجذبة صوب خاتم، شيء في ثوبها يُنسيهن حقيقتها كأنثى، يُلاغين ذاك الجسد كما لغة النقيض لنقيضه، كما دهشة النقيض بنقيضه، يتكرسن لرؤية خاتم والافتتان بعودها ما سواها، وحين أفصحت لخاتم عن غُربتها تَمَلَّكَ الأخيرةَ فرحٌ لا تعرف منشأه، أجابت:

«لا تبحثي في كل الأجساد عن إجابةِ عزفكِ، نحتاج تدرباً على الإنصات لنلحق بشيء من تلك الأصوات/ الموسيقى، لأجسادنا تنويعات قد يلحق بها الآخر وقد تفوته، نحتاج جسداً مدرباً على التناغم مع أجسادنا، آلة قادرة على مشاركتنا اللحن مداخلته والتنويع عليه، التنويع على نغماتنا حين تُحَلِّق وتتجلّى. . .»

لكأن جسد ذكر يلتحم بجسد خاتم كلما نظرت في تلك العيون أو لبست ثوب الرجال وخرجت بوجهها عارٍ لطريق، تحتد أطرافها وتخلع ليونتَها لتدخل في هيئةِ آدم، شبه يقينٍ من كونها ثنائية الجنس يتَمَلَّكها.

* * *

تتداخل دانة بغناءٍ من مضاربها البعيدة:

«يا قاضم الهيل نصَّ الليل   عَطْني من الهيل لو حَبَّة
آنا الذي مشتهي بالحيل   كِنِّي على نارْ مِشْتَبَّة»

مترعاً باللحن قفز السَقَّاء اليمني يرقص، ثم حط بفوطته وجنبيته على قدمي تحفة، هتف:

«باللي يرحم والديك اعقدي لي على دانة...» رمته دانة بنظرتها الكحيلة ونفرت، قام اليمني يرقص، لم يسبق ودخل عليها أو طَلَبَ قُربَها، لكنها ظَلَّت له مثل مطمح، مثل رجعة لليمن السعيدة، وكان يصمم أنه ما لدانة وللماء، هي من دانات عدن، الدانات اليمنية التي تَرْقُص وتُرَقِّص.

«الله يادانة عدن...»

«خَلَّكْ منه، مِنْ شَدَّة هَلي للما رموني بدانة...» ترقب تحفة عن كثب حومةَ اليمني على الدانة، «على عين خَرَقَها نجم ولدتني أمي طريفة، على عين النجم خَيِّمت قحطان لين طمرها العلالي، كثيب رأسه ما وطي الأرض في السما شالّي...» تكمل لخاتم:

«بعد طيب العيش ضَرَبَنا العلالي، بعد طيب العيش وحليب النجم باعوني...»

ورغم بؤس الدحديرة رفضت دانة بتصميم الاقتران بالسَقَّاء، دندنت ساخرة:

«شَقّقيني يا عيون النجم، لملميني...» وحين ألحت عليها غمزاتُ البنات قامت هاتفة «معذورة يا ناس، قُرب الما

يجَفِّلني» تلحقها تحفة بالنصيحة:

«وليه المرمرة يابنتي، الراجل بارود وبُندق وتعميرة تِرَوّق الطاس وتِحَمّي الراس وتبعد الباس وتعمي بصائر الناس...» تضحك دانة قائلة:

«يا أمنا الغولة، ذَبَحَنا البندقُ خالي باروده. يا أمنا غويلة، ما ماء إلا وعُقْبه رمل... خَلِّني في حالي.» وتردد «أنا اللي من ماء قلب النجم سموني.. وا دان دانة باعوني...»

* * *

بعد عام في الحرفة بدأ سَنَد بالتراجع عن تنفيذ تعليمات الأسطى، فوجِيء معلمه بحجارةٍ أهمل التلميذُ سَبْكَها في قوالب الذهب، وبواجبات يؤجلها ويماطل في تنفيذها، وحين واجهه:

«لعلكَ يا سَنَد نويتَ الرجوع، ما الذي صدك عن الحجارة، هذه مملكة لا تُغْدَر، من يدخلها لا يخون ولا يرجع...» ظهر الفزع في عين سَنَد، سارع ينفي:

«لا يا معلمي، ليس رجوعاً عن الحجر، لكنني صرتُ أخافُ مقاربةَ الحجرِ بالذهبِ، صرتُ أرى في ذلك انتقاصاً للكريم، وحَجْباً لقواه التي يُكَبِّلها القالبُ...» لم يعرف كيف يشرح لياقوت أن ما يعانيه ليس رجوعاً بقدر ما هو غرقٌ في جسد الحجارة، كلما تعاملت معه الأحجار اكتشف أن مشاعره تضطرب لفرط افتتانه بحقيقتها. كان المُعَلِّمُ يُحَدِّقُ

فيه لا يزال بانتظارِ استفاضة، طال صمتهما والتصميم لا يبهت في عين المُعَلِّم أن يتحقق مما سمعَ، اضطر سَنَد للكلام:

«يؤلمني اتباع تعليماتك وحبسِ الحجر، أَلَمٌ يَشُقُّ صدري ويَشلُّ يدي على الذهبِ المُذَوَّبِ...» جحظت عين سفر ياقوت في تلميذه، الذي تلجلج ثم اندفع يُكمل «أشعر يا معلمي بدربي تفترق عن دربك، عندما آتي الحجر أشعر أنه حي، مثلي مثله، نقف واحدنا في مواجهة الآخر، ويحدق بي، حجر وراء حجر قال لي أنه: لا يَتَتَوَّجُ بصكٌ حجلٍ على كاحله، وإنما بإطلاقه على فلكٍ لا يمسَّه بقدرِ ما يرسله. الكريم يبين على عرشه لا في قمقم من ذهبٍ أو قالب، أعرف أنه مستوٍ كريم على كلٍّ قالبٍ وكلٌ قيدٍ، لكن الذهب حجاب، والحجر بين يدي يريدُ رفعَ الحجب. يقولُ: لا يتلاغى بالاضافة وإنما بالتخفف. حواري لا يتم بتقطيع مساربه وتخطيطه مثل ساحة معركة أو سفر، حواري يَبْرُد من هنا ويلمع من جهة، لا أُنقِصُ من جسده طرفاً بحجابٍ، حتى صرتُ أميل للحجارة المكنوزة في سِرِّ شيخنا محمد علي، تلك التي لم يعترِها فضولٌ. أتظنني مجذوباً يتوه عن درب المهنة، هل ستُبَلِّغ شيخَ الجواهرجية بأمري، وتنصرف عن تعليمي؟» ظَلَّ سفر ياقوت يتأمله بعجب، أقرب للافتتان، حَرَّك يدَه في الهواء كمن يذب بعوضة:

«هذه خفايا لم تنكشف قبل الآن إلا لأساطين الحجر، مهمتك عسيرة، وغالباً تنتهي كما انتهى الأساطين للوقوع في

أسرها / للوقع فيها، لا أعرف أُشفقُ عليكَ أو أحسدكَ، مسكين أنت يا سَنَد، فإن كلَّ من سَلَكَ هذه الرؤيا صار للحجر، مصيرك لحجر، أو للقطع عن التزاوج بالبشر، من يَتَعَرَّفُ أجسادَ الكريمِ لا سبيلَ له لأجسادِ الطينِ. الحجرُ هو الأصلُ الذي حين يعرفنا ونعرفه لا تعود لمعرفةِ الأغيارِ فسحةَ فينا، وأنت فتحت على نفسك جبهة/ فتحت حياةً لا سبيل لإغلاقها...»

حَدَّق سَنَد غير مصدقٍ أين يقود الكلام. أكمل ياقوت:

«معلمي قال يوماً: الحجارة تكنز من طوالعنا، وها أنت ينفتح لك كنز، لأنكَ المؤهل للقراءة وللتتويج..» خرج سَنَد من ذلك الحوار بنشوة، طال حديث سفر ياقوت، وتَفَرَّع، لكنه انتهى بأن طمأنه:

«بوسعكَ الآن الانفراد بتصميم عروشٍ للحجارة على أتم ما تكون رؤيتك للتجلي والسلطان. خليتكَ والحجارة، تَوِّجْها علامَ شئتَ، استعطفها حتى إذا أدخلتكَ عرشها فلاخروج لكَ، أُتريد هذه الدخلة؟»

لم يع سَنَد خطورةَ ذاك السؤال، لكن وعيه انصَبَّ على التلذذ بخطورة القبول، لم يستطع لفرط رهبته أن ينطق، هَزَّ رأسَه بالإيجاب. بعدها صار سفر ياقوت يخُصُّه بالحجارة التي ليس لصاحبها رؤيا لصياغتها، الحجارة المفتوحة الأقدار، فكان سَنَد يسعى بها لإبراز تكاملها، أينما رأت الكمال وكيفما شاءته. صارت الحجارة تتفتَّح بين يديه مثل ورد. تطلع دواخلها الخفية، تأمر وتنهى بهيلمان على

الأجساد المُكَرَّسَة لاستوائها، تخاطبه بمعرفة لا تفشل في وَصْلِ من شاءت وقَطْعِه حين نفرتها.

الأكيد أن تحولاً فريداً هيمن في تجلي الأحجار بدكان شيخ الجواهرجية، وذلك من استرسال سَنَد في تسكين الأحجارِ في النفرة والوحش والسلطان. لكنه كان يتحرَّك بثقةِ صوبَ ما يأتيه، علاقته بخاتم صارت لهدنة، لسلامٍ يُحَرِّكه أبعد في علاقته بالحجر.

كان يُحَدِّث سفر ياقوت قابضاً في قلبه على آخر حوارٍ تبادله مع خاتم، قالت خاتم لسَنَد لكي تأخذه لعالمها:

«صوتُ العود هو الحليب الذي نرضعه فيؤاخينا، لا تحتاج السفر في أقمطتك لترضع ما يجعلكَ ابن عمتي أو أخي، هذا الحليب يقطع إليك المسافة...»

انفجارٌ حميمي مثل هذا كان كفيلاً بالمسح على قلب سَنَد، يشعر أن بوسعه التَخَلّي عن خاتم لذاك العالم الذي يُنافسه عليها، يشعر أن بوسعه مسالمة غيابها عنه، تَحَوصلها بعيداً. ثم إن الأحجار تمنحه النسب، تمنحه قراراً يستقر إليه، مما يجعله أكثر توازناً في مواجهةِ ما يأتيه من خاتم...

* * *

عَرْضُ السَقَّاءِ اليمني أثار قلقاً في الدحديرة ونفس خاتم، لا تعرف من أين انبثق السؤال لكنها صارت تتأمل في جسدها بحيرة، لم يفت الشيخة ذاك القلق الكامن بقلب العوادة، لا تترك خاتم تغيب عن نظرها، هذا الصباح بَكَّرت

خاتم في الظهور بالدحديرة، ومنذ ظهرت لم تغادر جلستها على عتبة المطبخ، لم تتبادل كلمة مع البنات ولم تطرق باب الحلبية، راحت البنات وجئن حريصات لا يقطعن صمتها، خلفها في المطبخ كانت لَلاّ مريام المغربية تسحق وتعجن المعاجين التي تُحضرها الشيخة لبناتها، وصفة سرية لم تَبُحْ بها الشيخة إلا لمريام التي تأمل أن تنهض بعدها بمشيخة الدحديرة. هتفت خاتم بالشيخة:

«إن جسداً هنا لا يُباح له الحمل، فماذا عني؟ مالي طُعمة من مساحيقك يا شيخة؟» الدهشة التي شقت وجهَ الشيخة أرسلت ضحكةَ المغربية، إلا أنها لم تُعَلِّق، تشاغلت منصتة بكامل حواسها للحوار، قالت تحفة:

«أنتِ بنت أكابر، لجسدك طُور ولا طور سينا، نون وما يسطرون، يعقدونه على قرينٍ فيمور ويخور، مالك وللموانع، جسدك غلاّب: اركبي واغلبي، وشُقِّي سَماكِ بِبَرَكَةِ واحد أحد...»

نظرت لها خاتم بعجب، فأكملت الشيخة:

«جوف المرأة جوهرة، سر، وبنات أمك الغولة هنا لرمي القراصنة لعجبٍ عُجاب وبحرٍ غلاّب، ودفعهم لجلاجل تفقدهم الصواب، لكن تضليلهم في الختام عن سِرِّ الأنام، والسلام...»

قالت خاتم:

«جسد المرأة غياب يطلب أكثر مياهنا سِرِّية، غياب

يرتوي ليُخَلّق الجنين، ومافي جسدي غياب، ألا تشعرين به يا أمنا الغولة؟ كله حضور. . . »

«لا تِغْلَبي يا بنتي ولا تحتاري، جسدكِ طُور قلاّب غلاّب للسفينة والربان، كذا وإلا فلا تكون أجساد النساء. . . »

«أشعر بجسدي موصد، لكأنه غير مخلوق ليفتح ويحمل، كمن يحتاج لوسيط للحمل عنه، أتظنين لهذا ألجأ للعود؟ أيصلح وسيطاً للحمل عني؟ عندي شوقٌ لحملٍ، وشوق لصب، أتعرفين كيف هو هذا الألم الماسك بجسدي؟ شوقي خطيئة؟»

ضحكت تحفة باضطراب:

«هذا وسواس خَنَّاس، وأنتِ محقّة، ربما هو وسيط الأمان لبناتي، وإن نَفَس نغمةٍ من عودكِ برقبة ألفِ لقيطٍ من لقطاء الفُرش العامرة. . . »

شعرت خاتم بضيق من تلك الاستجابة، فهتفت:

«أنا جادة، لماذا لا يطاوع جسدي فيستسلم لهذه الرغبة الحارقة لاحتواء جنين بجسدي، ولا يستسلم للرغبة في الانصباب لجسد؟! لِمَ يتجنب جسدي الانسياق لحالة؟»

«لأن لكل سر أوان، ولسِرّكِ أوان، حين يظهر النوتي يئن له السر ويَحِنُّ، ويخرق البحر، وينصب الربان. . . »

شعرت خاتم بجدولٍ رفيع يجري في ظهرها، مثل دمع يتجمع رويداً ليعثر على الوسيط، كررت:

«حقاً، في لحظات أشعر بجسدي السيل يَنْصَبُّ بلا سلطان لي عليه، وفي لحظة ينقلب ليكون الأرض التي تُغَيِّب الماءَ، كيف يمكن لجسدي أن يكون مغلقاً حيناً ومفتوحاً في أحيان؟! لا شيء فيَّ مؤهل للتفتح والاحتواء وكل شيء مؤهل، هذه حيرة لا تخفى على الجسد، أنا مثل سكين جاهز للاختراق الآن في بناتكِ، وللاحتواء والإغراق حين أخلو لعودي، أهذا ممكن؟» لم تحر تحفة جواباً، لكنها قالت بحزم:

«نحن لا نعرف من التلاوة إلا المتلو بسلطان، وفي أوان... قولي لي: جربتِ العشق أم أنكِ خام؟»

سؤالها باغت خاتم، هتفت:

«ما العشق؟»

قالت الشيخة دون تردد:

«شيء ينقال وشيء ما ينقال، لكن، عليَّ يمين، من راسي لساسي له سلطنة وسلطان، كيف أقول وليه أقول: المعشوق مَخْلَوان، خَلِي ومُسْرَّج باللبان، يفتح وتدخلي، مُبَخَّرة مُشَمَّرة، وأنتِ في الحفظ والأمان، في الكتمان...» تبسمت لَلاّ مريام لهذا التعبير عما في العشق من الرغبة الجارفة للاختباء في المعشوق..

«نلبسه مثل ثوب يسترنا أم مثل حية تخبئ بجوفها فأراً؟»

«هذا وسواس خَنَّاس...»

«عندي رغبة، رغبة جارفة في لبس بناتك، هل يجعلني هذا عاشقة؟»

فرقعت ضحكة لَلاَّ مريام مثل سوط، شَهَقت تحفة ثم ضحكت في نَفَس واحد، هتفت موبخة:

«يا عالِم تكوني منهم: مايسة نواسة لجنسك.. لكن خلِّيكِ من هذا الوسواس، أنتِ بنت أكابر لا فارس ولا ديدبان يحبس سرك بجوفك، نوسي وافتحي ولاللكِ ولا عليك ملامة، جوهرتك مالها كتمان إلا كتمان الحبيب، مكتوبك العزوة والولدان، ما عاشت مساحيقنا لمقام من مقامك، ولا لجوهرة من سر التمام، مكتوبك ما دخلَ لنا لوح ولا أعطيناه الأمان، مكتوبك في ناموسية قصب وتَخْتَبوش، يا بنت الأكابر مَنْ قال مكتوبك حَمَام وَلَّف وليف عندنا؟!»

رددت المغربية بسخرية: «نحن بنات الضبع نسحق ونَسُفُّ لنُضلل الداخلين عن السر..»

* * *

هلال كان دائم الرجوع للدحديرة، لايبادل خاتم كلمة، كأنه لا يراها، أينما لاح تلحقه تحفة بالتحية:

«سلام يامارد شارد، لمتى تبقى كذا حَسَكَة مَسَكَة أُلعبان ولا هلالي الجان...» يبتسم:

«على العهد يا أُمَّنا الغولة لآخر الزمان...»

ولا يزيد، تلحقه أعينُ البنات بافتتان، له بجوفِ كلٍّ منهن قلبٌ بانتظار إشارة، يدخل ويغيب في عالم فرح العجمية، ويغادر لا يلوي على شيء كلما هيمن عود خاتم، تُعَلِّق تحفة بعجب:

«قرينته قرينة حرب يُشَرِّدها الطرب...»

دوماً يغيب هلال ليطلع في حمى الشيخة التي تتعهده في محاولة لإطفاء إبليسه كما تقول:

«أنت يا ولدي مُوَلَّع خِلْقَة، حطبة من نار جهنم. الله يِهَدِّي ملائكتك» يضحك هلال:

«لي ملائكة؟! مَنْ مثلي ليس له غير شياطين يسوقونه بخطاطيفهم...»

«بَسْ يا واد العناد أساس الكفر...»

لا يجاوبها بغير ابتسامة ساخرة، وأبداً لا يتوجه بنظرة صوب خاتم، كل يوم يزداد وعي خاتم بالحنق المتجمع بقلبِ هلال، طاقة من الدمار لا يُعرَف كيف تتأجج ولا أي جحيم يرويها، لكنه وعن بُعد يحاصرها بتلك الطاقة التي لا سبيل للفكاك منها. يوماً باغتها طالعاً من زقاق الحشاشين، كان يتحرك كمن في سحاب، لصوته رخاوة لم تألفها، طبقة من الأوتار تدق في قلب السامع، أوتار تُدوِّخ، ارتعدت خاتم، تمسكت بجدار الصندقة وراءها، راقب حركتها، لعينيه كثافة تسري على الجلد فيقشعر، قال لها ساخراً:

«عودك غَلَبَ السحر. وشيختنا تغني مواويلك، تِحَنِّن عليكِ صخر جبل هندي، أنا قاب قوسين أحن...»

تأمل فيها ساخراً ثم أكمل بجدية، «من يعلم، ربما أنتِ أكثر شجاعة منا جميعاً تركت النعيم للحميم بينما نحن كالكلاب المسعورة نشحذ الفتات على بابكم...»

شيء في صوته يشي بغيرةٍ من التآلف بين خاتم وهذا العالم المنفي، يكمل:

«أم لعلها كذبة أخرى تلبسينها لانتزاع إعجاب البؤساء، أو كحكاية ثيابِ الرجال: للتلصص على العالمين، قبرك الجشع، عين على المباح وعين على المحظور، شِقٌّ في

الجنة وشِقٌ في النار، لا هنا ولا هناك...»

لم ينتظر إجابة، غادرها ساخراً:

«دنيا نصيب، دنيا عجيب.»

لم تدرك خاتم سر تلك الفورات التي تأتيها من صوب هلال حتى في غيابه، تعرف أنه يُفزعها، تداخل يُضفي على موسيقاها رنة شيطانية، كلما اعترضها تشعر بخشب عودها يُطقطق بطاقةٍ فريدة جامحة، وحين تغني ذلك تجد الأجساد حولها تُجَنُّ وتتطوَّح، تشعر بالعجز أمام إعصار الطاقة ذلك، طاقة سوداء مدمرة، هلال نفسه لم يدرك سر تلك الفورة، ماله وللفتاة، يقرر أن ينسى أمرها، لكن وما أن يلقاها خارج الحميم حتى يتملكه غيظ، يتملكه شيطان يجد نفسه منساقا لمهاجمتها، وحين يلقاها في الدحديرة يتملكه غيظ يخرسه تماماً، يشعر بأنفاسه تحتبس في صدره، يشعر بحاجة لحرق حطب الأرض لإيقادِ نارٍ تُضَاهي قهرَه لمجرد رؤيتها. يشعر أن غيظه لا يطفئه غير قصم عودها الشامخ على حجر، يعرف أن هذا الغضب لا يجب أن يُفلت، لأن في أذياله فزع، فراغ يأتي عليه، لذا يتجنب النظر إليها، فإذا غابت خرج يطلبها، بجراحه يطلع من أي جحرٍ كان يطلبها، ويحاصرها بتلك النار التي لا تكف تتأجج.

بعد يومين من حوارهما عند زقاق الحشاشين خرج يطلبها، كانت واقفة في صحن البيت الحرام حين لحق بها، وقف خلفها بصمت يتأمل في غيبتها، كانت منسلبة بكُلِّيتها للأذان، صوت المؤذن الساحر يطلع من الرخام تحت

قدميها، يصعد جسدَها، ينتشر في وجنتيها من النور حولها، يَهُبُّ في الهواء ويلفح صدغيها، كانت منتصبة مثل قصبة تتلقى بجسدها تلك النغمات، وترسل جوابها، حرم من موسيقى امتد حولها وفصل عنها هلال والآخرين الداخلين والخارجين من المطاف، الأمر الذي جعل الدم يغلي في عروق هلال، كل أباليسه فارت، حين تحركت وانكسر الحظر حولها لحق بها للأروقة، انفرد بها حيث استوقفها الزمزمي اليمني، صبَّ من دورقه في الطاسة النحاس المشغولة بآية الكرسي، شربة لطرد الفزع والشتات والتعب، شربت وألقت لليمني بقروش، أخذها وعاد يملأ لها الطاسة، بيدها طاسة الآيات والماء المقدس سرت فيها طاقة غريبة، ريانة التفتت تلقي بنظرة أخيرة للمطاف والحفيف الطالع من أجساد الطائفين، حفيف كفيل بتبديد جسدها لو وقفت في مداره، حفيفٌ يُذَوِّبها، هَتَفَ هلال كمن يمنعها من الانسلاب من جديد لحركة الصحن:

«أبوكِ تاجر عبيد وأنت تنطقين بأصوات السحرة والكهان. هذا العود الذي لايفارقك، هو لسان إبليس، وتتجرَّئين على اختراق الحرم يا بنت الأكابر. . .»

ودون أن تنطق، ردَّتْ طاسة الزمزم طافحة للزمزمي، دفعت هلال المعترض طريقها بعنفِ قفزَ بإيقاعِ الرواقِ، وغادرت بهدوء. تَسَمَّر هلال حيث هو يرقبها، مضت تخترق الأروقة ووراءها انبسطت سجاجيد حمر بلا آخر، أخذت تلحقها مثل بحرِ هابطة من السماء وطالعة من الأرض، آتية

من جهاتها الأربع متقاطعة متلاحقة تلهث لتغمس من كاحل البنت الولد، حتى ولجت باب ابراهيم وغابت في زحام الطريق، قشعريرة باردة أمسكت بعنق هلال، شَعَرَ كمن انفتحت له طاقة في الغيب فرأى بحر الحمرة، بحر لا يزال يندفع من جهات رأسه الثمانية، ما زال يصعد مكة ويتلملم ليَنْقَضَّ بجبل هندي، كان رأسه لا يزال يفور بأبخرة ذاك الأحمر ويترك في جسده لذةً غامضة من إدراك خاتم مُغَرَّقَة في حمرة.

كانت على أول طلعة الجبل حين لحق بها سَنَد، بينهما انبسطت خطواتها شاسعة مثل بحر، يمنحها الطول ارتفاعاً عن الأرض، كانت منطلقة مثل غزالة لا تكاد تمس قدماها الأرض، هتف سَنَد في محاولة للحاق بها:

«الموسيقى كائن أقدامه ربما تراب لكن رأسه في السماء، كائن يتخفف من ترابه، بينما هلال ليس فيه غير الطين، لذا يفوق عودكِ إدراك هلال. . .»

مَدَّ في خطوه حتى لحق بها، سارا كمن يركضان جنباً إلى جنب يصعدان دروب الجبل الضيقة، شَعَرَ سَنَد بانغلاق خاتم، أشبه بحيوان في جفول فإذا سُيِّب لن يرجع، تَمَلَّكَتْه حاجةٌ مُلِحَّة لبلوغها، لربطها إليه إلى الجبل وأرضه والدار المنتظرة، أكمل لاهثاً:

«حين أُنصتُ لعودكِ أشعر بقلبي يخرج من مخبئه، لا يعود قلبي المخفي مثل مضغة بصدري، يكون أمامي وفي حلقي وفي كامل جسدي، يُحيطني قلبٌ بين الماء والنار

والهواء، فيض يرفعني عن الأرض، عن طيني، أخلع جسدي مثل ثوب وأصعد.. وفي ذات الوقت أشعر بذاك الجسد حياً كما لم تسبق له الحياة، / مرهفاً شفيفاً / يلتقط كل دبة بعوضة، كل نَفَس، وأنا مفصول وموصول بذاك الجسد، أعرف أنني حين أُنصت إليك لا أعود نفسي، لا أعود لمكانٍ ولا لزمان، أكون كائناً كبيراً، وبجسدي الزمان والمكان... حين تفتنينني أغلق أُذني أحياناً، أمنع نفسي من الانسياق وإلا ستجدينني يوماً مثل علامة فوق سماء جبل هندي...»

كان كلامه يتلاحق خوف أن تُفْلِت، أكمل:

«صدقيني لو تُرِكْتُ لصوت عودك ما رجعت، لوجدْتِني مثل بقعة شمسٍ فوق رأسكِ. هلال يُنْكِر قوتك السحرية هذه، لأنغامك تأثير قاطع، قادر بشكلٍ ما على هزيمة شيطان هلال، وهذا ما يخيفه...»

تباطأت خطواتها حتى هدأت، استردَّ جسدُها وعيَه بإيقاعِ أولاد الجبل وأهله، تداخلت بإيقاعها حيويةُ نسوة صاعدات بالعباءات التركية، عباءات حرير، حرير مُغَرَّق في بخور العود والصندل، عود يصعد من جسد عجوز، عجوز تجلس في كل عطفةٍ تلتقط أنفاسها، لهاث يركضُ مع الأولاد وراء الماعز الجبلي، ماعز بضروع سود وحلمات من مرجان وسواد يلمع في عيون الأولاد تتشهى يسيل لعابها صوب الضروع، المصكوكة بحليب جبلي ممزوج بريحان ومذاق حجارة بركانية، يشخب في حلوق الأولاد بينما يرضعون اللبن من حلمة وحش تنفر مثل سبابة، تُحَذِّر وتُدين من وراء

كل روشن، وترقص على ذاك الإيقاع الخارج عن كل سلالم الموسيقى، موسيقى تُغني، أُغنية دخلت عود خاتم، خاتم أغنية تمام المشهد.

بلغا الدار، دارا حولها حتى ولجا من باب الفناء، وسط الفناء كان العَشِّي نجف يعد لوليمة الغذاء، الحُفَر في أرض الفناء متقدة، والخراف مكفتة ومدفونة في الجمر، في قدور ضخمة كان الأرز يُطبخ بحرقة الزعفران، على ألون ثلاثة فاحت روائح ذلك (الرز البرياني)، وروائح تنفذ للمعدة وتقرصها، للخلف مغطاة معاشر الحلوى، كَشَفَ سَنَد مِعْشَرة واختطفَ له ولخاتم أصابع الطُرمْبَة، غمسوها في قدر الشيرة الذي يغلي وأكلا بنهم، لكأن المشهد في الطريق لم يكن...

قبل الحجارة لم يعرف سَنَد العطش للتَلَقِّي، كان إيقاعهُ يتباطأ حتى يخمد في حلقات الشيخ مستور، لم تسعفه ولا شرارة من كتب الشيخ وعوالمه، وغالباً ما شَعَرَ باختناق لتصميم الشيخ على إيلاج المدن في قمقم، يقول:

«لا باب ينغلق بوجهي، أخترقُ بيسرٍ من بوابة المدن لمجالس الأكابر، لتلك المجالس تجيء الخلاصة، خلاصة أهل الصنعة والعلم والشعر والطرب، تجلس بينهم فتنتقل إليك زبدة المدينة، وبعد الزبدة لا يعود في اللبن ما يُشتَاق، لا يعود لزقاقٍ ولا لعطفةٍ من سِرٍّ تخفيه...» يومها قاطعته خاتم:

«لكن يا مولانا، للمدن تراب وحجر، كيف تستنطق الذهب وتُخرس الأرض. أنت لا تسافر على محفة، وذلك

لكي تحفر معالمُ الطُرقِ قدميكَ، فكيف تدخل المدن حابساً نفسك في قمقم حتى يدخلونك لمجلس كبيرٍ من الأكابر فتطلع؟»

صَمَتَ الشيخُ فجأة وزاغ بياض عينيه في الصحن وراءه، تَعَلَّقَ البياضُ بسوادِ أستارِ الكعبة كمن يطلب منفذاً، ثم رجع موبخاً:

«وهل يُعَلِّمك الترابُ الأصولَ والآدابَ والصنعةَ الرقيقةَ وأحوال الأمراء ويُقَدِّمكَ لدُرر العقول؟»

تَبَادَلَ التلاميذُ ابتسامةً، أكمل الشيخ موبخاً: «لكم يغريكَ يا خاتم الكلام، يشرد بك عن صوابكَ فتُلقي بأول ما يُلْقَى إليك. . .» لم يُدرك أحد من المتعلمين حوله ما أراد بذلك التوبيخ، ولم يعتن الشيخ بالتوضيح، استراح للحيرة في صدور تلامذته، وأكمل درسه عن تأمله في عمارة الرومان، «أنظروا ما بقي من الأمم البائدة، أعمدة قصورها وقاعاتها الفخمة، مقابر أكابرها لا حفر ترابها وبؤسها، البؤس لا يصمد للتاريخ، لا تصمد غير الفخامة. . .» وبتصميم مَضَى يصفُ اتساعَ طرقات الرومان، أشكال أعمدتها ارتفاعها، فخامتها، مهملاً الأيدي التي عرقت ونزفت في إعلاء تلك الفخامة.

لم يربط سَنَد لحلقة مستور رابط، لذا كان انتقاله للحرفة سلساً ومباركاً من قبل الأطراف المعنية، فشلت لغةُ الكتب في تطويعه أو حتى مسالمته، لكن لغة الحجارة قَرَّبته، أخذته لخزائنها السرية، بسطت له وقَلَّدَت، لغة الحجارة صارت

لغته بكل مغالقها: بريقها وخفوته، صفاؤها وشوائبها. تمنحه ولا يكتفي، كلما انفتحت له مرتبة أندفع للغوص في المرحلة التي تليها، كلما فتحت له الحجارة باباً دخل وأراد الأبواب المخفية، كان في حالة عطش دائم لما يمكن أن تمنحه الحجارة أو تخفيه.

ذاك اليوم كان غارقاً في تثمين عقود لؤلؤ لجارهم الشيرازي، وفاته خروج الرجال للصلاة، حين لحق كان الإمام في ركعةِ المغْربِ الثانية، في عبور سَنَد للمسعى تَلَقَّتْه تلك الآية:

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربِّ أَرِنِي أنظرْ إليكَ قال لن تراني ولكن أنظُرْ إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلَّى رَبُّه للجبل جعله دكاً وخَرَّ موسى صَعِقاً فلما أفاق قال سبحانكَ تُبتُ إليك وأنا أوَّلُ المؤمنين.﴾ تَسمَّرَ سَنَد حيث هو على أرض المسعى المتربة، وحوله صمتُ الحوانيت والآية تخفق:

﴿تجلّى ربُّه للجبل...﴾ ولم يستطع التقدم، انفصل الجبلُ عن آيته ليقف له في الهواء يدعوه أن ينظر في حجارته.

لم تكن المرة الأولى التي يسمع فيها تلك الآية تُتْلَى، لكنها المرة الأولى يعي صعقتَها، صعقةٌ ظَلَّت مكنونة في حجارة الطور، تلك التي خَصَّها الكريمُ بتجليه، استبطنت من ذاك التجلي ما لم يستبطنه حي، وتَكَتَّمَت!

لم يُفِق إلا على تسليمة الإمام، بدأت الأقدامُ تدبُ في المسعى، عندها فقط تحرَّكَ سَنَد راجعاً للحانوت، وَقَفَ هناك في مسقط الشعاع ينبش عن وجهِ تَجَلّي، وجاءه فيضُ نورٍ وحرٍّ، في الحجارة صعقةٌ تتخفَّفُ لتُباشر العيون، ومنها اعتراه توق، أن تنكشف له الصعقة على أول حلولها، دون ستر أو وسيط أو رحمة، سافرة صاعقة تُرديه قتيلاً، وقف هناك مُنتظراً القتلَ.

دخل عليه الشيخ محمد علي وهو في تلك الصعقة، لم يستفسر الشيخ، جلس حتى جاءه من تلقائه، احتارَ بأي لغةٍ يصوغ ذاك الكشف لشيخه، لم يجد غير ترديد ذات الآية، لم يزد الشيخ أن قال:

«يقول مشايخنا إذا نظرَ الحجرُ في قلبكَ حَسَرَتْ لكَ الشمسُ القناعَ، وأشعل في الأفق الشعاع، وترقرق الكريمُ بكلٍّ قاعٍ، وكنست الظباء والسباع. وعرفتَ فيه حَرَّ روحكَ ونورها، أو رمادها وبَرَدَها. ولا رجعة، لقد أمضيتُ جُلَّ عمري في تَرقُّبِ تلك النظرة!» غاب الشيخُ في تملي ياقوتة بهرمانية، وأكمل:

«مهما بلغنا من العلم أتظنُ نعرفُ كل شيء عن الحجارة؟ هذه التي نطأها على طريقنا بغفلةٍ أو نُعَلِّقها على صدورنا بفخرٍ أَشَدَّ غفلة؟ أنظر. . .» تناول الشيخُ مصحفَه، وفتح على صفحة مُعَلَّمَة من سورة البقرة، وقعت عينُ سند على الآية:

﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا آضرب بعصاك الحجر

فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أُناسٍ مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ ولم يُفَسِّر، ترك علامةً بقلب تلميذه وغادر.

ثم بدأ شيخه يقلب الصفحات المطوية من الآيات ويقرأ له العلامات التي تتحدّث عن الحجارة وتجلياتها. حين استقرت الحجارةِ العلامات بقلب تلميذه هتف:

«أيُّ حيٍّ يملك أن يُبطن ما أبطنه الحجر، بهذا التواضع والكتمان! أنتَ الآن الكتمان حتى تمام العرفان..» وحَذّره الشيخُ محمد علي: «من يضل الواحدَ في الحجر تكون له الحجارة بالمرصاد لا يعلو في المهنة ويتملّك إلا الكائن المسكون بقيام الكريم في كل شيء، المكلوم بعشقه حتى الفناء به...»

بعد جلسة سَنَد تلك مع شيخ الجواهرجية ما عادت الصفحاتُ المطوية من مصحفِ الشيخِ تفارقه بتجلياتِ حجارتها، لا يدخل الحانوت إلا على وضوء، ويختلي بها في قلبه المرة بعد المرة، كلما رفع عينه للسماء شَعَرَ بتأهب تلك الحجارة المحمولة في سحب غير منظورة بجبينه، تنتظر الأمرَ لتهبط سجِّيلاً أو أبابيل. صار يسري في الجبل يفتش عن الحجارة الأنهار، يضعها بين شفتيه ويترك لها أن تسري بحليب براكينها وتخلق.

يتجنّب السجاجيدَ، لا يستريح إلا لأجساد الكريم، كلما سَجَدَ على قاعٍ زاحمته الترابَ جباهُ الحجارةِ السجود للخشية:

«سبحان ربي الأعلى وبحمده، سبحان!» تُسَبِّحُ في جبهته، هناك تركت أثراً من حَرِّ سجودها بحجم طيرِ هامة. على كل عطفةٍ مسجدٌ للحجارة، على قارعة الطريق، على كل طريقٍ وبَرٍّ، حتى صار يخافُ وطءَ الأرضِ، تَمَنَّى لو يملك الارتفاع في الهواء ليتجنَّب تَخَطِّي رقابَ الحجارة، كلما تَخَطَّى رقابَها جَفَتْه الملائكةُ فلم تُرفع له أربعون صلاة! وسواسٌ غدا سَنَد، كلما سار تَجَنَّب تلك الساجدة على كل عطفة، لم تفارق بصيرته الرقاب التي لا يطويها زمنٌ ولا ريح بقدر ما تطويها السجدةُ للتجلّي.

صار يبحث في الأجساد حوله عن تلك الفارَّة بالمسخ من البعث، المتنصلة من موتها وحيوانها الأبدي، أجسادٌ ذبحت بُراقها وسمرت وتغذَّت، وحين أفاقت لنخسة عزرائيل لم تجد من أجسادها ما يرتفع، لم تتجسَّد بما يُسعفها لخوضِ مجاهل الإسراء ﴿وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً. قل كونوا حجارة أو حديداً. أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يُعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسيُنغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً﴾

قريب هو الكريم، وصار دليله في الحجارة، ومنها انسرب إلى القرآن من مداخل لم تَبِنْ له من قبل، بواباتٌ في كلِّ وجهٍ وبرهافةِ كلِّ عشبةٍ وهَبَّة، بواباتٌ تدعو للأمان الذي لا خروج منه، نَفَذَ للآيات ففتحت له من عيونها وأرزاقها وأقدارها، دخلته رهبةٌ مما يمكن أن تنفتح عليه أحجارُ

الكريمِ. بعدها وحين رجع لجزء عم دَخَلَ رحابتَه التي لم تنكشفْ لعين الشيخ مستور قط، رحابة في كل آية تفوق كلَّ رحابةٍ في الفضاء حوله، رحابة تتصل بذات الذات الكمينة داخله، حين انفلت في تلك الرحابة لم يشعر بغربة بعدها، عرفته تلك الآيات في ملامح الحجارة التي سكنته: عرفته من نورٍ وحرارة وجريان أبدي.

أُصيبَ سَنَد برعبٍ أن يحيا على بابِ التجلّي ذاك الذي فتحته الحجارةُ، مفتوح بين يديه ليلج متى شاء وكيفما شاء ليرى الكريم في كلِّ شيء، يناديه بسلطانٍ مع كلِّ لمحةٍ، وكلما لَبَّى غاب في تربة الجبل، في الوجوه، في قطرة السُكَّر على شفة خاتم، ينظر وجهاً لوجهِ هذا الذي يستبطنُ الطيرَ والعشبَ والمَن والشَهَد، يُطعمه ويسقيه، هذا الذي ينصك بحرزه عليه فيمنعه من التيه والفساد، تَعَلَّق سَنَد مثل عَلَقَة لهذا الحرز المخبوء في الحجر الخلاق، يحتمي من الفزع. مقيم سَنَد على بابٍ لا كالأبواب، أعتابُه رعبُ اللارجعة، دَخْلَةٌ من تلك الدخلات كفيلة بأن تأخذه كُلاً، مرعبٌ هذا الذي لا يغيب في شيءٍ ولا لمحة، مرعبٌ هذا الحضور المُطْلَق للكريم حوله وفيه، بحيث فَتَحَ البابَ للألهي، للسلطان الذي ما بعده من سلطانٍ، فَتَحَ باباً يَتَخَطَّفُ الأشياءَ والموجودات من حول سَنَد، ليُصَيِّرها لأبديته وسلطانه: هاهي عين خاتم، هاهو نسل تلك الحجارة بين يديه يبرق بالصعقة ذاتها، وسَنَد لا يفعل غير النبش عن الصعقة وراء باب الأبواب، بحذرٍ/ بجوعٍ ينبش ويرجع،

كلما رجع طلع بين يديه خيالُ صعقةٍ، كيفما انقلبتْ خَلَبَتْ من ألباب الناظرين وخَلَبَتْه. لو أنه لا يُحَدِّث ذاتَه بالرجوع لأتته ذاتُ الصعقة. لكنه يغرفُ من رعبِ الوقفةِ على الأعتابِ ويرجع.

* * *

لم تنصت شارة لعزف خاتم على العود قط إلا واستعاذت من الشيطان، وتمتمت:

«هذه البنت غاوية...» تقصد مسكونة بأرواح الطرب. كل من ينصت لعزف خاتم يكرر نفس الصفة (غاوية).

أَسَرَتْ زريابُ خاتمَ للعود، والعودُ عَلَّمَها كيف تأسر الزمن، تشحن الصوت بزمنٍ وتُطلقه، راقبت خاتم النبات والحشرات والحيوان والبشر ما أن تمسهم الموسيقى حتى يرتفعون، ما أن يلبسهم جناح الموسيقى حتى يتحولون لطير أو نور أو هواء يعلو عن الأرض أو يمسها مساً رقيقاً، ينقشها ويسري...

صارت خاتم تجسيداً لمفهوم تحفة عن (ولد الفن)، مفتونة الغولة منسلبة مع بناتها لهذا الولد الممسوس بالطرب، تكرر:

«هذا ولد فن لا تلوموه، مسحور في دنيا طالعة من وتر وريشة نسر، وتر وريشة على أمره...» كانت تحتار لتقول إن عين خاتم ترى عالماً غير عالمنا، أو ترى العالم على غير ما تراه بناتها وزوارهن. تتأمل تحفة في مَنْ حولها في محاولة

للابهار، في محاولة لربطهم لخاتم عجيبة الدحديرة، توحي بأن عوده مرآة لايجب النظر فيها، «لو نظرت لجسدي في عوده لانخلع قلبي، لن أزيد بهيبتي وجلالة قدري عن دو، أو فا صول لا سي. . .» ولم يكن ذلك المزاح ببعيد عن حقيقة رؤية خاتم، أجساد من حولها تَتَحَوَّل لعلامات موسيقية، ترقب رأسَ العلامة وذيلها، اتجاهها، وقفتها، علامات الصمت والتحويل. . والمسافات بين نغمتها الآن وفي اللحظة التي تليها، المسافة بين صوت الجسد الآن وما يليه من أصوات، تنويعاته، صار جبل هندي في نظر ولد الفن مثل مُدَرَّج موسيقي/ مُدَرَّج لتلك العلامات، ترقاه الأجساد صعوداً أو هبوطاً لأزمنة تتفاوت وفقاً للمقطوعة المعزوفة، مقطوعة موتٍ أو ولادة أو جري وراء اللقمة. . . أدرك أن للجبل في هذه الضفة المنفية مزاجاً نارياً يتحكَّم في المُدَرَّج، وغالباً ما يميل إيقاع مقطوعاته للحِدَّة كلما بَلَغَ ضفةَ الأبالسة، يميل للتقشف، ويتحشرج بجوعٍ لما لا يجيء ولأحلامٍ لا تملك أن تتحقق. . . بينما ضفة دارهم إيقاعاتها غالباً ما تميل للترهل، للإعادة، حتى يكسرها إيقاع عرسٍ أو موت. . .

صارت خاتم مسكونة بمقطوعات تُعزف في الكون حولها، تشارك فيها المدينة بأسرها، إيقاعات تصعد لتجتمع على الجبل، تطوف هناك مثل حلقة حُزْمَة، إيقاعٌ ينقلُ الطوافَ لذروةٍ لا يَتَلَقَّطُها / لا يتلقاها غير جسد خاتم، «حلقة الإيقاع أنا» تنحني على عودها وتهمس ذاك الكمال الذي يأخذ يُطرب بتنويعاتٍ، ووصلاتِ استمرارٍ، إرجاعٍ ـ

اختصارٍ في التكرارِ أحياناً أو تطويلٍ لدرجة الموت ـ لا تفوتها من إيقاعٍ حليةٌ أو زخرفة، ترصد مَراتبَ السرعة والبطء وما تحفره فِي الأمكنة والوجوه من خنادق أو جداول، تتابع أدق تحولاتها بكامل جسدها. . .

* * *

استرخت دارُ نصيب لغيبةِ هلال، تأكد في القلوب غيابُه أو فناؤه حتى رجعت أنباء جنازة جوفة غيلم، بعض المتهورين حرصوا على مشاهدة تلك الجنازة رغم المخاطر التي تتعرض من يدنو من ساحة معركة بين النشامى، حرص المتهورون على التواجدِ لكي يرجعوا بحكاية لا تتكرر في ركود مكة. إلا أن تفاصيل الحكاية غامت في ذروتها وفتحت بذلك الباب للخرافة والتأويل والشك، جاءت الحكاية بما أنعش قلوب وكسر قلوب، رفع عمائم وعَفَّر بالتراب عمائم:

خرج موكب الجنازة بسلاسة طالعاً من أعالي جوفة غيلم، حبال النحيب تقطعت وتركت الجثمان يبتعد في رحلته هابطاً للمعلاة، رجفة خفية تسري في المشيعين وحَمَلَة النعش، أعينهم معلقة للجسدِ النحيلِ الشاحبِ مثل دخان، كان هلال يتقدم الجنازة، البقشة تشد على جذعه وتنصبه كما لعنة يلمعُ فيها خنجرٌ عن يمينٍ وخنجرٌ عن يسار، عمامته العريضة وكوفيته المطنفرة شاهقة تتحدى من يجرؤ على الاقتراب، الشجار الذي وقع من قبل في حلقة للمزمار أوقع الفتنة بين نشامى جوفة غيلم وحي الفَلْق، بعدها انغلقت الحدود بين الحارتين، وبذا انغلق الطريق بوجه المواكب

الطالعة من جوفة غيلم صوبَ الحرمِ أو مقبرة المعلاة، انقطعت جوفة غيلم عن حرمها ومقبرتها ولم يعد بوسعِ أحدٍ أن يموت ولا بوسعِ عُرسٍ أن يُعقد في الحرم. صار على أهل غيلم أن يعثروا على طُرقٍ أطول تقودهم لقبورهم ومُصَلاًّهم.

موت عمدة الحارة كان التعبير الأعمق عن القهر الذي عَمَّ غيلم، بموته شاعت في الحارة رغبةٌ في الانتحارِ أو رفعِ العار، وقد انسحب عمدتهم من وقفة العار تلك لم يعد الخوفُ من وقوعِ الضحايا يَصدُّهم عن معركةٍ جديدةٍ مع نشامى الفَلْق، لكن الرغبة في إذلال نشامى المنافسين فاقت الرغبة في العبورِ بجنازةِ العمدة لمصلاها الأخير ثم لقبرها.

فاق الخروج لجنازة العمدة أي خروج لرقص أو لعرس، تَحَزَّمَ النشامى بأحزمتهم البقش العريضة، لمعت الخناجر في الأحزمة، رفعوا عمائمهم، وأقسموا ألا تقع ما دام فيهم عِرْق ينبض بحَمِيّة. واحتراماً للموت سارت الجنازة على أكتاف العُزَّل، بينما الشومات جاهزة في أيدي المشيعين، بالمقابل كان نشامى الفَلْق لا يقلون بهاءً في مدخل الحارة بينهم وبين غيلم، تقدمت الجنازة ببطء لكن بثقة، حين لاح الجمعان لبعضهما سرت رجفةٌ في عظامِ العمدة الميت، أعقبها حرُّ الخجلِ من مهابةِ الصدام، حين لاح هلال لنشامى الفَلْق وَقَعَت على الجمعِ سكتةٌ، ثم احتشدت الإيقاعاتُ وتزاحمت، موتٌ غضبٌ خوفٌ بكاءٌ همهمة مع أصوات المشيعين:

«وَحّذوه. . .»

هتف نشمي من الفلق:

«أرجع يا هلال الجن خلّي الرجال تتفاهم. . .» ردَّ هلال ساخراً:

«الرجال؟ أين الرجال، ما يمنع الجنائز عن قبورها غير الحريم. . .» الاتهام بالأنوثة أشعل الفتيل، فارت الأجسادُ تريد الصدام فاستوقفتها صرخة عمدة الفَلْق، علا صوته حاداً مشروخاً في محاولة يائسة لإخماد الغضب:

«صلوا على النبي. دعوا العقول تتكلم. . .» صاح الأولاد من رواشن الفَلْق الفارهة يُعَيِّرون هلال:

«يا هلال الجن. . .»

وصاح ولد من خارجةِ سطحٍ بالشتيمة:

«يا نَخْوَلي. . .»

هطلت حوقلات النسوة الممزوجة بالإثارة والذعر من وراء الرواشن، قال النشمي موجِّهاً غضبه لهلال:

«أنت ما عليك شَرْهَة، كلامنا مع أسيادك. .» رد عليه هلال:

«الكلام للعقول، الكلام للرجال، اشهدوا يا ناس الرجال تحارب جنازة ميت. . .» وعَاجَلَه أحدُ نشامى الفَلْق:

«نحن لا منعنا ولا دفعنا، أرض الله واسعة، وطُرقه أوسع، خذوا لجنازتكم طريقاً غير هذا، خَلّونا حالنا حال أنفسنا، هذه حارة أكابر، لا يدخلها نجس. . .»

«يا ابن الأكابر النجس. . .» طَلَعَت الشوماتُ والخناجرُ وصيحاتُ النسوة من وراء الرواشن أخذت بزمام الموقف، حَمَلَة الجنازة ركضوا أو ركض بهم العمدة، إذ لاعارَ كهتكِ جثمان، لا عار ككشف عورة الميت، لو أسفرت جثة العمدة فلن ترفع جوقة غيلم رأسها بين الحارات بعدها.

لا يُعْرَف كيف وصل الميتُ للحرم لاحقاً بصلاة الظهر، لم يعد مهماً هل اخترق الجثمانُ الفَلْق أم سَلَكَ درباً أطول، وصل الجثمان مع حَمَلَتْه العشرة فقط وفي زمن قياسي، لا يُعرف هل مَرَّدُ ذلك للركض أم لاختراقهم الدرب الأقصر عَبْرَ الفَلْق، أقسمَ أهلُ غيلم أن ميِّتَهم عَبَرَ عنوة، وأقسمَ أهلُ الفَلْق إيماناً مُغَلَّظة أن الميت لم يطأ بقدميه أرض حارتهم، وجاءوا بشهودٍ من جبلِ السليمانية وجبلِ قرن المُطِلّ على المعلاة تقسم أن عمدة غيلم شوهد في دروبهم يركض في أكفانه راجعاً من جهنم لقبره.

أسفرت المعركةُ عن قتيلين في كل حي من أحياء المتقاتلين، أما الجرحى فكانوا بلا عدد في حارة الفَلْق، لأن هلال الجن أراد إذلالهم لا أكثر. . .

تَعَادُل عدد القتلى كان الجسر الذي عَبَرَه الوسطاءُ بالصلح، ذاك دلالة على التعادل في المهانة التي لا يريد عاقلٌ لنارها أن تستشري، لم يجرؤ أحد على إحصاء عدد الجرحى أو مجرد الإلماح للعدد، ذلك مما يجب السكوت عنه لحفظ ماء وجوه نشامى الفَلْق. لكن الخبرَ شَاعَ في أولادِ الحارات، شَعَرَ الكلُّ بالخطر، شعروا بتوق هلال للإذلال، هو لا يقاتل

ليقتل، إنما وفقط ليُمَرِّغ الأنوفَ في التراب، تُحَرِّكه شياطينُ مهانةٍ تتقد للوجوه المُعَفَّرة الكسيرة، الوجوه المخلوعة من عزها وسؤددها. وهلال ـ مُخلصاً لشياطينه تلك ـ يُرَكِّز ضرباتَه على ما يُوجع ويدفع الضحية للركوع لا أكثر، ترقص شومته في الهواء وتتهاوى ضحاياه وإن لم يقتل:

«يبا الله علينا، لو كان هلال الجن عشرة، سَيِّلنا دمه...»

«يبا الله على النشامى، نلبس الطِرَح ونجلس في البيوت ولا نسمح له أن يُلَعِّب شومته في رؤوسنا...»

ارتفع الشعار كدرع أو قناع لحفظ ماء وجوه النشامى. وخنجرا هلال للزينة يُرَقِّصهما في الهواء، يترك وسمَه في وجوهِ وأذرعِ وأعناقِ أعدائه العتاة. يحرص ألا يطعن، فقط يُحمِّي خنجريه في الهواء وفي ناره الجوفية ويَسِمُ عن يمينٍ وشمال. يترك في حلوق أعدائه مرارة، يلحقونه باللعنات والشتائم:

«هلال هذا ألعن من نخاولة الجن، لو لم يعرف كيف يؤذيك مشى إلى جوارك وداس على ظِلِّكَ...»

«هلال ولد حوش لو صَلَّى في الكعبة ما جازت صلاته...»

بَلَغَ الخبرُ الحاج طاس وهو في طريقه لصلاةِ الظهر بالمسجد، أنصت لمحدثه حتى أنهى حكايةَ جنازة عمدة غيلم، لما فرغت الحكاية رجع لبيته، ودون أن ينبس بكلمة

دخل في فراشه ورقد، وما قام بعدها. بصمتٍ أمضى أيام الفالج، وهكذا وجده عزرائيل حين دخلَ البيتَ مع الجندِ وأخذَ من أخذَ من حِمَى الشيخ نصيب. انقطعَ الحاجُ طاس عن حلقته بالمسجد الحرام، تكوم في فراشه، وحوله لوعةُ الحاجة ميمونة، لوعةٌ بفرحٍ وحشي:

«هلال حي يرزق، هلال الجن...» كرَّرت الاسمَ كحجابٍ ضد الموت (هلال الجن).

لم يكن ما ينصر هلال القوة، وإنما ذلك الخطف في الحركة مثل إعصار يُباغت مُنَازِلِه، لا يَتركُ لفردٍ أن يحصره، لا ينازل فرداً وحيداً وإنما ينتقل مثل صرخةٍ بين الجمع: يده لا تُرى تشقُّ الهواءَ تخطفُ كدمةً هنا وشرخَ خنجرٍ هناك وضربةَ رأسٍ (روسية) هنالك، لا يغادر حَلَبَةً ولا يسمح لجسده بالسقوط قبل أن يترك وسمَه على الوجوه، جسده نحيل ممشوق بسوادٍ يشف بنارٍ بين تذهيبٍ وخضرة، لذا لا يُرى حين يجول في معركة، يَتَمَلَّص من انقضاضِ الخناجرِ والشومات والموت، يصفونه: «زئبق إبليس الأبالسة...»

صار هلال الحامي لمن لا حاميَ له، صار المفضَّل لمرافقةِ المواكبِ الواقعة في حظر، يستأجرونه للعبورِ بزَفَّةِ عروسٍ أو بجنازةٍ في حارةٍ معادية. الحارات لا تُفتح إلا لحليف، وهلال صار الحامي لكل من شاء اقتحام تلك الأعراف التي لم تُخَطَّ إلا في كتب الشومات وبالدم الحي. ينتظره المستضعفون في هيئة معجزة:

«هلال يللي يقرأ على الحُمُّص ينقلب أسداً...»

«هلال يللي يبصق على العود ينبت نار..»

جسده في خضرته القاتمة هو المعادل في نحوله وشهقته لجسد خاتم، أشبه بتوأمان في القامة، لكن خاتم تميل لشحوبٍ وحمرةٍ وهلال يميل لقامةٍ تَشُفُّها الخضرةُ، كما جسد وظله، هلال على خِفَّةٍ وصلابةٍ بينما الظِلُّ على رهافةِ ورقة. تكفي ميلة من هلال لتذرو خاتم، بينما تكفي إعراضة من خاتم لتضرب زئبق إبليس في مَقْتَل، مما زاد في انطواء خاتم عنه ومناورته بشراسةٍ أينما عَثَر بها. كان يزداد خِفَّة في حضرتها، يكاد لا يُلْمَس، ومع ذلك تُوجعه...

* * *

لا تعرف من أين طلع لها هلال بين الأحراش، كانت عائدة لبيتها مع الظهيرة حين أنقضَّ عليها مثل باز، فجأة فَقَدَها الطريقُ، لم تعرف أين تتجه، وَقَفَ أمامها يتأمل فيها بسخرية ولا يفارقه الغضب، مم؟ لم تجرؤ على السؤال، هتف:

«أين تفرين؟! أنا لا أبحث فيكِ عن إشباع، أنا أبحث عن جوع...» إن نَفَساً واحداً كفيلاً بتفجير الأرض تحت قدميها، تفجير الأرض في هذا الجسد الحائل بينها والأمان، ومع ذلك فاجأها صوتُها:

«يوماً وراء يوم تزداد شبهاً بطبطاب جهنم...» فاجأها: مَنْ ذا الذي طَلَعَ في صوتها ليُثير وجعَ الطبطاب؟ الدفعة القوية التي تلقتها منعتها من التساؤل. في لمحةِ كانت ملقاة

على الأرض، انغرست الأعشاب البرية بجسدها، أعشابٌ من نسل السَموم تنمو من هجرٍ ولم يزرها المطر في عام. لم يحفل، ولم تتلفظ بآهة، كانت تُنْصِتُ لِتَفَتُّقِ الأوراق الجافة تحت عنقها هابطة لعظم كتفيها، منغرسة في طراوة خاصرتها، مجتمعة تحت جمجمتها مثل طبلٍ يُجَسِّم صوتَ العشب في قُبَّةِ رأسِها، ثم تَصَاعَدَ الإيقاعُ بهسيسِ الخنجرين، طلعا من حزامه، تحولا لقبيلةِ خناجرٍ تغمزُ الهواءَ حول جسد خاتم، تُحَوِّطُ الجسدَ في لحمة الجبل بوشمٍ يغور، حتى استقر الخنجران بضربةٍ في البركان الصخري، كلُّ خنجرٍ على جهةٍ من رأس خاتم، التي بدت مثل شيطان. ضَحِكَ، جاءت الضحكة من نغمةٍ صادية تُرَجِّفها بَحّة نار... ثم غاضت البَحَّةُ لشهقةٍ، بدأ بسبابته من منتصف جبهتها في اتهام طويلٍ، حين هَبَطَ الأنفَ تَحَوَّلَ لإخضاع، ثم مالَ للاستعطاف في اعتلاله بمرجان الشفتين، الرجفَةُ طلعتْ من تلك السبابة وقَوَّضَتِ الجسدين معاً، حين صَعَدَ الذقنَ شَعَر بحرقةٍ للعزة، ثم فقدَ سلطانَه على الحركة حين انزلق قلبُه على جرف العنق مثل غزالة، في الحفرة بين وريدين غَابَ النشمي.

تَدَاخلَ الإيقاعُ بكلماتٍ لا تعرف من أي جرفٍ سحيق تطلع:

«هل سمعتِ؟ هذه هي الوحدة التي وُلِدْتُ لكي أبلغَها، وحدي أملكُ هذه الوحدة، ولن يسلبها أحد، ولا حتى أنتِ...»

الصمت الذي تلقاها في ذلك الصدر كما الصمت المُسَيَّج لجوف العود، صمتٌ يعرفُ عن النغمات وتطريبها مالا تعرفه كلُّ الألسنة ولغاتها، صمتٌ أخذَ يجرفها بدوامة، لأنه يقول ما لم تجرؤ قط على قوله، يقول ما ظَلَّ يؤرقها مذ عرفت الأرق والرغبة، يقول ما لا بين جسده وقلبه من حجابٍ، مالا قيد عليه ولا سَجَّان. كَسَت وجهَ خاتم حمرةُ غضبٍ مما طفا لإنسانِ عينيها مثل حَبَّار، كاملُ بشرتها مالت لِبَهرة الجَرحِ الكمينة في الوردِ الطائفي.

«عندي جوع ! «وأَلْجَمَها جوعٌ سحيق.

«دوماً أجوعُ لحلمٍ قديم، حلمتُه بكِ عندما كنتُ طفلاً، في كلِّ لحظةٍ أستيقظُ بهذا الجوع لنفسِ الحلم. أتعرفين كيف تشتاقين لتَذَكُّرِ تفاصيلِ حلمٍ تعرفين أنه الذي لا يتكرر وفيه إجابةُ كلَّ عرقٍ بجسدك، فيه لا تُشبهين أحداً لفرط كمالكِ ولا يُشبهك؟ لكن التفاصيل امّحت، ومهما حاولتِ استرجاعه لا يرجع، أتعرفين هذا الجوع؟ أما زال منه لديكِ؟»

عينه غارت بجوفها مثل سيخ محمّى، كل ما فيها جَحَظَ لذاك السؤال، جاء صوتُه آمراً:

«عندي جوع، وكل ما عشتُه لم يُسَكِّن ذرَّةً من حرقته، لم أعرف شبعاً قادراً على إطفاءِ هذا الحلم.»

غاص يبحث في عنقها، رفعها عن الأرض في راحته:

«ها أنذا أكرر: عندي جوع لمفتاح ضاع مني ويُضيعني، حتى رأيتُ وجهي كما أراه الآن في عينيكِ، أعرف أنني لو

نظرتُ كفاية لبدأتْ تجيء، صورة وراء صورة تفاصيلُ تلك المجنونة بقلبي..»

أغمضتْ عينيها، هَزَّها بعنفٍ:

«افتحي! أين خبأتِ المفتاح؟ أبقي منه لديكِ شيء؟ أم ما زلتِ جبانة؟ دوماً تُغنين أغنيتهم، هي ليست لعودك، ولا هذه العين التي تُغمضُ عينُكِ...»

انتزعَ الخنجرَ من لحمةِ الجبل، شَعَرَت بالجذبة في قاعِ جسدها، استبطنتْ ذاك التقلص، وبضربةٍ خاطفةٍ صوبَ خاتم انتزعَ شهقةً بخُصلةٍ من ذلك الشعر الناري، فَرَقَ من الخصلةِ شعرة واحدة:

«هذه الشعرة ما تخبئ لنا؟ أنا فقط القادر على سماعها...» مَرَّرَ الخصلةَ برقةٍ متناهية على وجنتيه، وعينُ خاتم وقلبُها شخوص لتلك الرقة! كان همسه يطلع من خصلاتها الآن تقشَعُر:

«بضربةِ خنجرٍ أستطيع شَقَّها لنصفين، وستسمعين المفتاح. أستطيع شَقَّ كلَّ خصلةٍ من جسدي لتسمعي. لكنكِ ما عدت قادرة على الإنصات في هذا الصوب، تخافين الأغنيةَ التي بقلبها كلُّ ما يُغنِّي...»

لَفَّ الخصلةَ على عنقِ الخنجر، تلك الحركة على بساطتها شَقَّت صدرها كجرح، شَعَرَت بما يلتفُّ حولَ نحرِها كأفعوانٍ من برودةِ تلك الشفرة، وطَيَّرت صوابَها، لطمتْه، طار الخنجر تاركاً شرخاً على وجنته، تَجَمَّدَ هناك جاثياً عليها

دون أن يرفع يده للسواد الذي صار يقطر، شَعَرَتْ بين يديها بشيء يرجف، يرجف كما لم يرجف حيٌّ من قبل، بين يديها وفيها. أهو المفتاح أم الخنجر؟ حين نبشَ فيها لم تعرف ما بغيته، تملصت من تلك الأيدي بضراوة، لكن ذاك الزئبق كان حولها وفيها، ثَبَّتَها كحجرٍ في جبله، حين لَفَح سَموم الجبل صحنَها خَدَّرَها، لم تكشف أبعد من سُرَّةِ ذاك الصحن من فضة، لم تمتد لها يده، راحت اليد لجرحه، حَلَبَ وقَطَّرَ للسُرَّة، قطرةٌ فارت وسَرَت بكاويها في كلِّ فجٍّ واستقرت على اللسان تتفطَّر، استحلبت من ريقها ما يطفئ تلك القروح مرارةً على لذعة، لم تفته تلك الصَبَّة. الفحيح حين طلع لم تعرف أمِنَ الجسدين أم من ثالثهما الجبل:

«واللي خَلَقَكِ ما يفكِكِ فَجَّ عني...»

تَحسَّسَ الأرضَ وراءه، متناولاً الخنجر حيث سَقَطَ، وبخصلةِ الحمرةِ مَسَحَ القطرَ عن الوجنة، صارت خصلتها دموية، عطشانة تتقد في الهواء حتى تفحمت، «شَعري مثل دم التنين ما أن يمس دمَه حتى يَسْوَدَّ!»، زادت الرجفة لما لا يُطاق كلُّ عصبٍ فيها تأوه بكتمانٍ، نظرت في عينِ التنين، وكان يدخلها من العين منزلقاً في جوفها مثل ماءِ النار، شعرت بجسدها مفتاحاً ينتصب لذاك التنين، يتدفق من عينه، وفجأة قَفَزَ خيالٌ، انقَضَّ على كتفِ التنين، صرخ صرخة وخلا ضحيتَه، وفي نفس الصيحة انفلتت خاتم، اندفعت فارَّة من بين يديه، كانت بعيداً حين التفتت وراءها، لتجده هناك، حيث هو، جاثماً لا يزال على خيالٍ كان، ينظر لما تحته،

لهشيم النبات الجاف، ووجنته صفحة من مغسول سوادٍ يسيل. الغيابُ على ملامحه أرخى سيورَ الغضبِ عن شفتيها، ابتسمت، واجتازت المسافةَ على مهل. حين استرجعت الخيالَ عرفته: من لامكانٍ كانت شاحوطةُ ماعزُ الحشَّاش عَنْزَروت قد جفلتْ، ومَضَتْ تركلُ الهواء.

وقفةُ هلال هناك ظَلَّت مطبوعة مثل بئرٍ بقلب خاتم، وقفةٌ تطلبُ منها الهوينى واللهاث في آن، كيف تحبس ذلك في لحنٍ؟ كيف تَسترجعُ الأغنيةُ مثلَ تلك الوقفةِ التي تستنطقَ الأسماءَ الغافيةَ في خطرٍ يبدأ من الجبهةِ للنحر؟ تريد أن تُغَنِّي تلك الأغنية كيما تشعر بأقصى الخطر حيثُ لا نجاةَ إلا بغيبوبةٍ، تدخل الغيبوبة التي تُخبئ الطريق الوحيدة لأقصى الوعي، على تلك الطريق ينبتُ الوعيُ حادّاً حرّاقاً لا يحتمله الجسد فيُذْرَفُ دمعاً، تذرفُ العينُ أغنيتَها من دم... صَرَخَتْ في المسافة بينهما، حين تيقنت أنه لا يسمع:

«هذا ما تريده يا هلال....» واحتارت ما يريد! عيناها لا تحول عنه! ذاك شرطُ بقائه، يتنفس في أنفاسها ناراً، يُقْبِل على الموت في حِجْرِها مثل كركدن، يريد منها النواح واللانواح، وعيه واللاوعي، يعبرها كصراط شياطين، خطاطيفها جاهزة عن يمينٍ وشمالٍ، على ذاك يريد لها أن تكون ليَعبر، منشغلة بالابتلال من الرأس لقاعِ الجرحِ بذاك السواد.

فجأة رجعت خاتم طفلة محمومة على خارجة والمطر

ينهمر من داخلها، مطر أسود حراق، لا تعرف كيف يرتوي، ولا ما يريد أن يروي !

***

خلَّفَت هلال وراءها وسارت، حين بلغت المسجد القائم بين ضفتي الجبل توقفت، واعتراها هاجس الوضوء، نبشت عن الدم فلم تعثر له على أثر، تلاشى كمن صعد وتأصَّلَ من مخاوفها، عاودها اضطرابُ الصغيرة التي تختبئ لتسقي وتُطْعِم السُكَّرَ والعنبرَ من بوابةِ الحياةِ قطرةً قطرة، تضطرب وترتطم بالأشياء. ها الاضطراب يعودُ ليُسَكِّنها، وقفت تتأمل في الحجارة الأقدم من الوقت، وناداها النسيانُ في الداخل، تقدمت مخترقة قوسَ المدخلِ الذي لم يُوَطِّن قط بوابة، تقدمت في الصحنِ لأول مرة من دهر، تجاوزت ميضات الوضوء، لم تتوقف للهجر حولها ولا للريح التي لم تنقطع صلاةُ تهجدها هناك، لجأت للمحراب، هناك إمام، على حنية جسد المحراب الغارقة في الغيب كان إمام، لا تعرف ما يقول، لكن كانت لصوته القدرة على التجسد في كتابات ورسوم وتمتمات تُسَكِّن حتى شعشعة الريح، تُؤَمِّنها لتخشع، تُؤَمِّنُ حتى الخوف. كان يخطب في الصمت، لا يقول شيئاً بقدر ما يدفعُ الصمتَ لخلع جلوده لِلَمْلَمةِ الداخلين، غرقت خاتم في تلك الخطبة، وجاء جسدها ينكشف لها لأول مرة، تأملت في أعضائه إلى معقل تلك الربطة من حياد، تمدد جسدها لحواسها في ذاك الأمان، تحيرت أين تقوده، بوسعها الخروج عارية للطريق مثل سبيل

يُكاشف المارَّةَ يتسمى ويُسميهم، بوسعها الخروج من ذاك المحراب مباشرة للمسعى، وسط الحوانيت تقف وتختن هذه الصورة التي ظلت تتذبذب بها من ذكر لأنثى، بوسعها الوقوف جرداء لتتنصب من جديد في جنس وحيد، لكن هذا الخوف من قفل الأبواب يردها، ماذا لو انغلق الباب أمامها وتلك العوالم المخفية التي لا تنفتح إلا لجنسٍ دون الآخر، تريد عوالم الجنسين، بتنهيدةٍ غارت بوجهها في جسد المحراب المصقول بانحناءٍ للداخل، قالت للإمام:

«أنت ألا تخاف؟» وجاوبها حفيف القراءات على جسده. عادت تسال:

«أينه هذا الذي يتصدر الجلسات بلا وجلٍ من انكشاف هوية، من قفل هوية، من انغلاق باب، تريد أن تعرف ما أنا؟ قل لي: ما أنتَ؟ لو ألصقتُ كامل أطرافي إليكَ، فتحتُها لأطرافكَ هكذا، أتستطيع أن تحبسني في جنس؟» وشاعت في حواسها ملوحة على صندلٍ قديم، رَجَّعَت مذاقَ الصندل على حلمة سكينة حين فطامها، ملوحةٌ على صندل قديم أطلقت خوفاً فريداً في المكان، بسطت كامل حواسها لتلك الحلمة في جسد المحراب، أضمرتْ:

«حين يكون جسدكَ من حجرٍ لا يعود يحفل بالأقفال والقوالب، قل لي كيف تختار صوتك كل صلاة؟ أي نبرةٍ هي للريح: نبرة ذكر أم أنثى؟ هي أيضاً لا تحفل ما تكون؟ أنا أيضاً لا أريد أن أحفل، لكن هناك مفترق طُرق يتقدم صوبي، أنت جعلتَني الآن أراه قادماً، يريد أن يشق جسدي، أو

يحملني على جناح، أنا لا أريد أن أطير. أريد أن أغني، لو تبتعد المفارق عن طريقي. قلْ لها: تتركني في عقدة الطرق. قل للكلمة لا تنفجر! كلمة واحدة/ كلمة طائشة من هلال أو من متطوع/ كلمة تبلغ أبي كفيلة بإطلاق المَفَارِق صوبي لتمزقني، كفيلة بقفل الأبواب وتركي خارج العود، خارج الحميم، خارج جسدي هذا الكلي، كلمة واحدة كفيلة بشطري نصفين، أهذا ما كان يرمي إليه هلال؟ أهذا ما أسعى إليه ويُرعبني: هذه الكلمة السكين؟! في الثامنة عشرة، في العشرين، في الثلاثين، في غمضة عينٍ سيتحتم على أبي الاختيار لي بين جسدين. أتظن لي في هذا الجسد خيار؟ أم كل الخيار للشيخ نصيب؟ هو وَلِّيُ هذا الجسد أم أنتَ الوَلِّي؟ من سيقرر إرسائي لذكر أو لأُنثى؟ ومتى؟ ولماذا توقظَ هذا السؤال ليؤرقني الآن؟ لماذا يأخذ هذا الجسد يرتعد بخوفٍ، لِمَ أشعر به وفجأة يلهث كمن على هاوية لتعجيل الاختيار؟ لم يريد السنوط للأقفال؟ فما عسى الأئمة مثلكَ يفتون في جسدي؟ ما حكم هذا الباب؟ يا محراب بوسعك لَمي لمدفونكَ الصالح فلا أرجع لذاك السؤال الواقف في الخارج ينتظر؟»

لم تعرف خاتم من أين تطلع تلك الحيرة، خوفٌ تَفَجَّرَ فيها بغتة ومن لامكان، لم تعاينه من قبل، لكنه اكتمل وباغتها هنا في صلاة الصمت هذه...

انتزعت جسدَها بعنف من لمة جسدِ المحرابِ الصقيل المنحني لغيب، اندفعت مثل برق في الصحن الأجرد، وفي

لمحةٍ كانت في أجراف الحشاشين، سارت النهارَ بطوله حتى المغيب، لم تعرف من أين تأتيها الطرق لكنها عبرت منها الكثير، في تمام الذكورة سارت حتى قطعت النهارَ، ثم استدارت فجأة راجعة صوب بيتها، صوب الأنوثة التي تنتظرها هناك.

في عبورها للمسجد المهجور اعتراها شوقٌ، انقبض كامل جسدها بيقين أن ظلها لا يزال ساقطاً هناك في المحراب، ملتحم خاشع لخطبة الصندل، في ذروة شوقها دَخَلَها حسٌ بالخطر.

* * *

دخلت خاتم أغنيةٌ تمتد في كل شيء، أغنيةٌ تعرفُ رهبةً كفيلةً بالقتل، جمالاً كفيلاً، وتوشك أن تكاشفها بذاك القتل. صارت خاتم لا تستقر، داخلُها مثل مفتاح يتقلقل في ثقبٍ، ويوشك أن يفتح، تجول في الجبل أكثر مما تهبط الدحديرة، تَجُولُ في المَشَاهدِ التي صارت تتصاعد لتدخل عنفَ أغنيتها: هذا الإيقاع الموشك على المكاشفة، تتجول بين الجبل ومشاهد المدينة بالأسفل، كل ما في الكون يُرفَع لتُغنيه بذاك الإيقاع الجديد الكشَّاف، ذاك المزاج الذي دَخَلَها من جسد هلال. تتجول والأغنية تتجمع: فيها من الحشاشين والماعز، فيها من الحجارة البركانية الغارقة في صمتٍ وسوادٍ أبدي، فيها من الأجساد المؤنثة الصارخة والمعصورة، فيها من بهاء الصغيرات المعفرات بترابٍ سماوي، فيها من المطاحن والأفران التي تأكل وتَتَنَوَّر من ألوان البشر، فيها ساق تَفرُّ من

جسدها لتخبئ كوفيّة قصب، فيها من قَطْرِ تنينٍ بسُرَّة فضة، أكثر ما فيها من الرجال الجالسين على أجراف الجبل، شيوخ لا تُغَطّي أجسادَهم غير الفوط والفانيلات البيضاء، فوط للكاحل وفوط لمنتصف الساق، تقصر أو تطول وفقاً للهوية، على الأجراف العالية يفترشون الترابَ في جلسةٍ يكشف حميمها عن سيقانهم، حفاة يمدّون أرجلهم في شمس العصر ويدحرجون الحكايا للمدينة بالأسفل، يغرفون من صورها المتبدلة ويتزودون، على كل جرفٍ أجساده العِجاف، يتسامر اثنان من الرجال أو تتسع الحلقة، حين تكون خاتم في الأسفل تكاد تجزم أن بوسعها رؤية تلك السيقان المكشوفة متدلية عن عُلٍ تَتَلَقَّط حكايا المدينة المقدسة، تلك الأعين المُحَوِّمة مثل شواهين تخرج للصيد مع ميل شمس العصر، حتى الغروب ثم تأوى لصنادقها. في أغنيتها أجراف، وعلى جرفِ التقطت حكايةَ قادمٍ جديد لضفة الحميم:

«كنت ورفيقي قد نجونا من غزوةِ حربٍ لقافلة حَجّنا، جماعتنا كانت خرجت فارة من الحمى الأسبنيولية التي غزت طُرقَ الحج، لكأننا فررنا من النار لجهنّم، على الطريق فقدنا كل ممتلكاتنا حتى قضت علينا حرب، لم ينجُ غيري وجاري العَود العييري، أنا أويتُ للجبل وهو أضعف من أن يفارق أروقة الحرم، يداوونه هناك ويُرطبون روحه بتمرِ السبيل، حتى يشتد ليقوم بأمر نفسه، ويصعد...» يلقي بنظرة غائمة على المدينة في الأسفل ويكمل الحكاية:

«قبل ولوجنا الحرمَ كنا نسير في جوع لا يحتمله وحش

ولا أهليّ، نسير كلما سقط رفيقي انحنيت عليه للتأكد من وفاته، وبنِيَّتي أكله، فأجده يقوم، وإذا سقطتُ انحنى عليَّ للتأكد من موتي، وأنا أعرف أن لديه نفس نِيَّةَ أكلي، ثم في يوم لاحت لنا شاة يطاردها ذئب، ركضا يلهثان ولحقنا بهما، لحظة أمسك الذئب بالشاة أدركه الموت، فمات الذئب والشاة في نفس اللحظة، حملناهما، ذبحناهما وليس فيهما غير العظم من الجوع الساري في البوادي، شوينا حتى جلديهما وأكلناه، وحملنا العظام معنا لسد الجوع الذي ينتظرنا على الطريق، أكملنا رحلتنا حتى دخلنا الحرم، هنا اعتشتُ على خُبز التَكيِّة والتمر الموزع في الأروقة ريثما سلكت في فرن العم شلضوم على طلعة الجبل، أُجالس النار من الفجر لما بعد الغروب ثم أنام بين أكياس الدقيق في عتم، لا يطيق جسدي الضوء، والآن بعثْ لي الحاجَّةُ زينب من المجاورين الشراكسة تعرض عليّ نكاحها، هي امرأة صالحة تطلب الستر وأنا طالب أنيس. . .» أَمَّنَ على كلامه شيخٌ كامل البياض:

«علينا بالحلال، وحين يشح الرزق ويهددنا الجوع نهب الأولادَ للموسرين المحسنين. . .»

ترجع الأغنيةُ دوماً لترتجف على مشهدِ الأولاد في الثياب البيض والكوافي القصب والبنات في البخانق المقصبة، أجساد بهية تُساق كهباتٍ للقادرين تُباغتُ أوتارَها في ذروة توترها وتُهدد بانقطاع، حميمٌ يتصاعد ويدخلُ صلبَ أغنيةِ خاتم، إيقاع لا يستقِرّ على راحةِ ولا رخاءِ ولا قحطٍ يصب مباشرة في تلك النغمات الطائرة والمطيرة التي تطلع من عود

خاتم. نزلت حُمّى بالعودُ في دار نصيب وذاك الذي في الدحديرة، صارت أجسادهما تفوح بليمونها وزانها والعاج، لا تُطيق فراقَ خاتم، وحين تغادر يبقى عود الحلبية، مستنداً للجدار في الركن تحت النافذة، مشحوناً بالشوق والفضول، يتلصص على عذابات الحميم وأفراحها الجامحة في بساطتها وهناها، يتلصص في استنفار يجعل من المخيف الدنو منه إلا لخاتم، يبقى مسنداً قلبه لأرض الجبل يُنصت برهبةٍ تُحَوِّطه بحظرٍ، بحيث لا يمسه زائر حتى يرجع صاحبه.

«ياربّ سوي الحب بيني وبينها

يكون كفافاً لا عليَّ ولا ليا.»

* * *

كانت ليلة جمعة حين غَادَرَ هلال حلقةَ المزمار قبل اتقاد جمرها والضحايا، لم يكن يشعر برغبةٍ تُحَرِّكه لشيء، هذه الليلة غَادَرَه شيطانُه فجأة، فقدت الحاجةُ للإيذاء والتحدي جدواها، لم تُثره حتى قهقهات الحشاشين، سار على غير هدى، وحين وجد نفسه في دحديرة الشيخة تحفة جالت عينه في الفناء، لم يعثر على ما يثير حماسته للقتال، كل الحجرات مشرعة لكأن الدار تنفض جوفها وتستريح، جَعَلَ طريقَه على حجرة دانة القحطانية، كانت غافية، تَوَسَّدَ إلى جوارها التراب وسَكَّنَ الفراغَ بجوفه، ما أن أغمض عينيه حتى طلعت خاتم، جرداء كقِمَّةٍ بركانية، وَقَفَت قاطعة طريقَه، هتف بها بخوف:

«أنتِ تُضيئين..» شعر بكل الأشياء حوله معتمة، كل الكون معتم و:

«أنتِ الدُرِّي !» يناديها يكرر نفس التعجب مسلوباً بيأس:

«أنتِ مضيئة...» ضحكت، طلعت ضحكتها كما أجراس، يرن نورها حوله: «جَلَّ مَنْ سَوَّاكِ...» وهو مسكون بتوقٍ جارفٍ للصعود، يصعد تلك التضاريس المخاتلة جُرْفَاً وراء جُرْف، يَتَجَرَّح جرساً وراء جرس، لكن نور جسدها يحرق، يتفحم محجراه، يَتَلَمَّس مَصْعَداً إليها، يرشفُ مغابنَ تستدرجه بنهمها حتى انحنى يبلغ راحة القدم، لا لذة تعدل راحةً بباطن القدم، فاحت شفتاه برواءِ أرضٍ لم تُطأ بعد، لا لذة تعدل غَرْقَة برائحةِ الحميم، تُلْقِيه اللذة، لا يعود يستطيع الدنو، والجسد ممعن في الضوء والوضوح يجرحه، شوق لا يخلو من خَبَث الماء يجرحه، شعر بها تَتَجَلَّى له لتجرح، وتلك القُبَّة المضيئة عن يسارٍ وعلى تمام القلب، قُبَّةٌ مُتَوَّجَة بنارٍ سَرَقَتْ حواسَه، وأسفل النار شامةٌ من كامل السواد، ما أن أبصرَها حتى كان سوادُها يطوف به سبعاً، راح وجاء يُذَوِّبُ سوادَها ويُحْرِمُ من الرأس للقدم، ثم يختمُ بشفتيه راشفاً من روح المسك والعنبر والصندل والعود الحي، خَتْمَةٌ من تلك الشامة شَقَّت جوفه بجوعٍ أبدي. صاح:

«آه..» تأوه ما أطاق ذاك الجوع ولا السواد. من حزامه المُلْقَى تناول خنجراً طويلاً بحجم طريق لا يُصْنَع إلا في

فضة الأحلام، قطع الجسد لنصفين، وفَتّح جسدَه لتَصُرُّه إليها بموتٍ لا كالموت، يطلع من نصفٍ دمٌ أسود ومن نصفٍ نارٌ ثم يسيل ويمسك بهلال فيَصُرُّه لا يطير، مصروراً في ذاك السيل نَظَرَ، فإذا جسد خاتم قائماً لا يزال من نور يطوف بشَامَتِه، غَرْغَرَ:

«آه..» تَتَرَجَّع في عود خاتم. هذا الحي الذي لا يطير.

حين أفاقت خاتم ذاك الصباح ناداها حرٌّ للشامةِ على ثديها الأيسر، حين كشفت عنها كانت الشامة قد ألقت بظلها صعوداً صوب الحلمة: عقدة دم! شامةُ دم قائمة قريباً من صحن القُبَّة مثل قربان. أغمضت خاتم على الظلّ بلذةِ مَنْ يُمَسُّ. كلما نَظَرَتِ الظِلَّ مُسَّتْ لقاعِ الحميمِ.

* * *

ضمت العودَ تدندن تشجيرَ عبد الواحد الأشرم في عبد اللطيف مليح الشامية، أغنية طافت مكة مسحورة بطاغية البهاء ذاك، يتدفق كل بيتٍ فيها من أحرف اسمه:

«على جيد هذا الظبي فلُينظم الدُرُّ
وإلا فما للدُرِّ قَدرٌ ولا فخرُ
بدا فأضاء الجو حتى كأنما
بليلةِ نصف الشهرِ لمْ يطلع البدر
دعوني وتقبيلي لخالٍ كأنه
هو الحَجرُ المَثنى وحاجبهُ الحِجرُ

أطوفُ بذاك الخال سَبعاً ومن يطف

فلا بُدَّ من أمرٍ به يُختَمُ الأمرُ.»

قَطَعَ غناءَ خاتم دخولُ سَنَد، جاء يركض، كَفَّت الطيور عن مداخلة الأغنية، كفَّ الضوء يتراقص بدلاله في تخريمات الخشب، كفَّت ثرثراتُ النسوة القادمة من الأسطح المحيطة، كفَّ الماء عن ترطيب الخوارج، كفَّت الميازيب عن تخطيط طُرق الجبل ببللها، سكنت الأوتارُ على ما صَرَّتْه من موجودات، كَفَّ العود بين يدي خاتم عن ترجيع تلك الأغنية الكلية، صار صوته مفرغاً حتى صَمَتَ. وسَنَد حين وقع ببصره على خاتم جالسة في تلك السكينة تَوَقَّف لا يعرف ما يقول، مضت تداعب الأوتار، صوت العود خفف كثافة الحركة في الطيرمة، وقف سَنَد لا يعرف ما يقول، ولم تسأله، لم يعرف كيف يُتَرْجِم لها الخوفَ الذي اعتراه فجأة وساقه للعودة راكضاً من قبو الصياغة لهنا، لم يتوقف حتى كانت أمامه، عادت خاتم تداعب الأوتار للخروج من تلك الوقفة، لم ترغب لسَنَد بالكلام، أرادت أن تسترجع موسيقاها التي تميل للتكامل كل يوم وكل لحظة، لا تريد نغمةً نشاز تُخرج الإيقاع لدنيا غير دنيا الهلال الحميم الحاني على المدينة، دندنة العود تسللت لقلبه، فجأة أندفع يتكلم:

«استدعاني العم سفر ياقوت للخزانة السفلية، هناك دفع لي بالحجر الذي حَدَّثتُكِ عنه، الزمرّد الذُبابي، هذا الذي يُسَيِّلُ عيونَ الحيَّات، أراد لي ياقوت أن أنظر في باطن الحجر، قال أنه يريد لعيني أن تؤكد ما يعتريه تجاه الحجر،

لا أعرف ما قال، لكنني فهمت أنه: يشعر بتشوه ما، بعُرِيٍّ في ذاك الحجر، لكأن الحجر خَلَعَ حظوظَه واستطاب، لكأنه حجر مخلوع أو هامد أو أسلمَ روحَه، حجر يحمل جثماناً عوضاً عن الروح، سفر لم يقل هذا الكلام لكن هذا ما فهمته، كان صوته يُتَرْجَمُ في رأسي لكلماتٍ تفاجئني، أتجدين كلامي مجنوناً. . .» هَزَّت رأسها بالنفي، أضافت من تلك الحيرة والفزع لضربة عودها، طلعت حادة فأصمتت ريشتها، توقفت عن الدندنة، أكمل:

«لم يكف ياقوت عن الكلام، بينما كنت أنظر في الحجر، لقلب الحجر، كيف أصف لكِ صعوبة تلك الرؤيا رغم شفافية الحجر، لا أعرف كيف لكن زمرده على شفافيته لا ينفتح لي، بَرْقُه الأخضر الذُبابي يخطفُ البصرَ فيزيغ، وهذا ما أعجزني عن الرؤية للداخل، شعرتُ بيأسٍ من العثورِ على لمحةٍ من الجثمان الذي وصفه ياقوت، لكن أتعرفين كيف تعرفني الحجارة. . .» نظرت إليه خاتم بهدوء عجيب ولم تنبس بحرف، ولم يكن لينتظر منها استجابة، أكمل، «أتعرفين كيف تقدمتُ في معرفة الأحجار؟ بكِ!» تأمَّلَ في تأثير كلمته عليها، لكنها لم تغادر صمتها، ضمَّت العودَ لجسدها وأنصتت، أزَّ بين ذراعيها خشب الليمون واستجاب له العاج الأقدم من فيل أبرهة، جلست تنصتُ لاستجابة الأخشاب كمن سيجلس هناك منصتاً للأبد. تَغَيُّرتْ نبرةُ سَنَد، صارت أقرب للهمس: «حين ينغلق عليَّ حجر، أسترجعُ صوتَ عودكِ، أُغَنِّي فأدخل، ينفتح الحجر. . .

الأغنية هي الرسول لا يُرَدُّ من بشر أو جماد، هي المفتاح. . .»

صَمَتَ فترةً يتأمَّلُ في عودها، ثم أكمل «حين نظرتُ أمامي كان أمامي كما شرخ بقلبِ الحجر، مثل ضربة برق، ثم تَحَرَّكَ الشرخُ كان يسقط، وللمحةِ خُيِّلَ لي أنكِ في ذاك البرق تُحَوِّطكِ خضرةٌ وتسقطين، قبل أن تمسي الأرض اعتراني ذعرٌ. . .»

ضحك بتوتر «الآن حين أسترجع خوفي أضحك، ما الداعي لذاك الذعر. . .»

بعد صمتٍ أكملَ كمن يُحَدِّثُ نفسَه، «كنتِ عارية في الحجر ومُحَوَّطة بخضرة، لا، كان لجسدك ذاك اللون الذُبابي، لا بد وأنني كنتُ أحلم. . جسدُكِ. . .»

للآن لا يستطع أن يواجه ما الذي أخافه في ذاك الجسد، ما الذي صدمه. حين طال سكوته طلع صوتُ العود، في نغمةٍ جَعَلَتْ سَنَد يَتَرَنَّح بحلاوتها ومراراتها وميلها لِلَمِّ كلِّ تناقضاتِه والكونِ في رنَّةٍ حين تخترقُ القلبَ لا يشتاق إلا للموت إليها، «الحي لايطير، الحي يَحِلُّ» من أين أدركه ذاك الهاتف؟ حين أوشك أن يدركه النغم انتشلته فورةٌ، لايعرف من أين انبثق ذاك العنفوان والتهور، تلك الجرأة الطير، خليط مشاعر لم يُفْرِج عنه من قبل ولا في سريرته، وتَلَقَّفَتْه النغمةُ وهو يهتف بها:

«جسدُكِ هو المفتاح للحجر. . .»

* * *

ذاك اليوم لم تعرف خاتم ما قادها بعيداً عن دحديرة الشيخة تحفة، حين غادرت حلقةَ الشيخ مستور جعلت طريقها على الحرم، وقفت وسط الصحن أمام قبة بئر زمزم، بظهرها للبئر احتوتها خُضرةُ القُبَّة، وقفت تواجه سوادَ ثوبِ الكعبة المسكون بتمتماتِ الآياتِ فغام ماعداها، صارت تجمع من تلك اللغات وتحفظ لعودها، لساعاتٍ هناك تَسَمَّرت بقلبها لصحنِ الطواف، كان المشهد أمامها كما لو أنه يرتسم لعينها لأول مرة، الحركة المتداخلة لأجساد الطائفين في دوران، حركةُ الأجسادِ التي تدخلُ الحَرَمَ بحذرٍ وتساعدها للانزلاقِ للداخلِ حركةُ الأبوابِ المواربة مع حركةِ جهاتِ الأرضِ الأربع، تنساق الأجسادُ لدائرةِ الطوافِ وحين يخامرها الحذَرُ على حافةِ ذاك الدوران يقتربُ جسدٌ نحيلٌ في ثوبٍ أبيض، يهتف بالداخل:

«مطوف يا حاج؟» ولا يمهله للإجابة، يدخل به في الطقس، يضع جُبَّتَه السوداء، يرتفع صوتُه بالموشح الأعتق من الخلق:

«بسم الله والله أكبر... اللهمَّ...»

ينزلق به للحركة الدائرية، يُرَدِّدُ الداخلُ مسلوباً خلفه (اللهم)... وتتضخم دائرة الطواف تتضخم الحركة وتدور بالحرم.

يتكرر ذاك المشهد، ودائماً هناك جسدٌ نحيلٌ ينتظرُ الداخلين، انسحرت خاتم لحركةِ الدخولِ في الطقس تلك، بخفَّةٍ أنيقةٍ يحملُ المطوفُ جُبَّتَه على ذراعه، ويَتَحَرَّك في

ذاك النور الألهي يتقد ثوبه كبخور، حتى إذا طوى لذيله قادماً انبسطت الجُبَّةُ بشموخ ولَفَّتْ بياضَ المطوِّفِ، صارت مثل بقعةٍ شمسيةٍ، مثل نقطَةٍ تبتلعُ القادمَ للطواف، تحبل الحركةُ الدائرية تدور وتضيق وتصعد، الكونُ يدورُ حول خاتم ويصعد في ذاك المسطور اللولبي، غابت في وقفتها تُضْمِرُ لأُغنيتها من ذاك الكمال. واقفةٌ من فتنة واقفةٌ من فزع استبطنت ذاك الكمال، كلما تَقَدَّم الوقت صار جسدُها المطافَ، صارت لتلك الحركة الدائرية التي تأخذ تحبل بالكون وتحبل. . .

مع الغروب مَرَّ الشيخُ نصيب ووَجَدَها هناك، لا تعرف كيف أفاقت، أشاحت بعينها عن المطاف وتبعته لدارهم. حين رَفَعَت رأسَها للجبل الممتد لخطوها اعتراها سؤالٌ:

«من أين تشرب الموسيقى؟» أمسكها توقٌ أن تشرب، هناك حيث الكمال يَتَدَلَّل على شفتيها يمنح رشفةً من هنا وظمأً من هناك، يرسل من خيالاته لجسدها الرهيف فيتطوح، ويمنع حتى تتثاقل حركتها فلا يعود يمشي تحت قدميها الطريق، اعتراها توقُ أن تشرب. أيقنت أن موسيقاها تريد أن تَخْرُجَ بجسدها المخفي من مكمنه وتكتمل، أيقنت أن جسد موسيقاها يشرب دوماً من بقعةٍ غير مرئية، يجيء من هناك يشرب الهُنا ويتوارى، وراء حجاب، أرادت أن تقشع ذاك الحجاب، فكَّرت أن حواسها أحجبة، البصر والذوق والشم ديدبان يمنع عن ذلك النبع، يمنع جسدها من اللحاق بموسيقاه لما وراء الحجاب. تتبعت جثتَها لموتها، البصر أول

من يستسلم: أول ما تطلع الروح يزوغ وينطفئ، ثم يصمد اللسان يتلجج بالحشرجات، وقليلاً يتذوق الموت ثم يتراجع، ليُسَلِّم الحراسة للشم، يظلُّ الأنف يشرب من كافور الجنازة حتى يتم الغُسل فيسقط حجابه ويموت، ليستلم الحراسة السمعُ، هذا السمع لا يُسلِّم ولا بعد إيصاد القبر، ليس قبل طَرْقِ خطوات المشيعين، يعرف أن رنَّةً مما وراء الحجاب كفيلة بتذويبه، يصمد ليذوب، حتى تتلاشى الخطوات ويدخل إيقاع التراب القبر يذوب، تنشقُّ الأغنية مثل طاقةٍ على فردوس تُقابلها حفرةٌ على جحيم، وما بينهما هو يُغَنِّي الذي من عذوبته طلع كل ما يُغَنَّى... لم تعرف من الذي من جوفها يُغَنِّي لكنه يعرفها، يرى كماله فيها. يُغَنِّيها. هنا اكتمال الأغنية. هنا تمام الصمت، صَرَّتُه.

مع شفق ذاك اليوم حين أنصتت سكينة لعزف ابنتها، استرجعت الأصوات التي رافقت ولادتها، أصوات لم تبلغ سمع سواها، لم تنكشف لها من قبل، لذة لا تُحتمل لدرجة الألم، لذة شَقّتها وأخرجت المولود، موسيقى كونية، إيقاعات للدار لحجارتها لكائناتها للجبل والمدينة ربما كانت موجودة .طوال الوقت وفقط حين ولادة خاتم صارت سكينة قادرة على التقاطها، عَبْرَ الألم الذي رافق ولادةَ خاتم صارت سكينة، وربما خاتم أيضاً، قادرة على التقاطها، ومع دخول الليل صارت الموسيقى أكثر حضوراً من كل أصوات الجبل، كمن تُحَوِّم فوقَ رأس خاتم، قدرها بالولادة، بالوقفة التي وقفتها لاتتنكس في الرحم والقدوم لهذا العالم...

دوماً كانت حركة خاتم تشي بمسحور، فَكَّرَتْ سكينة أنها وحدها قادرة على إدراك العوالم التي تأخذ ابنتها وتسحرها، دوماً كانت الدار تترقب بلوغ خاتم، طمثها، ووحدها سكينة كانت ترى كيف ينضج جسدُ خاتم بالنغم، ينضج بطريقته الخاصة، لا بسيلِ دم وإنما بسيلِ عودٍ وأغنية. وهذا الغروب كلُّ الكون يُنصت، تَحَوَّلَ الكونُ للإنصات مُغْلَقاً كلَّ حواسه، الكونُ صَكَّةُ عَمَى، وقفةٌ تُثير فزعاً لا يُقاس بقلب سكينة. دوماً حرصت ألا تثير سحر ابنتها/ بلواها في كلام أو تفكير، بأمل أن يزول بالتجاهل، لكن هذه الليلة كل شيء تَحَوَّل للمراقبة من باطن الباطن وخاتم محورها، الكل مثل قبر وخاتم بقلبه. البِرْكة في الطابق الأول بدت كما لو ترتعد، كما لو يتشقق ماؤها شقوقاً رقيقة، مثل مرآةٍ دَخَلَها ظِلٌّ أكبر من حقيقتها، ظِلٌّ آخذٌ في الانحشار في صفحتها وهي آخذة في الاختناق، مال بلورها للخضرة... لم يجرؤ أحد على الإطلال في صفحة تلك المرآة، من ينظر يقع، وحدها أصواتُ عود خاتم، كانت لا تكف تأتي وتنغمر في بلور.

* * *

تلك الليلة اندلعت الفتنة. كل مكة ارتجَّت لإطباقةِ جيشِ الأمير غالب على حامية الأمير أحمد بقصره بأجياد، كبدايةٍ راجت متسلقة جبال مكة إشاعةٌ عن قتل أحمد، مما جعل انتقال الأمر لغالب سلساً، ثم اشتعلَ همسٌ مع جريان عينِ زبيدة بفرارِ أحمد ومغادرته متخفياً لمكة، لكنها إشاعة لم

تتأجج. خمدت تحت رماد الذعر من جند غالب الذين ذبحوا كل من ساهم في تشييع ميتٍ أو إشاعةٍ أو مقاومة.

الشيخ نصيب أَصدرَ أوامرَه بإغلاقِ داره، ككل بيوت مكة أوصدت على أبنائها وتركت للعسكر تصفية الأصلح لكرسي الإمارة، هتف المشايخ:

«مات الأمير عاش الأمير، لمكة مليك الملك ولا تهتز لتَقَوُّضِ كرسي إمارة، فإذا طلبت الفتنةُ العُزَّلَ فإن بيتَ ربِّ الملكوتِ يَدُكُّ الجبابرة...»

ذاك حال مكة التي لم تخمد إيقاعات ثورتها قط، تسري الحروب والثورات تبتلعُ رؤوسَ بعضها في أنشوطةٍ لا تنفتح وتطلقهم، قَدَرُ مكة سيولُ الدم من هذا التناحر على الإمارة.

انقطعت دروب الجبل لا أحد يهبط أو يصعد، من فاجأهم سيلُ الدم في الأسفل حُبِسوا في الأسفل، ومن فاجأهم السيل في الذُرَى تَعَلَّقوا كقردة الجحيم تصرخ بين سماءٍ وأرض، وحده القلقُ يهبط ويصعد تلك الأجراف والجبال الدائرة على الحرم مثل ختم، خَوَتْ دروبُ المدينة من ذكورها، الذَكَرُ نبتةٌ لا تطلع إلا في أمن، لا تَشُقُّ تربتَها حتى يستتب الأمن، انتظار استتباب الأمر قد يطول مما يهدد بإطلاق الجوع، القلقُ يمُرُّ مثل خفقِ طيرٍ في الصدور، لكن الجوع من أجنحة عزرائيل يَتَخَفَّفُ له من يقابله، فيُجَنِّح كل من يقف على الطريق.

لم يمض أسبوع حتى تَقَوَّضَت مكة من جديد، أفاقت

المدينةُ على جيشٍ يُطْبِق منها على القلب ويقطع أرودتها الطالعة للجهات الأربع، حوصرت مكة في غمضةِ عينٍ بمرتزقةٍ وجندٍ قَابَلَهم أحمدُ قادمين من حامية الأتراك بجدة، لم يخطر لأحد أن يتمكن الأمير المخلوع من جمع كل تلك الحشود بمثل هذه السرعة، لا أحد يعرف أي حظٌ قَطَعَ طريقَ فراره، ولا كيف تفجّر به في قلب مكة؟ صاح صائحٌ وطاف في الحواري:

«ذُبح غالب وعاد الأمر لمولانا أحمد. . .» جثةُ غالب طافت على البراذين بكل زقاق، حتى لم يبق من يُنكر على الأمير تنحيه. كان العسكر في كل مكان يطلبون فلول الأمير غالب.

طوال أيام الفتنة حُكِمَ على خاتم ألا تُغادر ثياب الأُنثى، حرص الشيخ نصيب فأوقد أفران الولائم في فنائه وأحرق كل ثياب الذَكَر، كان محموماً، ارتعدت الدارُ الشاهقة بالحمى، سكينة لم يغمض لها جفنٌ تروحُ وتجيء على المبيت الأوسط، كلُّ المبيتات الخارجة أوصدت، الخوارج حُرِّمت على الجميع خوفَ جوارح الموت التي تَنْقَضُّ غربانها من السماء، تلك إجراءات الحروب في الدُور، لكن الجديد أن سكينة لا تنام، تطوف والشيخ نصيب في دوائر يحرصان ألا تنغلق على خاتم، لا يطيلان النظر إليها، كمن يخبئانها مم؟ لا يعرفان، لا يكف القلق ينبع منها، يرمقانها بشك، بخوف: أيُّ طرفٍ فيها سيخون ويُفشي سره؟

الطَرَقَات التي قَوَّضَتْ بابَ نصيبٍ رَسَمَتْ ندوباً تحت

جلدِ الشيخِ نصيب، سارع فرج فأوصد على سَنَد في حنفيةِ الماء المهجورة بآخر الدهليز، البوابة التي لم توصد قط لم تعتد الطرق فجاء صوت قرعها أجوف يحفر القلب، هبط الشيخُ الدرجاتَ يستطلع القادم بينما جلده يتبقع، حين أطل موسى بحذرٍ عَرَفَ هلال، كان في ثيابٍ لا تُعرف هويتها، أقرب لزي العسكر، مهلهلاً انسلَّ وأوصد موسى، وَقَفَ لا يتقدم بعينه للشيخِ المُطِلِّ على المشهد من أعلى الدرج المؤدي للدهليز، رَصَدَ الشيخُ كيف مالت خضرة ابن المهاجِر للقتامة، حين وقف هناك في عتم الدهليز بدا مثل حطبة أكملت حريقها، كلُّ القلوب والأبصار احتشدت وتَجَلَّدَت حول تلك الحطبة، كلُّ الوقتِ الخوفِ الشكِ الخطرِ احتشدَ واقفاً في مساحةِ الدهليزِ الشاهقةِ تحت بصرِ الشيخِ نصيب، حين تَنَفَّس الوقتُ اندلعت الطَرَقات على الباب، رطانةٌ وصراخٌ وكعوبُ بنادق وطَرَقَات لم تمهلهم، انخلع الباب من عوارضه وانفتح الدهليز للخارج، انصَبَّ ضوءُ العصرِ مع العمائمِ الحمرِ للداخل، بوسط الدهليز لم يتزحزح هلال عن وقفته مبحلقاً في الشيخ نصيب الواقف في بسطة الدرج، لم يلتفت لجند أحمد المندفعين حوله، أطبقوا عليه، وصدرت الأوامر:

«لا تتركوا رجلاً بهذه الدار...» حينها استدار جسدُ الشيخ نصيب يريدُ الطوابقَ العليا، لكن ضربةً أسقطته حيث هو، في لمحةٍ كان جندُ أحمد في كلِّ مكانٍ يفتشون عن مزيدٍ من أنصارِ الثائرِ غالب، بدا جَلِيّاً من ثيابِ هلال أنه كان من

ضمن الثوار، ببزته الخضراء وشارة السواد على كتفه، أُلقي بهلال مكبلاً على الطريق أمام باب نصيب، حوله تَغَطَّى الجبلُ بالعمائم الحمر، في الأعلى كان الجند ينبشون كل حجرٍ عن الذكور، لم تنطلق من بيت نصيب ولا صيحة ولا حتى شهقة فزع، صمتُ موتٍ خَيَّم على المكان، حشرجةٌ غير مسموعة، كانت الدارُ تُعِدُّ سِرَّها للاندلاع، تتلذذُ بآخرِ ذيولِ الكتمانِ، حين خرجَ الجندُ لقائدهم بنبأ خلو الدار من الذكور عَلَتْ قهقهةُ هلال، جحظت عينُ القائد:

«أعيدوا تفتيش الدار، فتشوا حنفيات الماء فهؤلاء المكيون ينقعون ذكورهم خوف الموت، فتشوا ثيابَ النساء. . .» أفاقَ الشيخُ نصيب على صيحة سَنَد، طَلَعَ من مخبئه في حنفية الماء بآخر الدهليز:

«لا تنتهكوا النسوة، ها أنذا ربيب الشيخ نصيب. . .» ودون كلمةٍ انطلقت الرصاصة وأردتْ سَنَد، طفحت جدارنُ الحنفية بالأحمر القاني، سالت لزوجته الكثيفة في الحلوق، لم يطرف جفنٌ للشيخِ نصيب، بدا كمن يرقب في غيبوبة، أيضاً بقيت الدار حابسةَ لأنفاسها، هتف القائدُ بهلال:

«نحفظ لكَ موتة كلب، سيُصَفَّى النجس من عروقك عرقاً عرقاً قبل أن نأذن لك بالموت. . .» وارتسمت حيرةٌ بوجه القائد لضحكةِ هلال المدوية، لَطَمَه، حين أراد الجند التحرك بأسيرهم، هتف هلال ساخراً:

«عطشكم حيران ما درينا، لو درينا ما سقينا، ما سقينا،

ما سقينا. . .» صار يُغَنِّيها، لم يعرف هلال ما الذي حَرَّضَه على الغناء فجأة،، لكن عينَ الشيخ نصيب جحظت، سال سوادُها على الوجنتين، في عماه كان الشيخ يُحَدِّق لا في الجند ولا في هلال وإنما في الباب الدخيل المُشْرَع بآخر الدهليز. انهالت لطمات الجند على رأس ووجه هلال، بينما عين القائد لم تفارق ذعرَ الشيخ، تلقى هلال الضربات باستخفافٍ، شعر بلذةِ الموت على أطراف أصابعه، بينما قلبه ظَلَّ معلقاً في الأعلى، حيث معضلة الأنثى التي قد تطلع في أية لحظةٍ بثياب رجل وتتلقى معه تلك اللذة المدمرة، قَتْلَةٌ معها تفوقُ كلَّ أغنيةٍ اختلسها فيها، جرحٌ مجنون انفتح فيه برغبةٍ جارفة أن تظهر خاتم الآن لتموت معه، انطوى على جسده بآهةِ ألم فَاقَ كلَّ ضربات الجند، ألمٌ طاغٍ لموتة كهذه، رَجَّفَ الدارَ ببركتها، واستحال الهواء حولَ هلال لموجاتِ نارٍ وتطلب أن تمسك بخاتم في أغنيتها الأخيرة. جوعُ إبليس نفسه تَلَبَّسَه على عتبة الموت تلك، شعر بجوعه بلا سلطان ينفلت في المكان وله القدرة على مس الشخوص، على مَسِّ الموتِ وتحريكه صوب تلك المعشوقة، تلك الأغنية، هاج سواده فأعمى المكان، أمسك بأحشائهم، انقدحت العيون، تلبست الجندَ رغبةٌ في الهتك، تَقَمَّصَه إبليسُ ليُغرقهم في تلك الدوامة. من عطفة الدرب أندفع جسدٌ، كان ابن الطواسي يلهث حاسر الرأس في ثياب أنثى، تَتَلَقَّفه أجرافُ الجبل ويتدحرج، خلفه ظهر المرتزقة وبلمحةِ نارٍ أردوه قتيلاً، كفَّ جسده عن الركض، تلملم في ثياب

الأنثى ليرقد في منتصف المسافة للسفح. من لامكان نطق القائد:

«هؤلاء الجبناء لا يعدمون درعاً من الموت حتى ثياب النساء...» وهذه المرة أُفرغت الدار من نسوتها بلا استثناءٍ لسيدةٍ أو جارية، وتكالبت أيدي الجند على جسد هلال يكبحون سوادَه. على جدارِ دارِ نصيب اصطفَّت شارة والحاجة ميمونة وسكينة وبناتها بما فيهن خاتم، كن في حالة من التبعثر، بأيديهن تروح وتجيء على رؤوسهن في محاولة يائسة للاستتار ببقايا المحارم والمدورات والعباءات التركية، لم تبق في الطوابق العليا أنثى، وتقدم الجند يمسون أجسادهن، ولا يد مَسَّتْ لهن حجاباً، اليد تتجه لما بين الساقين في محاولة سريعة للتحقق من الهوية، حين مست اليدُ خاتم توقف قلبُ الشيخ نصيب، ببياض عينه يجحظ لا على خاتم وإنما للباب الدخيل يُصَفِّق بآخر الدهليز، لأول مرة أدرك أن خيالاً كان منقوشاً هناك وزال الآن، حفرةٌ بحجم رأسٍ تبقر جوفَ الباب. سقطت سكينة حيث هي، بلا نَفَس، تهاوت الأيدي الغليظة تُجرِّد خاتمَ من ثيابها، حين تهاوت دِكَّتُها وسراويلها، دوَّت صيحةٌ عظيمة:

«يلعنك...» انشقَّ قلب إبليس في تلك الصيحة، في نفس اللمحة هجم هلال على خاتم والعيونُ على عضو خاتم واندلعت النار، سقط هلال وخاتم في طلقةٍ وجوابها، وانفجر الإيقاع في كمالٍ وحشي، اللوعةُ التي شَقَّت صدورَ بناتِ وجواري نصيب لم تحتملها قمم قعيقعان العتيدة، لوعة

الخصي، وقفتْ دارُ نصيب مثل عملاقٍ مخصي وسط وابل العمائم الحمر، وفي ظلها انطوى الجسد الشاحب على خضرة ظِلِّه القاتم، قلب مضفور بمفتاحه بلحمة الجبل، ظَلَّتْ دهشةُ الخديعة محفورة على وجه هلال في موته، محفورة في عيون الأخوات والجواري وتلك المتلصصة من وراء الرواشن، كلها جاحظة لما بين ساقي خاتم الملقى على الطريق عار مكشوفاً للرواشن والعيون وشهوة الحكايا لا يستره غير ظل هلال، نظرة هي مزيج من دهشة على ذعر وغيظ وغدر ذاك الاكتشاف. وحده سَنَد قضى دون أن يعرف تلك الحقيقة المباحة على الطريق. تَرَجَّعَتْ صيحةُ إبليس:

«يلعنك. . .» صيحة وحشٍ لا يُعرف من أين طلعت، صيحة لا يمكن أن تطلع من صدر بشرٍ مَزَّقت لحمة الجبل، من الأعلى بدا الجبل بحراً من حمرة تلم ضفتيه بحميمها ونعيمها، وبقلبها تُرفرف لا تطير فزَّاعةُ سوادٍ، انصبَّ فزعُ الوحش والطير لتلك الشامة على سطح بيت الدحديرة حيث فزاعة من عباءةِ الشيخة عَلَّقَتْها دانة لتصد عن مراكن شارتها. من الأعلى بدا الجبل والبيت الحرام بحرَ حُمرةٍ يطوف بقلبِ فحمة.

النهاية